عبد الرحمن الشرقاوي

الفاروق
عمر بن الخطاب

[redacted]

الفاروق
عمر بن الخطاب

عبد الرحمن الشرقاوي

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠١ يوان

المحتويات

صفحة

في رحاب النبوة

قال عمرو بن العاص : « رأيت مصباحا فى منزل الخطاب وأنا صغير ، فسألت عنه فقيل وُلد للخطاب ولد غلام فكان عمر رضى الله عنه » .

ونشأ عمر كما ينشأ غيره من أطفال قريش ، إلا أن أباه أهتم بتعليمه القراءة والكتابة ، فلما شب الغلام كان واحدا من سبعة عشر يتقنون القراءة والكتابة فى مكة كلها ! . .

وأقبل الغلام على كل ما يقع عليه من كتب ، فحفظ الشعر وأيام العرب ، وأنسابهم ، وأعد نفسه ليملأ رأسه بكل معارف عصره ، غير أن أباه الخطاب لم يتركه يستمتع بالقراءة كما يشتهى ، بل حمله على أن يرعى له الإبل فى الوديان المعشبة المحيطة بمكة . . وهناك عانى عمر الكثير من غلظة أبيه ، وشدته عليه ، فكان إذا عمل أتعبه ، فاذا أغفى ليستريح ضربه !

فلما بلغ عمر أشده واستوى ، آتاه الله بسطة فى الجسم ، فاصبح فتى أبيض الوجه مشربا بالحمرة ، حسن المحيا ، طويلا قد فاق الناس طولا حتى كأنه على دابة ! فأقبل على تعلم الفروسية والمصارعة حتى أتقنهما ، فكان يمسك أذن الفرس بيد ، والأذن الأخرى بيده الأخرى ، ثم يثب على الفرس حتى يقعد عليه بين إعجاب الشباب من قريش ، وينطلق به الفرس يسبق كل من يسابقه ، ولقد تفوق فى المصارعة حتى صرع كل من صارعه . .

وشجعه أبوه على هذا التفوق ، فقد كان أبوه شيخا لقبيلة صغيرة اسمها بنى عَدِيٍّ ، وكانت القبيلة تعانى من قلة العدد ، ومن الضعف ، حتى لقد استضعفها بنو عبد شمس ، فأجلوها عن مواقعها أسفل جبل الصفا ، فآواها العاص شيخ بنى

سهم ووالد عمرو ، وأسكنها فى مساكنهم ، وكان العاص كثير المال ، وكان يلبس الحرير الموشى بالذهب .

سر بَنِى عَدِىٍّ أن يبرز من شبابهم فتى يشتهر بالقوة ، ويعرف القراءة والكتابة ، ويتقن معارف شتى . . ذلك أن هذا الامتياز بالقوة البدنية والعقلية يعوض القبيلة عن فقرها ، وقلة عددها وضعفها ، ويكسبها الهيبة بين قبائل قريش . .

أحب عمر الخيل والمعرفة ، ولزمه حب الخيل وحب المعرفة طوال حياته . . ولقد فوجىء الناس ذات يوم من أيام خلافته ، بفرس يركض حتى لقد كاد يطأ الناس ، وعليه فارس طويل مهيب ، وإذ به الخليفة عمر بن الخطاب ، فلما قرأ الدهشة والإنكار على الوجوه قال : « وما أنكرتم ؟ ! وجدت نشاطا فأخذت فرسا وركضته » .

كان شباب عصره يشربون ويطربون ، فأدلى عمر بدلوه معهم ، وأسام سرح اللهو حيث أساموا !

إلا أن ولعه بالمعرفة شغل كثيرا من الوقت الذى كان يستهلكه غيره من الشباب فى الخمر والنساء . .

ثم اشتغل بالتجارة كما يشتغل غيره . . ولكنه كان صارما ، شديدا ، يكاد لا يبتسم ، فلم تؤهله تلك الصفات للكسب ، ولكنه ربح من التجارة ما هو أنفع له من المال . . ما انتفع هو به ، وما نفع به الناس من بعد : كسب معرفه طبائع البشر ، وكسب معارف جديدة من البلاد التى زارها للتجارة ، إذ أنه لم يكتف برحلة الشتاء أو رحلة الصيف ، كإيلاف قريش إلى اليمن والشام ، ولكنه تعود أن يسافر إلى بلاد الفرس والروم ، وهناك تعلم كثيرا من فنون الحكمة ، كما لم يتح لأحد غيره ممن تشغلهم التجارة وحدها . . .

* * *

كان أهل مكة فى ذلك الزمن يعبدون الأصنام ، ولكن نفرا منهم نفروا من عبادتها ، وشرعوا يتأملون ، ويحاولون أن يتعبدوا بما يشبع أرواحهم ويرضى

عقولهم . . ومنهم من اعتنق النصرانية ، ومنهم من هام على وجهه يبحث عن الحقيقة ، ومنهم من وقع على صحف ابراهيم وموسى . . وكان منهم زيد بن نفيل عم عمر . . وقد اهتدى زيد إلى دين إبراهيم ، ودعا قومه إلى عبادة إله واحد لايشركون به شيئا ، وقال لهم : « أيرسل الله مطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى منه ، وتذبحونها لغير الله ؟ ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على دين إبراهيم غيرى . » . . فانكره قومه ، وكان الخطّاب أعظمهم إنكارا . . واشتدت قريش على زيد حتى اضطرته إلى الهيام فى أرض الله . . فما كان يمكن لقريش أن تسمح لأحد بأن يسفه آلهتها من أصنام الكعبة التى يحج إليها العرب جميعا ، فتتدفق أموالهم على أهل مكة ، حيث تقام أسواق قبل موسم الحج ، وتظل طوال الموسم ، وكان أشهرها سوق عكاظ الذى يضم الملاهى ، والملاعب ، وألوان المتاع والرياضة ، وفنون المساجلات من شعر ونثر . . وفى سوق عكاظ هذا برز عمر فارسا لايلحق أحد به ، ومصارعا يصرع كل من صارعه ، وصاحب لهو ، وصاحب معرفة تفوق بها على الأقران .

وقد أَهَّلَتْهُ هذه المعرفة مع حسن بيانه ، وطلاقة لسانه ، لأن يكون سفيرا لقريش ، فهو عالم بالتاريخ ، وبأنساب العرب ، مطِّلعٍ على حكمة الشعوب الأخرى ، حَرِىّ بأن يفاخر عن قريش ، وأن يحاور سائر أمراء العرب ، بما يملأ عقله من حكمة ، وبما ثقف روحه من حنكة . .

وفى الحق أنه كان يدافع عن كل ما ألفته قريش من عادات وعبادات ونظم . . وكانت له طبيعة مخلصة تجعله يتفانى فى الدفاع عما يؤمن به . . وهو على الرغم من شدته فيما يؤمن بأنه حق ، رقيق المشاعر ، يطرب للجمال ، ويهزه الشعر الجيد فيتغنى به ، وكان حسن الصوت .

وحين أصبح خليفة قابل النابغة الجعدى فاستنشده بعض شعره ، فلما سمعه قال عمر له إنه غنى هذا الشعر فى شبابه وهو يرعى جمال أبيه الخطاب ! !

* * *

وبهذه الطبيعة التى جعلته يشتد فى الدفاع عما يؤمن به ، قاوم عمر الإسلام فى أول الدعوة . .

ولكنه رأى رجالا من أهل الحكمة والمعرفة قد اعتنقوا الإسلام مثل أبى بكر بن قحافة . . ورأى الدين الذى لم يؤمن به قبل إلا امرأة هى السيدة خديجة ، وغلام هو على بن أبى طالب ، ورجل هو أبو بكر ، رأى هذا الدين يجذب آخرين وأخريات . . لم يكونوا كلهم من المستضعفين ، فقد كان منهم بعض سادة قريش مثل عثمان بن عفان من بنى عبد شمس !

وخشى عمر أن يهز هذا الدين الجديد النظام المكى الذى استقر ، والذى يجعل لمكة بين العرب مكانا خاصا ، ففيها البيت الذى يُحَجّ اليه والذى جعل قريشا ذات مكانة خاصة عند العرب ، والذى صار لمكة ثروتها الروحية ، وثروتها المادية ، فهو سبب ازدهارها ، وغنى سراتها . .

قاوم سراة مكة هذا الدين ، وبطشوا بالمستضعفين من معتنقيه . .

وكان عمر من أشد أهل مكة بطشا بهؤلاء المستضعفين .

ولقد ظل يضرب جارية أسلمت ، حتى كَلّت يداه ، ووقع السوط من يده ، فتوقف إعياء ، ومر أبو بكر فرآه يعذب الجارية ، فاشتراها منه وأعتقها ! !

وعجب بعض المسلمين لبقائهم فى مكة تحت وطأة التعذيب ! فيم كانوا مستضعفين فى الأرض ؟ ! أليست أرض الله واسعة فيهاجروا فيها ؟ ! بلى !

وأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهناك ملك مسيحى عادل لا يُظْلَم عنده أحد ، فما بقاؤهم على الضيم فى مكة بعد ؟ !

هاجروا بدينهم إلى الحبشة . . وما خرج أحد منهم من داره إلا متخفيا تحت جُنْح الليل ، حَذَرَ بطش معذبيهم ، وخشية أن يحولوا بينهم وبين الهجرة إلى حيث يفرون من الضيم ، إلى آفاق جديدة مطمئنة . .

وذات ليلة عاد عمر إلى منزله ، فوجد جارة له تُعِدُّ للرحيل ، وأمامها متاعها ، وهى تنتظر زوجها الذى تغيب فى الدار لبعض حاجته . .

كان عمر قد تعود أن يعطف على هذه الجارة العجوز ، ولكنها عانت هى وزوجها من عمر منذ علم أنهما أسلما . . وإذ رآها تهم بالرحيل ، جاشت نفسه بالإشفاق عليها ، فما عساها تصنع هذه العجوز إذ تضرب فى الأرض هربا من الأذى ؟ ! ما هو هذا الدين العجيب الذى يمنح مثل هذه المرأة الضعيفة قوة الإصرار ؟ ! . .

وتقدم منها عمر ، فاختفت منه وراء متاعها ، ولكنه تلطف قائلا لها : « إنه للانطلاق يا أم عبد الله ! » قال : « نعم والله . آذيتمونا وقهرتمونا ، فَلنخرجنّ إلى أرض الله حتى يجعل الله لنا مخرجا . »

ووقف عمر صامتا ، وهو يشعر أن صدره قد أصبح ضيقا حرجا . . أى بلاء يعانيه أتباع هذا الدين الجديد ، وهم على الرغم من ذلك صامدون ؟ ! ما سر تلك القوة الخارقة ؟ !

وشعر بالحزن . . ورق قلبه ، ورأت أم عبد الله فى وجهه تحت ضوء النجوم انعكاس ما يضطرم فى الأعماق منه . ورأت فيه رقة لم تكن تراها فيه من قبل منذ أسلمت . .

وقال عمر لأم عبد الله : « صحبكم الله » . وانصرف . . فلما جاء زوجها وقد بدا عليه الحزن ، انطلقا ، وروت له ما كان بينها وبين عمر . .

قالت : « لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ! ! » قال زوجها : « أطمعت فى إسلامه ! ؟ فلا يسلم حتى يسلم حمار الخطّاب ! »

* * *

فى تلك الليلة لم يستطع عمر أن ينام . .

إن ما يحدث لشىء عجيب حقا . . !

إن هذا الدين ليَصُبّ فى عروق أصحابه عصارة جديدة تجعلهم أشد قدرة على الاحتمال والتحدى . .

وعمر يفكر فيما سمع من أصحابه الذين كان يسمر معهم منذ قليل . . لقد أسلم حمزة أسد قريش ! !

ومازال حتى أشد الناس عداوة للإسلام ، يتذاكرون إسلام حمزة ، ويروون قصة إسلامه فى إعجاب خارق بشجاعته . . وعمر أيضا معجب بقوة حمزة ، وإن كان ليشفق على مكة وأصنامها ومكانتها بعد إسلام هذا الرجل الذى سمته العرب : أسد قريش ! قال المعجبون وهم يروون قصة إسلام حمزة

ابن عبد المطلب عم النبى : « مر أبو جهل عمرو بن هشام برسول الله عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه الرسول ، وكانت جارية لأحد سادة قريش تسمع ذلك وتراه ، ثم انصرف أبو جهل فعمد إلى الكعبة حيث جلس مع قوم من سراة مكة تعود الجلوس معهم ، فروى لهم ما آذى به النبى ، وسكوت النبى عنه، فلم يلبث حمزة ابن عبد المطلب أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من الصيد ، وكان إذا رجع من الصيد لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة . وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد (مجلس) من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش ، وأقوى شكيمة ، فلما مر بالفتاة ، وقد عاد النبى إلى داره ، قالت له : « لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم عمرو بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثم إنصرف عنه ، ولم يكلمه محمد !

« فغضب حمزة ، وخرج يسعى ، لم يقف على أحد من الناس كما تعود ، حتى لقى أبا جهل جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : « أتشتم محمدا وأنا على دينه أقول مايقول ؟ فرد ذلك علىَّ إن استطعت ! فقامت رجال من بنى مخزوم رهط أبى جهل لينصروه ، فقال أبو جهل : دعوه ، فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا » .

ومضى حمزة إلى الرسول فأعلن إسلامه ، فابتهج المسلمون ، وأحسوا بكثير من الراحة ، ذلك أنهم عرفوا أن حمزة سيحميهم ، وسَيَكُفّ عنهم بعض ما ينالهم من الأذى .

وعمر أيضا كغيره ممن يؤذون المسلمين يشعر أن إسلام حمزة سيمنح المسلمين على قلتهم كثيرا من المنَعَةَ ، فمن ذا الذى يجرؤ على ضرب أبى جهل وهو من أكبر أشراف قريش ، وأكثرها مالا ، وأعزها نفرا ، وأشدها قوة ؟ ! . . ما من أحد يجرؤ على هذا إلا حمزة ! ! . . لئن جرؤ أحد على أن يبسط يده إلى رجل مثل أبى جهل ، لَتُقْطَعَنّ يده ! . . ولكن حمزة فعلها ! !

وتأمل عمر فى كل ما يحدث ، وهجس له خاطر أن يتوقف ليتعرف على هذا الدين الذى يمنح المؤمنين به كلَّ هذه العزة ! !

لم ينم عمر ليلته ، فلما أصبح الصباح خرج إلى الكعبة ، يلتمس محمدا . . يقول عمر : « وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقنى إلى المسجد فقمت خلفه ، فاستفتح بسورة (الحاقة) فجعلت أتعجب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا شاعر كما قالت قريش فقرأ (إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون .) قلت : كاهن . قال : (ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تَقَوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) ، (الوتين هو الشريان الذى يغذى القلبْ . ومعنى حاجزين أى مانعى العذاب عنه) . .

ولما سمع عمر القرآن دخل قلبه شعور غامض لم يعرفه من قبل قط ! ! إنه الخشوع ! . . خشوع ما عرفه وهو يسمع الكهان والشعراء من قبل ، ولا عرفه أمام آلهة قريش ! . . خشوع يزلزل الرجل إلى الأعماق فتتداعى ما فى أغواره من عقائد ظل يدافع عنها . . !

ولكنه على الرغم من ذلك لم يسلم بعد ، ولما يدخل الايمان فى قلبه . .

وعجب عمر كيف سمع سادة قريش هذا القرآن من قبل ولم يهتزوا ! . . وإنه ليعرف أن أحدهم أثنى على هذا القرآن ، فعنفه أبو جهل ، فلم يكرر الثناء بعد !

وأبو جهل هو ابن عم أم عمر ، وهذه الخئولة جعلت لعمر مكانة بين سراة قريش على الرغم من فقره . . وفى الحق أنها لم تكن الخئولة وحدها ! ولكن قوته الفكرية والبدنية هيأت له فى قريش مكانا عليا ، ازداد علوا منذ أتقن السفارة عن قريش ، وأحسن جدال مفاخريها من أمراء شبه جزيرة العرب وجيرانهم . .

لم يستطع عمر منذ سمع تلك الآيات من سورة الحاقة أن يبرح محمدا ، فانتظره فى الليلة التالية حتى أتى المسجد ، فدخل عمر فى أستار الكعبة فأصغى لما يتلو الرسول من آيات الله . . فسمع شيئا لم يسمع مثله فتبع محمدا ، حتى إذا شعر به التفت إليه قائلا : « ياعمر ، ما تتركنى ليلا ولا نهارا ! » فانصرف عنه ، وسمعه يدعو : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمرو ابن هشام . »

وقضى عمر ليلته مؤرقا يتفكر ، فلما كان من غده ، قضى نهاره متأملا ،

حتى إذا جاء الليل ، لم يجد بنفسه نشاطا إلى قضاء الوقت فى إحدى دور اللهو ، كما تعود من قبل ، وعاد إلى منزله ، وقد غشيه مما سمع من القرآن ومما يفكر فيه أمر عظيم ، فقابل فى بعض الطريق رجلا فسأله عن وجهته فى هذا الوقت من الليل ، فقال عمر: « أريد محمدا » فحسب الرجل أن عمر يريد قتل محمد فقال له مستهزئا : « لقد غرتك نفسك ياعمر ! وكيف تأمن بنى هاشم إن قتلت محمدا ؟ » قال عمر : « ما أراك إلا قد تركت دينك الذى أنت عليه . » فقال الرجل : « أفلا أدلك على العجب ياعمر ؟ إن أختك وزوج أختك قد تركا دينك الذى أنت عليه » ، وعجب عمر من أن تسلم أخته وزوجها ، ويستخفيا منه بإسلامهما ! . . إن أخته فاطمة هى أحب الناس إليه ، وزوجها سعيد بن زيد فى منزلة أخيه ، فهو أبن عمه وصديقه . . وقد عاشوا جميعا يتصارحون ، ويتطارحون الهموم . .

وذهب عمر إلى بيت أخته فاطمة ، فسمع هينمة ذكّرته بما ظل يسمعه من محمد طوال الأيام الثلاثة الماضية . .

وطرق عمر باب البيت ، وسأل أهل البيت أن يفتحوا له ، وكان خَبّاب بن الأرْت يُقرىء فاطمة وزوجها القرآن من صحيفة بها آيات من سورة طه . . فلما سمعوا صوت عمر ، اختفى خباب فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، فلما دخل عمر قال : « ماهذه الهينمة التى سمعت ؟ » قالا : « ما سمعت شيئا ! » قال : « بلى ، والله لقد أُخبرت أنكما تبعتما محمدا على دينه » . وتحاورا ، وأغلظ عمر لزوج أخته ، ثم تصارعا فصرعه عمر وجلس عليه ، فدفعته فاطمة عن زوجها ، فلطمها لطمة شديدة . . فسال الدم من وجهها . . وإذ رأى عمر وجه أخته يدمى ، عاوده عطفه عليها ، ورق لها . . وقام يسترضيها وهى تصيح فى وجهه غضبى : « ياعمر ، إن الحق فى غير دينك ! نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدا لك ! »

وعمر لايزال يعانى من الندم لأنه ضربها فشجها ! لقد كانت من قبل وديعة كالحمامة ، فما بالها قد تحولت بغتة إلى ما هى عليه الآن ، وكأنها من الكواسر ! ؟ إنها لتوشك فى غضبها أن تنقض عليه ، وهاهى ذى تتحداه ، كما لايجسر أشجع الناس ؟ !

ما هذا الدين الذى يمنح معتنقيه هذه القوة كلها ؟ !

ومازال الدم يسيل من وجه أخته ، وهى تعالجه ، فقال لها فى صوت مثقل بالندم بعد أن استرضاها : « أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . » فقالت : « إنّا نخشاك عليها » قال : « لاتخافى » ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها .

فلما سمعت كلامه هذا ، وآنست ندمه ورقته ، طمعت فى إسلامه . فقالت حانية : « ياأخى . هذا قرآن لايمسه إلا المطهرون ، وأنت فى شركك نجس ، فقم واغتسل » . فقام واغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فوجد فيها آيات من سورة طه ، و (إذا الشمس كورت) . .

قرأ من سورة طه إلى قوله تعالى : (لتجزى كل نفس بما تسعى) فلما انتهى ، قال : « ماهذا بقول بشر . » فلما سمع ذلك خباب أقبل من مخبئه وقال : « ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم عمرو بن هشام (وهو أبو جهل) أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله ياعمر ! » .

ثم عاد عمر يقرأ فى الصحيفة فقرأ (إذا الشمس كورت) فلما انتهى من قراءتها إلى (علمت نفس ما أحضرت) خفق قلبه ، وأضاءت أعماقه بغتة ، واختلج ، وجاشت نفسه من خشية الله . . وقال : « ياخباب دلنى على محمد حتى آتيه » .

وصحبه خباب إلى دار الأرقم بالصفا ، حيث تعود المسلمون أن يجتمعوا بالرسول ، يقرئهم القرآن ويعلمهم الدين ، فلما قرع عمر الباب ، قام رجل فنظر من خلل الباب يرى من القادم ، فرجع الرجل وهو فزع فقال : « يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشح السيف ! » قال حمزة بن عبد المطلب : « فَأْذَن له يارسول الله ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه ! » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أئذن له » . فأذن له الرجل . ونهض رسول الله إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بمجمع ثيابه ، وجذبه جذبة شديدة ترنح لها عمر ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا أبن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! » .

قال عمر فى خشوع : « جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله . أشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

فَكبّر الرسول ، وكَبّر المسلمون من ورائه . . وكانوا نحو أربعين إلا واحدا فاكتملوا بعمر بن الخطاب أربعين !

ونصحه رسول الله أن يستر إسلامه كيلا تؤذيه قريش ، وليس له فئة ينصرونه ، فقال عمر : « والذى بعثك بالحق لأُعلِنَنّ الإسلام كما أعلنت الشرك » .

وأقبل المسلمون بعضهم على بعض فرحين بإسلام عمر . . منذ ثلاثة أيام أسلم حمزة فعز به الإسلام ، وها هو ذا عمر يسلم الليلة ، ليزداد الإسلام والمسلمون عزا ومنعة .

قال عمر : « يارسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ » قال : « بلى ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم » . قال عمر : « ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن . »

يروى عمر : « فأخرجناه فى صفين ، حمزة على رأس أحدهما ، وأنا على الآخر ، حتى دخلنا المسجد ، فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة ، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمّانى رسول الله الفاروق . »

كما سماه أبا حفص : وحفص هو الأسد .

قال على بن أبى طالب عن عمر : « ذاك امرؤ سماه الله الفاروق ، فرق به بين الحق والباطل ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب . »

* * *

عرفت قريش بإسلام عمر ، فاجتمعوا عليه ضحى ليؤذوه ، فجاءه العاص ابن وائل السهمى (أبوعمرو بن العاص) فى ثياب من ديباج فاخر بأزرار من ذهب ، فَكَفّ الناس عن عمر ، وقال لهم : « لقد أَجَرْتُ عُمر بن الخطاب » .

وإذ بسط العاص هذه الحماية على عمر ، تفرق الناس عنه .

ويروى عمر ما جرى بعد ذلك : « لما أسلمت تلك الليلة تذكرت مَنْ مِنْ أهل مكة أشد ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عداوة ؛ حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت على أبى جهل بابه ، فخرج إلىّ فقال : مرحبا وأهلا بابن أختى ! (وهو أبن عم أمه) ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدّقت بما جاء به . فضرب الباب فى وجهى وقال : قَبّحَك الله ، وقَبّح ما جئت به ! »

ثم إن عمر مضى إلى المسجد ، حيث وجد حمزة ومعه جماعة من المسلمين . .

وفى الحق أن المسلمين تشجعوا بعد إسلام حمزة ثم عمر ، حتى تحيرت قريش فيهم وتَغَيَظّت عليهم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون : « إن حمزة وعمر قد أسلما ! وقد فشا أمر محمد فى القبائل ! »

وأخذت قريش تفكر فى مكيدة تكيدها ، لتحول دون انتشار الإسلام بين القبائل ، لكيلا يعدل الناس عن الحج إلى أصنام الكعبة ، إن هم آمنوا بدعوة محمد إلى عبادة إله واحد لاشريك له ، وتركوا عبادة الأصنام ، أو التقرب بها إلى الله زلفى . . !

والرسول يجهد فى بث الدعوة ، ويلقى أرتالا من العرب من قريش ، حتى إذا أطمأن إلى أن أهل يثرب قادرون على إيواء المسلمين ونصرة الإسلام ، أمر أصحابه فهاجروا إلى يثرب . .

وكان المسلمون يستخفون بهجرتهم ، كيلا يطاردهم أعداؤهم من قريش ، إلا عمر بن الخطاب ، فقد رفض أن يهاجر سرا .

قال على بن أبى طالب : « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا متخفيا إلا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه (وضعه على منكبه أى كتفه) ، وانتضى فى يده أسهما ، ومضى إلى الكعبة ، والملأ (السادة) من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام (مقام إبراهيم) فصلى ، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة يقول لهم : « شاهت

(قبحت) الوجوه ! من أراد أن تثكله أمه ، أو يوتم (من اليتم) ولده ، أو يرّمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ! »

وهكذا كان إسلامه نصرا ، وكانت هجرته فتحا ، كما قال عبد الله ابن مسعود .

أسلم عمر وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، فى السنة السادسة من بعثة الرسول . ولزم الرسول منذ أسلم ، لم يفرق بينهما غير الموت . .

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقال عليه الصلاة والسلام : هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام ، ولاتخبرهما يا علىّ . »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالا يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم فأبعث أُبىّ بن كعب ، وسالما مولى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، كما فعل عيسى بن مريم عليه السلام » . فقيل له : « يارسول الله : أفلا تبعث أبا بكر وعمر ؟ » فقال : « هما لابد لى منهما ، هما منى بمنزلة السمع والبصر » . .

وكان على يقول إنه طالما سمع الرسول يقول : « جئت مع أبى بكر وعمر ، ورحت مع أبى بكر وعمر . »

وربى الرسول عمر على التفقه فى الدين . . وكان عمر بطبعه يحب تأمل الأشياء قبل أن يصدر الحكم . . وكانت أحكامه تعبر عن حكمته ، وسعة أفقه ، وعمق مداركه ، وذكاء القلب ، وغزارة العلم ، وبصر دقيق بالناس والحياة . .

لقد بلغ فى الجاهلية ما بلغ أمرؤ بشبابه ، وفى الإسلام تفوق على كثير ممن سبقوه إلى الإسلام ، حتى اذا آتاه الله الحكم ، انفرد بأن يكون الأول فى أمور عديدة . . فهو أول من جمع الناس على صلاة التراويح فى شهر رمضان ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد خرج ليلة فى رمضان فصلى فى المسجد ، فصلى رجال بصلاته ، وفى الليلة التالية كثر أهل المسجد ، وازدادوا فى الليلة الثالثة ، وفى الليلة الرابعة ضاق بهم المسجد ، ولكن الرسول لم يخرج اليهم حتى صلاة الفجر ، فلما صلى الفجر أقبل على الناس قائلا : « أما بعد . فانه لم يخف على

شأنكم الليلة ، ولكنى خشيت أن تَفرض عليكم فتعجزوا عنها . » فكان عليه الصلاة والسلام يرغبهم فى قيام رمضان ، من غير أن يوجب ذلك عليهم ، قال : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر الله ما تقدم من ذنبه . »

وظل الأمر على ذلك حتى قبض الرسول ، ثم فى خلافة أبى بكر ، وصدر من خلافة عمر .

وأتى عمر المسجد ذات ليلة من رمضان ، فوجد الناس يصلون التراويح فى جماعات متفرقة ، فقال عمر : « والله إنى لأظن لو جمعنا هؤلاء على قارىء واحد (أى إمام واحد) لكان أمثل ! » (أى أفضل) . فأمر أُبّى بن كعب أن يقوم بهم فى رمضان .

فخرج مرة أخرى والناس يصلون وراء إمامهم ، فَسُرّ وقال : « نعمت البدعة هذه ! »

ثم أرسل إلى حكام سائر بلاد الدولة : أن يجمعوا الناس على صلاة التراويح فى رمضان . .

ومر على بن أبى طالب بالمساجد فى رمضان ، فرآها مضيئة وعامرة بالمصلين ، وكانت من قبل تغلق أبوابها بعد صلاة العشاء ، فقال على : « نَوَّر الله لعمر فى قبره ، كما نَوَّر المساجد بالقرآن . »

وكان عمر يمنع الناس من البقاء فى المساجد بعد الصلاة ، إلا فى ليالى رمضان ، فقد كان يرغبهم فى الجلوس بالمساجد يتدبرون كتاب الله .

وذات ليلة من رمضان مر على نفر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، جالسين فى المسجد بعد الصلاة ، فقال لهم : « من أنتم ؟ » قالوا : « نفر من أهلك ياأمير المؤمنين . » قال : « فما خَلّفكم بعد الصلاة ؟ » قالوا : « إنا جلسنا لذكر الله عز وجل . » فجلس معهم . ثم استقرأهم القرآن رجلا رجلا ، ثم أخذ يدعو ، فما كان فى القوم أكثر دمعة منه . ! !

قال بعض أصحابه : « كان عمر إذا دخل شهر رمضان صلى بنا صلاة المغرب ، ثم قال : أما بعد فان هذا الشهر شهر كتب الله عليكم صيامه ، ولم يكتب عليكم قيامه ، من استطاع فيكم أن يقوم فإنها من نوافل الخير التى قال الله

عز وجل عنها : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) ومن لم يستطع منكم أن يقوم فلينم فى فراشه . وليتق إنسان منكم أن يقول : أصوم إن صام فلان ، وأقوم إن قام فلان ! من صام منكم أو قام فليجعل ذلك لله عز وجل ، وأقلّوا اللغو فى بيوت الله ، واعلموا أن أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » . .

* * *

لم يكن فتح المساجد ليلا لقيام رمضان هو العمل الوحيد الذى كان عمر أول من عمله . . فقد كان أول قاض فى الإسلام ، إذ أن أبا بكر لما تولى الخلافة قال له : « أقض بين الناس ، فانى فى شغل » ، كما كان أول من فتح الفتوح بالشام والعراق وفارس ومصر ، وأول من وضع نظام الدواوين فى الإسلام ، وأول من وضع نظاما للعطاء فجعل الرواتب شهرية ، فرتّب الناس على قدر سوابقهم ، وحاجاتهم . .

وهو أول من استقل بالقضاء ، وكان الولاة من قبله هم القضاة ، فعين قضاة وَخصَّصَهم للقضاء وحده ، وكان الفاروق يُكْبِرُ منصب القاضى ، ويضع شروطا لمن يتولى هذا المنصب .

وقال الفاروق : « لا ينبغى أن يلى هذا الأمر (أى القضاء) إلا رجل فيه أربع خصال : اللين فى غير ضعف ، والشدة فى غير عنف ، والإمساك فى غير بُخْل ، والسماحة فى غير سَرَف » .

وكتب إلى عماله كتابا واحدا : « لا تستَقْضِيَنَّ (أى لا تولِّ القضاء) إلا ذا مال وذا حسب ، فإن ذا المال لا يرغب فى أموال الناس ، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس » .

وكان يشترط فى القضاة الحسم ، وسرعة الفصل ، وكل ما يفرض على المتقاضين سلطان العدل ، وهيبة القضاء . فإذا آنس فى القاضى نقصا فى هذه الخصال بادر بعزله ، مهما يكن من ورعه وعلمه . علم أن أحد القضاة قد اختصم إليه رجلان فى دينار ، وبدلا من أن يفصل هذا القاضى فى الدعوى ، أعطى المدِّعِيَ دينارا من ماله الخاص لينزل عن دعواه ! فأرسل عمر إلى هذا القاضى : « اعتزل قضاءنا ! » . فقد رأى عمر فيما صنعه القاضى عجزا عن القضاء .

ولقد استَنَّ عمر فى القضاء سننا أصبحت من بعده دستورا للقضاة فى كل زمان ومكان : من ذلك أن القاضى لا يحكم بعلمه !

قال عمر ذات يوم لصديقه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما : « أرأيت لو كنت أنت القاضى ، ثم ابصرت إنسانا على حَدٍّ (أى ارتكب جريمة تستوجب عقابه) أكنت مقيما عليه الحد ؟ » .

قال : « لا ، حتى يشهد معى غيرى » . قال : « أصبت » .

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : « ألا يأخذ القاضى بعلمه ، ولا بظنه ، أو بشبهته » .

ومما سَنّه عمر للقضاء ، وأصبح من بعده مبادىء راسخة : ألا يقبل القاضى هدية .

وألا يعمل القاضى بالتجارة . قال شُرَيْح : « شرط عَلَىَّ عمر حين ولّانى القضاء ألا أبيع ولا أبتاع » . . ومن المبادىء التى وضعها للقضاء أن الأصل فى الإنسان البراءة ، فالمتهم برىء حتى تثبت إدانته . .

وهو أول من سُمِّى أمير المؤمنين . . وأول من أتخذ الدِّرّة ليؤدب بها . . وهو بعد من أوائل الذين نزل القرآن موافقا لآرائهم :

قال عنه الرسول : « إن الله تبارك وتعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه . »

وقال عنه على : « لانبعد أن تكون السكينة (أى الإلهام)على لسان عمر . »

وقد نزل القرآن موافقا لقول عمر وفعله فى آيات كثيرة :

قال عمر لرسول الله : « لو أتخذنا من مقام ابراهيم مصلى يارسول الله ! » فنزلت الآية (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) .

ومن ذلك أنه لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول شيخ المنافقين والمرجفين بالمدينة ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ، فسأله أن يصلى على أبيه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقال عمر : « يارسول الله ! أتصلى

عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه ؟ » فقال الرسول ؟ « إنما خيرنى الله فقال : (استغفر لهم أو لاتستغفر لهم . . .) قال عمر : « إنه منافق » . فلما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله عز وجل : (ولاتصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) .

ومن ذلك أن عمر رضى الله عنه قال : « يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البرَ والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ! » .

وروت عائشة رضى الله عنها : « كنت آكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمر عمر ، فدعاه فأكل معنا ، فأصابت يده إصبعى ، فقال معتذرا : لو أطاع ما رأتكن عين ! فنزل قوله تعالى : (يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفا . وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقوله تعالى : (ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلاليبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما .) وقوله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) . »

ومن ذلك مارواه عمر : « والله إن كنا فى الجاهلية مانعد للنساء أمرا ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ماقسم . فبينما أنا فى أمر إذ قالت لى أمرأتى : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ؟ ! وما تَكَلُّفُك فى أمر أريده ؟ ! قالت : عجبا لك يا أبن الخطاب ! ماتريد أن تُراجَعَ أنت ، وإن ابنتك حفصة لَتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ ! . فأخذت ردائى وخرجت من مكانى حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يابنية ! إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ! فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . . . .

وخرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتى منها ، فكلمتها فقالت لى : عجبا لك ياأبن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ! ؟ فأخذتنى أخذا فَسَرّتْنى به عن بعض ما كنت أجد . . . »

وعلم عمر أن رسول الله اعتزل نساءه ، فذهب إلى النبى فقال له : « إن كنت طلقتهن فإنّ الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك » . ثم أخذ يحدث النبى حتى انحسر عنه الغضب ، وضحك صلى الله عليه وسلم .

فذهب عمر إلى نساء النبى وقال لهن : « إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن » ، وأجابته إحداهن : « ياعمر ! أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ » . . فنزلت الآية : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيِّبات وأبكارا) .

ومما نزل من القرآن الكريم موافقا رأى عمر ما نزل فى أسارى بدر . .

وذلك أن المسلمين انتصروا يوم بدر ، فأسروا من المشركين سبعين أسيرا ، فيهم عدد من سراة قريش ، وفيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، وكان واسع الغنى ، وعقيل بن أبى طالب أخو على بن أبى طالب ، فشاور الرسول أصحابه فى أمر الأسرى ، فقال أبو بكر : « يارسول الله ، هم قومك وأهلك . استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ». أما عمر فقال : « كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء ، مَكِّنْ عليا من أخيه عقيل وحمزة من أخيه العباس ، ومكِّنِّى أنا من فلان (لنسيب له) فنضرب أعناقهم » . فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله ليُلينُ قلوب الرجال حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب الرجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك ياأبا بكر مثل إبراهيم ، قال : (فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) . ومثلك ياعمر مثل نوح ، قال : (ربِّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) » . ثم قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فديتموهم . أنتم اليوم عالة (أى فقراء) فلايفلتن أحد منهم إلا بفداء » . قال أصحابه : « بل نأخذ الفداء . »

ولكن عمر وحده أصر على قتل الأسرى ، وظاهره على ذلك سعد بن معاذ الأنصارى .

وكان فداء الأسير نحو مائة وعشرين دينارا ، أما العباس وهو أغنى قريش ، فكان فداؤه نحو مائتين وعشرين دينارا ، فمن لم يستطع من الأسرى أن يفدى

نفسه لفقره ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، فرض عليه الرسول أن يعلِّم عشرة من أهل المدينة . .

فلما أخذ المسلمون الفداء ، أطلقوا الأسرى ، فنزل قوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم .)

فبكى الرسول وأبكى أبا بكر ، فدخل عليهما عمر وهما يبكيان ، فقال : « يارسول الله ، أخبرنى ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت من أجلكما » . قال : « أبكى على أصحابك لأخذهم الفداء . . لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه أحد إلا عمر وسعد بن معاذ » .

ومما نزل من القرآن موافقا رأى عمر أخر آية نزلت فى الخمر . . وقد نزلت فى الخمر أربع آيات . نزلت فى مكة : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرا) . فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال . . ثم إن عمر ومعاذ بن جبل ونفرا من الصحافة قالوا : « يارسول الله أفتنا فى الخمر ، فانها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال » فنزلت الآية (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس) ، فشربها بعض المسلمين وامتنع بعضهم . ثم دعا عبد الرحمن ابن عوف نفرا من الصحابة ، فشربوا حتى سكروا ، فقام للصلاة فَأَمَّهم فقرأ : (قل يا أيها الكافرون أعبد ماتعبدون) ، فنزلت الآية : (لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى) فتركها كثيرون ، وشربها مسلمون آخرون .

ثم دعا عتبان بن مالك قوما فيهم سعد بن أبى وقاص ، فشربوا فأسرفوا ، فلما سكروا وثب بعضهم على بعض يتفاخرون ويتنافرون ، ويتناشدون ، حتى أنشد سعد شعرا فى هجاء الأنصار ، فضربه أحد الأنصار بعظمة بعير فَشَجَّ رأسه .

فلما أصبح شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عمر ، فقال عمر : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » ، فنزلت الآية : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . . .) حتى قوله تعالى : (فهل أنتم منتهون) فقال عمر : « انتهينا يارب » .

* * *

ولقد نَمّى الرسول فى عمر استقلال الرأى ، وشَجَّعَه على المصارحة والمكاشفة ، وكذلك كان يفعل صلى الله عليه وسلم مع كل أصحابه رضى الله عنهم . .

ولكم أثنى على شدة عمر فى الحق حين ضاق بها آخرون ! من أجل ذلك ألف الناس فى زمن الرسول أن يهابوا عمر أكثر مما يهابون غيره من الصحابة .

روى سعد بن أبى وقاص قال : « استأذن عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستأثرن به ، عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب (أى يسرعن إليه) ، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر فدخل ، والرسول يضحك مما فعلن . فقال عمر : أضحك الله سِنَّك يارسول الله . فقال : عجبت من هؤلاء النسوة كن عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . قال عمر : فأنت أحق بأن يهبن . ثم توجه عمر إلى النسوة ، وقال لهن : ياعدوات أنفسهن ! أتهبننى ولاَتهَبْنَ رسول الله ؟ ! قلن : أنت ياعمر أغلظ وافظ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان قط سالكا فَجًّا إلا سلك فجا غير فجك (والفج هو الطريق) » .

وروت عائشة رضى الله عنها ، قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ، فسمعنا لغطا وصوت صبيان ، فقام ، فاذا حبشية تَزْفِنُ (أى ترقص) والصبيان حولها ، فقال : ياعائشة ، تعالى فانظرى . فجئت فوضعت خدى على منكبه وجعلت أنظر اليهم ما بين المنكب إلى رأسه . فقال لى : أما شبعت ؟ فجعلت أقول : لا . لأنظر منزلتى عنده . وبينما نحن كذلك إذ طلع عمر ، فَارْفَضّ (أى تفرق) الناس عن الجارية . فرجعت أدراجى » .

وكان رسول الله معجبا بشدة عمر فى الله . . وبقدر ما كان شديدا أيام جاهليته فى الدفاع عن عقائد قومه ، أصبح اليوم شديدا فى الدفاع عن العقيدة الجديدة ، بل أشد قوة ، إذ شعر أنها تزكى القلوب ، وتطهر العقول والأبدان ، وتصوغ انسانية جديدة متراحمة .

وكان الرسول يحب ورعه، وحسمه ، وعزمه . . قال عنه : « لم أر عبقريا يَفْرِى فَرْىَ عمر » (أى يقطع فى الحق كما يقطع) .

وكان الرسول يظهر العطف عليه ، فتجيش نفس عمر ، ويلين قلب الرجل الذى يبدو ظاهره للناس كأنه قُدَّ من صخر .

أقبل عمر على رسول الله يستأذنه فى العُمرة ، فأذن له الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال له : « ياأخى ، أشركنا فى صالح دعائك ولاتنسنا . » « وفاضت الدموع من عينى عمر ، وقال عمر لبعض صحبه : « الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لى : يا أخى ! والله ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس . »

وقد انتقل حب عمر رضى الله عنه من الرسول عليه الصلاة والسلام الى علىٍّ كرم الله وجهه . . وعلىٌّ هو الابن الروحى للرسول : تولاه طفلا ، وغذاه صبيا ، ورباه فتيا ، ونشّأَهَ على التقوى ، وهو وحده من بين كل الصحابة الذى كرم الله وجهه ، لم يُحنه لغير الله تعالى ، ذلك أنه عرف الإسلام وهو بعد غلام . .

يروى الإمام جعفر الصادق أن رجلا من قريش جاء عليًّا أثناء خلافته ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، نسمعك تقول فى الخطبة آنفا : اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين ! فمن هم ؟ « فاغرورقت عينا على ، ثم أهملهما (أى بكى) ثم قال : هما حبيباى وَعَّماك أبو بكر وعمر ، إماما الهدى ، وشيخا الإسلام ، والمُقْتَدَى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من اقتدى بهما عُصِمَ ، ومن اتبع آثارهما هُدِىَ الصراط المستقيم ، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله ، وحزب الله هم المفلحون . »

وكم سمع الناس عليا يقول : « إن الله جعل أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما حُجَّةً على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة . سبقا والله سبقا بعيدا ، وأتعبا من بعدهما إتعابا شديدا . »

دخل رجل على الإمام على كرم الله وجهه ، فى خلافته ، فقال له : « ياأمير المؤمنين ، إنى مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذى هما أهل له » فنهض الإمام إلى المنبر فقال : « والذى خلق الحبَّة ، وبرأ النسمة ، لايحبهما إلا مؤمن فاضل ، ولايبغضهما ويخالفهما إلا شقى مارق ، فحبهما قُرْبَةٌ إلى الله ، وبغضهما مروق . ما بال أقوام يذكرون أَخَوَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيريه وصاحبيه وسيِّدَىْ قريش وأَبَوِىْ المسلمين ؟ ! فأنا برىء ممن يذكرهما بسوء ، وعليه معاقِب . »

ولقد انتقل حب عمر إلى بنى على وفاطمة الزهراء عبر العصور . . فها هو ذا الحسن بن على يرد على من يسأله : « أحبُّ أبى بكر وعمر سنة ؟ » فيقول : « لا بل فريضة . » ويقول محمد الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب : « من لايعرف فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة . » ويقول ابنه جعفر الصادق : « لانالتنى شفاعة محمد إن لم أكن أتوالاهما (أى أجعلهما من أوليائى) ، وأبرأ من عدوهما . » .

وها هو ذا عمه زيد بن على يقول : « البراءة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما براءة من على عليه السلام . »

ولقد جاء رجل إلى زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب فقال : « ما كان منزلة أبى بكر وعمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟» قال : « كمنزلتهما اليوم وهما ضجيعاه . »

وكان الإمام على بن أبى طالب يقول للناس : « ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها ؟ أبو بكر ، وبعد أبى بكر عمر » .

وكان كرم الله وجهه يقول : « سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تلاه أبو بكر ، ثم عمر ، ثم خبطتنا فتنة ، فما شاء الله كان . » وقال كرم الله وجهه : « لايُفضّلنى أحد على أبى بكر وعمر إلا جلدته جلد المُفترِى . »

ولقد سئل علىٌّ أثناء خلافته : « يا أمير المؤمنين ، من أول الناس دخولا الجنة بعد رسول الله ؟ » قال : « أبو بكر وعمر » فقال سائله : « أيدخلانها قبلك ياأمير المؤمنين ؟ » قال : « إى والله والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ، إنهما ليأكلان من ثمارها ويتكئان على فراشها . »

وقد روى عنه ابنه محمد بن الحنفية وهو ابن له من غير فاطمة الزهراء ، فأمه من بنى حنيفة تزوجها بعد موت فاطمة ، قال : « ياأبت ، من خير الناس بعد رسول الله ؟ » فقال : « أبو بكر ثم عمر . »

ولقد وعى آل البيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لى وزيران من أهل السماء : جبريل وميكال ، ووزيران من أهل الأرض : أبو بكر وعمر . »

* * *

ولكل من وزيريه من أهل الأرض خصائص تميزه ، فأما أبو بكر فهو رقيق نحيل خفيض الصوت ، وأما عمر فضخم جهير الصوت إذا تحدث أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع .

وأبو بكر قد صدق الرسول منذ بعثه الله ، وما جادله قط ، وهو يصدقه فى كل مايقول ، حتى فى المعجزات التى لاتحيط بها العقول ، كمعجزة الإسراء والمعراج . . فأبو بكر هو الصديق .

ولكن عمر على الرغم من إيمانه العميق ، يحب أن يحاور ، ولايسلِّم بأمر إلا أن محَصّهَ ، ويفرق بين ما يجب أن يصنعه بلا جدال اقتداء برسول الله كتقبيل الحجر الأسود ، وبين ما يجب أن يدرك علته وحكمته قبل أن يفعله . . فهو حقا الفاروق !

وعلى الرغم من هذه الطبيعة التى نشأ عليها عمر ، فقد كان يأخذ نفسه بالأناة فى بعض الأحايين ، حين لايجد الاجابة عما يثور فى نفسه من أسئلة . .

فى يوم بدر ضرب أبو جهل فرسه فتقدم الصف وقال : « نحن ننتصر اليوم من محمد وصحبه » فنزلت الآية الكريمة : « سيهزم الجمع ويولون الدبر . » فسأل عمر : « أى جمع يهزم ؟ ! » ولم يجبه الرسول . فصبر عمر ، وما هى إلا أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع ، ومعه المسلمون يشدون على الكفار حتى هزموهم ، فولى المشركون الأدبار ، ونظر عمر فاذا رسول الله فى آثارهم مصلتا سيفه يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) . فعرف عمر تأويل الآية .

وكان الوزيران يستبقان الخيرات ، ويقول عمر أن أبا بكر كان يسبقه فى كل مرة . .قال عمر : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ، مع أنى ما سبقته يوما ! فجئت بنصف مالى ، فقال رسول الله : ماذا أبقيت لأهلك ياعمر ؟ ! قلت : أبقيت مثله . فأتى أبوبكر بكل ما عنده فقال له الرسول صلى لله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فقلت : والله لاأسابق أبا بكر فى شىء بعد اليوم ! »

وعندما عقد الرسول صلح (الحُدَيْبِيَةَ) صدّق أبو بكر ، أما عمر فجادل . . وذلك أن رسول الله قاد المسلمين فى ثياب الحج ، وتقدموا ورعين إلى مكة

ليعتمروا ، ولكن قريشا أرسلت إليهم جندها بقيادة خالد بن الوليد ، ليقطع عليهم الطريق إلى بيت الله الحرام فى مكة . فوقفوا عند مكان بين المدينة ومكة يقال له الحُدَيْبِيَة ، ورأى الرسول أن يفاوض قريشا ، وأراد أن يرسل إليهم عمر ابن الخطاب ، فقد تعود السفارة منذ الجاهلية ، ولكن عمر قال : « يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس فى مكة من بنى عَدِىّ أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بمكة منى : عثمان بن عفان . »

وبعث الرسول إليهم عثمان بن عفان ، فعاد ومعه مبعوث من قريش هو سهيل بن عمرو ، فاتفق مع الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلح ، ورفض مبعوث قريش أن يُكْتَبَ فى عهد الصلح : بسم الله الرحمن الرحيم ، ومحمد رسول الله ، وأصر على أن يُكْتَبَ باسمك اللهم ، ومحمد بن عبد الله . ووافق الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشترط الصلح على المسلمين أن يؤجلوا عمرتهم إلى العام القادم ، وأن يعودوا إلى المدينة من عامهم هذا ، كما اشترط أن يردوا إلى قريش من جاءهم مسلما بغير إذن وليه ، أما قريش فلا ترد من جاءها من المسلمين .

ووافق النبى على تلك الشروط لكيلا يُشْغَل بحرب قريش ، عن إحكام نظام الدولة الجديدة ، وعن دعوة العالمين إلى الإسلام .

وافقه أبو بكر ، وصدّقه ، كما تعود فيما يأخذ الرسول وما يدع . .

أما عمر فخرج مغاضبا ، فجاء أبا بكر فقال : « يا أبابكر ، أليس برسول الله؟ » قال : « بلى » قال : « أولسنا بالمسلمين ؟ » قال : « بلى » قال : « أوليسوا بالمشركين ؟ » قال : « بلى » قال : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » فقال أبو بكر : « أيها الرجل ، إنه لرسول الله ، ولن نعصى رأيه . فاستمسك بِغَرْزه (أى بعروته) حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . »

ولكن عمر ذهب إلى الرسول فقال : « يارسول الله ، ألست برسول الله ؟ » قال : « بلى » قال : « ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ » قال : « بلى » قال : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى . »

فلما وصف الله صلح الحديبية بأنه فتح مبين ، ونزل فيه قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » قال عمر : « أهو فتح مبين يارسول الله ؟ » قال : « نعم ، والذى نفسى بيده إنه لفتح . »

وبعد عامين ، فتح المسلمون مكة ، وطهروا بيت الله الحرام من الأصنام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

* * *

لما أطلق عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين بالمدينة حديث الإفك ، متِّهماً السيدة عائشة فى عرضها ، عانى الرسول وآله وصحبه من العذاب النفسى ما لم يعرفوه من قبل قط ، حتى برأها الله تعالى بقوله :

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .)

سمع عمر هذه الآيات فقال : « يارسول الله ، مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . » قال : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ بل ننتظر عليه . »

وانتظر عليه الرسول ، حتى افتضح فى قومه ، وظهر نفاقه ، فجاء ابنه يسأل الرسول إن قضى بقتله أن يكلفه هو بذلك ، فما يستطيع أن يرى قاتل أبيه يدب على الأرض أمام عينيه . .

فقال النبى لعمر : « كيف ترى الآن ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى

اقتله لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته (أرعدت له أنوف أى غضبت له) فقال عمر : « قد والله علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرى » . .

وعلى الرغم من حب عمر للجدل ، ورغبته فى ألا يُمضى أمرا ، أو يقبل كلاما حتى يطمئن قلبه ، على الرغم من ذلك ، فقد كان أحيانا يلقى بكل أمره إلى الرسول ، كما يفعل تلميذ مع مربيه ، أو ابن بار مع أبيه ، ويمتثل لما يسمع بلا جدال .

من ذلك أنه لما فتح الله على المسلمين أرض خيبر ، ووزع الرسول عليهم غنائمها وأرضها ، أصاب عمر أرضا بها ، كما أصاب غيره ، فكلهم تصرف فى أرضه من تلقاء نفسه ، إلا عمر ، إذ جاء الى الرسول فقال : « أصبت أرضا بخيبر لم أُصِبْ مالاً قط أنفس عندى منها ، فما تأمر به ؟ » قال : « ياعمر ، إن شئت حبست أصلها وتصدقت » فتصدق عمر بثمرها ، وقال إنه لايباع أصلها ، ولاتوهب ، ولاتورث ، بل يُتَصَدَّقُ بما تنتجه على الفقراء وأولى القربى وفى الرقاب ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، والضيف ، ولاجناح على من وَلِيَهَا أن يأكل منها بالمعروف .

* * *

اعتمد عليه الرسول يوم أحد ليجادل أبا سفيان قائد جيش المشركين . . ذلك أن أبا سفيان حين أراد الانصراف بعد المعركة التى انتصر فيها المشركون ، أشرف على جبل أحد ، وصاح شامتا فى المسلمين المثخنين ، « الحرب سجال ، يوم بيوم ، أعْلُ هبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قم ياعمر فأجبه ، فقل : الله أعلى وأَجَلّ . قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . « فقال أبو سفيان : « هلم إلىّ ياعمر » فانتظر عمر أمر الرسول فقال له عليه الصلاة والسلام : « ائته فانظر ماشأنه » . فأتاه عمر ، فقال له أبو سفيان : « أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمدا ؟ » قال عمر : « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » .

وعاد عمر ، فانصرف أبو سفيان وهو ينادى : « إن موعدكم بدر العام القادم » . فأمر الرسول عمر بن الخطاب فقال : « نعم هو بيننا وبينكم موعد . »

ولم يكن الرسول يترك عمر لشدته ، بل كان عليه الصلاة والسلام يكفكف

منها ، ويروضه على الرفق بالذين معه ، ليكونوا جميعا رحماء بينهم ، أشداء على الكفار .

روى أبو أمامة : « استطال أبو بكر ذات يوم على عمر ، فقام عمر مغضبا ، فقام أبو بكر فأخذ بطرف ثوبه ، فجعل يقول : أرض عنى ، أعف عنى ، عفا الله عنك ! حتى دخل عمر الدار وأغلق الباب دون أبى بكر ، ولم يكلمه ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فغضب لأبى بكر ، فلما صلى الظهر جاءه عمر ، فجلس بين يديه ، فصرف النبى صلى الله عليه وسلم وجهه عنه ، فتحول يمينا ، فصرف وجهه عنه ، فلما رأى عمر ذلك ارتعد وبكى ، ثم قال : يارسول الله ، قد أرى إعراضك عنى ، وقد علمت أنك لم تفعل هذا إلا لأمر قد بلغك عنى ، موجدة علىّ (أى غضبا منى) فى نفسك ، وما خير حياتى وأنت على ساخط ، وفى نفسك منى شىء ! . فقال : أنت القائل لأبى بكر كذا وكذا ، ثم يعتذر اليك فلاتقبل منه ! ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله عز وجل بعثنى اليكم جميعا ، فقلتم : كذبت ، وقال صاحبى : صدقت . فهل أنتم تاركون لى صاحبى ! قالها ثلاثا . . فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله ، رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا . فقام أبو بكر فقال : والله لأَنَا بَدَأتهُ ، ولأنا كنت أظلم ، فأقبل عمر على أبى بكر فقال : ارض عنى رضى الله عنك . فقال أبو بكر : يغفر الله لك . فذهب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب . »

هكذا كان الرسول يعلم صحابته آداب التعامل ، ومكارم الأخلاق . .

وهكذا تعلم عمر أن يقبل اعتذار من يسىء إليه ، وتعود منذ ذلك اليوم أن يرعى لأبى بكر وقاره ، ولا يعصى له أمرا .

حتى إذا قُبِضَ الرسول ، وزلزلت القلوب زلزالا شديدا ، وبوغت الصحابة جميعا ـ فما كانوا يصدقون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكن أن يموت كما يموت البشر ـ قام عمر وسط بكاء الناس ، وقد أخذه الغضب ، فقال : « لَا أسْمَعَنّ أحدا يقول إن محمدا قد مات ، ولكنه أُرسَل إليه كما أُرْسِلَ إلى موسى بن عمران فلبث عن قومه أربعين ليلة ، والله إنى لأرجو أن أقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات . »

وكان أبو بكر فى داره باحدى ضواحى المدينة ، فلما علم بالنبأ أقبل مسرعا

على فرسه ، ودخل على الرسول وهو مُسَجًّى ، فكشف عن وجهه ، ثم إنكبّ عليه فقبله ، وبكى ، ثم قال : « بأبى وأمى أنت ! طبت حيا وميتا يارسول الله » .

ثم خرج إلى المسجد والناس يبكون ، وعمر ما برح يتوعدهم ويؤكد لهم أن محمدا لايموت ، فقال له أبو بكر : « أجلس ياعمر »

ثم صعد المنبر وقال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت . قال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين) .

وانهار عمر ، فسقط على الأرض باكيا . . ذلك أن عمر كان يؤمن أن الرسول سيحيا أبدا ، حتى يجىء به الله يوم القيامة شهيدا على الناس مصداقا لقوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

ولم تعرف المدينة يوما أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم ! ! اذن لقد مات رسول الله ! وهاهو ذا أبو بكر يردد الآية الكريمة فى صوت يختلج بالبكاء : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . .) .

وعندما أفاق عمر مما غشيه من البكاء ، شعر كأنه لم يقرأ ولم يسمع تلك الآية من قبل ، حتى تلاها أبو بكر ! . . حقا . . حقا : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين) .

وهمهم عمر : « لن انقلب على عقبى أبدا يارسول الله ! معاذ الله ! فأنا من الشاكرين المتقين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا اليه راجعون » .

الفاروق مع الصدّيق

قال الإمام على كرم الله وجهه : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض ليالى وأياما ، يُنادى بالصلاة فيقول : مروا أبا بكر يصلى بالناس ، فلما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نظرتُ ، فاذا الصلاة عَلَمُ الإسلام ، وقِوام الدين ، فرضينا لدنيانا مارضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فبايعنا أبا بكر . »

على أن بيعة أبى بكر رضى الله عنه لم تكن سهلة ، فقد اختلف المهاجرون والأنصار : من أى الحزبين يبايعون خليفة لرسول الله ؟ وقبل أن يُدْفن الرسول ، وإذ كان علىٌّ يجهزه ، ومعه أبو بكر فى الدار ، اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، فأخرجوا سعد بن عبادة زعيم الخزرج من داره ، وكان مريضا جدا ، فما كان يستطيع أن يقف على الناس ، أو أن يُسمعهم ، فكان يقول ، وابن عم له ينقل عنه ، فيسْمع الناس . فدعا لنفسه ، واستنفرُهم ليستأثروا بالأمر دون المهاجرين ، وختم خطبته بقوله : « استبدوا بهذا الأمر دون الناس . » وثارت فى الأوس بغضاؤهم القديمة للخزرج ، وكانوا بيثرب أعداء قبل الإسلام ، فلما أسلموا ألف الله بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمته إخوانا . . وتخافت الأوس : لئن وِلَيهَا رجل من الخزرج ليستأثرنّ الخزرج بها دون الأوس إلى آخر الزمان !

فقام رجل من الأوس فقال : « فان أبت مُهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا الأمر من بعده ؟ » فرد عليه رجل من الخزرج : « فإنا نقول : إذن فمنا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون ذلك أبدا . »

وعلم عمر بما يجرى فى السقيفة فغضب ، وأسرع إلى دار رسول الله ،

فأرسل إلى أبى بكر أن يخرج إليه ، فرد عليه : إنى مشتغل (أى مشغول) ، فأرسل إليه : « إنه قد حدث أمر لابد لك من حضوره . » فخرج إليه فقال : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالا يقول : منا أمير ، ومن قريش أمير ؟ » .

فترك أبو بكر عَليًّا فى جهاز الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانطلق مع عمر إلى سقيفة بنى ساعدة ، ولقيا فى طريقهما أبا عبيدة بن الجراح ، فمضوا جميعا إلى السقيفة . . ويروى عمر : « فأتيناهم وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة ، وإذا بين أظهرهم رجل مُزَّمِّل (لف نفسه بثيابه) ، فقلت من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة . قلت : ما شأنه ؟ قالوا :وَجِع (أى مريض) . فقام رجل منهم وقال : أما بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام . . ورأيتهم يريدون أن يغصبونا الأمر ، وقد كنت زَوَّرْتُ (هيأت وحسنت) فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض حِدّتى ، وهو كان أوقر منى وأحلم ، فلما أردت أن أتكلم قال لى : على رسلك ياعمر ! وكرهت أن أغضبه ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، فما ترك شيئا زورت فى نفسى أن أتكلم به لو تكلمت ، إلا قد جاء به ، أو بأحسن منه . قال : يامعشر الأنصار ، فإنكم لاتذكرون منكم فضلا إلا أنتم أهل له ، ولكن العرب لاتعرف هذا الأمر إلا لقريش ، هم أوسط العرب دارا ونسبا . »

فلما انتهى كلام أبى بكر ، انتظر عمر أن يوافق الأنصار ولكن الحباب بن المنذر الأنصارى قام فقال : « يامعشر الأنصار ، أنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين (أى يخضع) ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فَأَجْلُوهم عن هذه البلاد ، أما والله لئن شئتم لنُعِيدَنَّها جَذَعة (أى فتية وهو تهديد بالحرب) » . فقال له عمر : « إذن يقتلك الله . » فقال الأنصارى : « بل إياك يقتل . »

فقال أبو بكر : « مهلا ياعمر ، الرفق هنا أبلغ . »

فقال أبو عبيدة : « يامعشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بَدَّل وغَيَّر ! » .

فقام بشير بن سعد الأنصارى وهو من رؤساء الأوس ، فقال : « إنا والله لئن كنا أُولِى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا

ربنا ، وطاعة نبينا صلى الله عليه وسلم ، والكدح لأنفسنا ، ما ينبغى لنا أن نستطيل (أى نتطاول) بذلك على الناس ، ولانبتغى به من الدنيا عَرَضا . . ألا إن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأَيْمُ الله لايرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا . »

فقال أبو بكر : « هذا عمر وأبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا . » قال عمر : « والله لانتولى هذا الأمر عليك ، وأنت أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ! » ووافقه أبو عبيدة .

ثم إتجه عمر إلى الأنصار من الأوس والخزرج وقال : « نشدتكم الله ! هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ؟ » فقالوا : « نعم » قال : « فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام أقامه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! » قالوا : « كلنا لاتطيب نفسه ، ونستغفر الله . »

فقال عمر لأبى بكر : « أبسط يدك نبايعك » فبايعه عمر وأبو عبيدة ، فاستبق بشير بن سعد الأنصارى فبايع ، فناداه الحباب بن المنذر : « يابشير بن سعد ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ ! » قال بشير : « لا والله ، ولكن كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم . »

وتناجى زعماء الأوس : « والله لئن وَلِيهَا الخزرج عليكم مرة ، مازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم منها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر . »

فبايعوه جميعا . . ثم أخذ الخزرج يبايعون ، وإن هى إلا ساعة حتى بايع كل من فى السقيفة إلا سعد بن عبادة .

أما سعد بن عبادة فحمله بعض قومه إلى داره ، وبعد أيام جاء إليه بعض المهاجرين فقالوا له : « قم فبايع ، فقد بايع قومك . » قال : « لا والله حتى أخضب منكم سنان رمحى ، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى . ولو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أُعرض على ربى وأعلم حسابى ! » .

فلما أنبىء أبو بكر برد ابن عبادة قال له عمر : « لاتدعه حتى يبايع ! » ولكن بشير بن سعد قال لأبى بكر : « إنه ليس مبايعكم حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يُقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته . فاتركوه فليس تركه بضارِّكم ، إنما هو رجل واحد . »

فقبل أبو بكر نصيحة بشير ، وترك ابن عبادة .

فلما تمت البيعة لأبى بكر جاء أبو سفيان إلى على فقال له : « غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت فى قريش ! أما والله لأملأنها خيلا ورجلا . » فقال له على : « مازلت عدو الإسلام وأهله ، فما ضر ذلك الإسلام شيئا . إنا رأينا أبا بكر لها أهلا . »

* * *

كان أول ما عُنى به الصديق بعد البيعة هو إنفاذ جيش أسامة بن زيد ، وهو جيش كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جهزه ، وجعل أسامة بن زيد ـ وهو فى نحو العشرين من عمره ـ قائده ، وأمره بالتوجه شمالا إلى الشام . وكان فى الجيش عدد من كبار المهاجرين والأنصار ، منهم عمر بن الخطاب ، وتوفى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب عن الإسلام ، فقال من بقى فى المدينة من الصحابة للخليفة : « ياخليفة رسول الله ، إن جيش أسامة جند المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فلاينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك . » فقال أبو بكر : « والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تختطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم . »

وكان أول ما أمر به أن أمر مناديه فنادى فى الناس : « ألا لايبقين فى المدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إليه فى عسكره . »

وكان جيش أسامة قد بلغ الخندق خارج المدينة ، فلما أتاهم نبأ وفاة الرسول ، ثم نبأ الردة ، ولما سمع أسامة أن المرتدين يريدون الزحف على المدينة ، نادى أسامة عمر بن الخطاب ـ وهو أحد جنوده ـ فقال له : « أرجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنه ، يأذن لى أن أرجع بالناس ، فإن

معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون . »

وقال الذين مع أسامة من الأنصار لعمر : « إن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنا أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة . »

فلما أبلغ عمر مقالة أسامة للخليفة قال : « لو خطفتنى الكلاب أو الذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم . » قال عمر : « فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة . »

وكان أبو بكر جالسا ، فلما سمع ما قاله عمر وثب مغضبا ، فأخذ بلحية عمر ، وقال : « ثكلتك أمك وعدمتك ياابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرنى أن أنزعه ! » .

وعاد عمر إلى الجيش ، فسأله من فيه من الأنصار : « ماصنعت ؟ » فقال لهم عمر : « أمضوا ثكلتكم أمهاتكم ! ما لقيت بسببكم اليوم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » .

ثم أتاهم أبو بكر ، فودعهم ، فسار معهم على قدميه ، وأسامة على صهوة جواده ، فقال متحرجا : « ياخليفة رسول الله ، والله لتركبنّ أو لأنزلنّ ! » قال الخليفة : « والله لاتنزل ، ووالله لا أركب ، وما علىّ أن أغبرِّ قدمىّ فى سبيل الله ساعة ، فان للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له ، وسبعمائة درجة تُرفع له ، وتُرفع عنه سبعمائة خطيئة . »

وبعد صمت قال الخليفة لقائد جيشه : « إن رأيت أن تعيننى بعمر ، فافعل . »

فأذن أسامة لعمر الفاروق بأن يبقى بجوار الخليفة الصِّدِّيق .

فلما أراد الصديق أن يرجع قال للجيش : « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنى : لاتخونوا ، ولا تغدروا ، ولاتَغُلّوا (من الغُلول وهو أخذ الشيء من الغنيمة خفية قبل القسمة) ، ولاتُمثِّلوا (أى لاتشوهوا جثة قتيل) ، ولاتقتلوا طفلا صغيرا ، ولاشيخا كبيرا ، ولا أمرأة ، ولاتعقروا نخلا (أى لاتقطعوا النخل من أصله) ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا

إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فَرَّغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم لما فرغوا أنفسهم له . . . »

وأوصى أسامةَ بأن يفعل ما أمره به الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

فلما تسامع المرتدون أن الخليفة بعث جيشا إلى الشام ، قالوا : لو لم يكن للمسلمين قوة ما أرسلوا هذا الجيش !

وهكذا لم يزحفوا على المدينة كما كانوا قد دبروا من قبل . . إلا أنهم أعلنوا عدولهم عن إيتاء الزكاة ، واكتفوا بالصلاة !

وظهر رجال ونساء ادعوا النبوة ، منهم مسيلمة الكذاب الذى ظهر أول أمره فى أواخر حياة الرسول ، وطليحة ، وسجاح الكاهنة ! لقد ارتدت العرب جميعا . فلم يبق على الإسلام إلا أهل المدينة وأهل مكة والطائف .

وتجاسر مسيلمة الكذاب فأعلن إلغاء صلاتين من الصلوات الخمس المفرو ة . . وتسابق مدعو النبوة فى إلقاء كلام غريب مسجوع ، زعموا أنه ينزل عليهم . ولقد اختلف المرتدون فيما بينهم ، ولكنهم أجمعوا كلهم على ألا يؤ الزكاة .

كلم الصحابة مع الخليفة فى أن يدعهم وماهم عليه من منع الزكاة ، فأبى ، وأخذ يجهز الجيوش لقتالهم ، وأقسم على أن يجاهد مانعى الزكاة .

وجاء إليه عمر فقال : « علام تقاتل ياخليفة رسول الله وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : (أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم) ، فعلام تقاتل الناس ؟ » .

قال أبو بكر : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . إن الزكاة حق المال . والله لأقاتلن من فَرَّق بين الصلاة والزكاة . »

فلما جهز الخليفة الجيش ، تقدمه شاهرا سيفه ، فأتى على بن أبى طالب فأمسك بزمام راحلة الخليفة ، وقال له : « إلى أينْ ياخليفة رسول الله ؟ أغمد سيفك ، ولاتفجعنا بنفسك ، وارجع ، وأرسل غيرك ، فوالله لئن فجعنا بك لايكون للإسلام بعدك نظام أبدا . »

واجتمع من بقى فى المدينة من الصحابة على أبى بكر يرجونه أن يرجع ، فرجع ، وسَيّرَ الجيش بقائد غيره . .

وعاد أسامة منتصرا ، وفى طريقه صادف بعض القبائل المرتدة فهزمها ، فتداعى المرتدون واستغلظت الردة ، فجهز أبو بكر أحد عشر جيشا سيّرها إلى أحياء العرب التى ارتدت .

ووضع أبو بكر قوات على الدروب المؤدية إلى المدينة فى الجبال ، جعل على قوة منها عليا ، وعلى الأخرى الزبير ، وعلى الدرب الثالث عبد الله ابن مسعود ، فما أتتهم غارة من الأعراب إلا صدوها ، ولم يعد أحد يغير .

وكان من بين الألوية التى عقدها الصديق لواء لخالد بن الوليد ، وأمره بطليحة الذي ادعى النبوة فى أواخر عهد الرسول ، ثم استغلظ بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

وعقد لعكرمة بن أبى جهل وسيره إلى مسيلمة الكذاب ، وكان قد ادعى النبوة فى أواخر حياة الرسول ، ثم اشتد خطره حين ولى أبو بكر الأمر ، وتحالف مع الكاهنة سجاح ، والتقيا فتحاورا بكلام غاية فى الفحش ، وتحالفا . .

وعقد الخليفة ألوية لقواد آخرين وسيرّهم إلى شمال الحجاز على مشارف الشام ، وإلى اليمن ، والبحرين ، وإلى شرق الجزيرة وغربها ، والى كل أحياء العرب المرتدة .

وانتصر أكثر جيوش المسلمين على المرتدين ، وجاء طليحة منهزما إلى المدينة ، فأعلن التوبة ، وبايع أبا بكر ، ولقيه عمر ، وعلم أنه فى المعركة التى خسرها قتل اثنين من أقوى فرسان المسلمين ، فقال له : « والله لا أحبك أبدا » .

وعادت بعض جيوش المسلمين إلى المدينة بكثير من الغنائم والسبى ، وبقيت جيوش أخرى تجاهد المرتدين ، واستشهد فى الحروب عدد كبير من المهاجرين ، وأهل السابقة .

وجلس عدد من الصحابة الذين بقوا فى المدينة يذكرون شهداءهم فى حزن ، فلما رأوا عمر بن الخطاب مقبلا عليهم سكتوا ، فسألهم : « فيم أنتم ؟ » فلم يجيبوه . قال : « إنكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب ! » قالوا : « صدقت » قال : « فلا تخافوهم . أنا والله أخاف على العرب منكم أكثر مما أخاف العرب عليكم ! والله لو تدخلون معاشر قريش جُحْرا لدخلته العرب وراءكم . »

وكان جيش خالد بن الوليد أحد الجيوش التى لم تعد إلى المدينة ، فقد أغراه النصر بجهاد أقوام آخرين من المرتدين ، فقصد إلى مالك بن نويرة من تلقاء نفسه ، دون أن ينتظر أمر الخليفة .

وكان الصِّدِّيق قد أمر قواد جيوشه بأن يؤذنوا للصلاة إذا لاقوا المرتدين ، قال لهم : « فإذا أذنوا فكُفُّوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فاقتلوهم ، وإن أجابوكم فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقرُّوا فاقبلوا منهم ، وإن أبوا فقاتلوهم . »

وأرسل خالد رجاله إلى مالك بن نويرة فَأَذّنوا ، وعاد رجال خالد بمالك فى رهط من قومه ، وقال بعض رجال خالد إن مالكا ومن معه لم يؤذنوا ، وقال آخرون ، بل أذنوا . .

وأنب خالد مالكا على منع الزكاة وقال له : « ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ » فقال مالك : « إن صاحبكم كان يزعم هذا » .

فغضب خالد ، وحسبه يسخر من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ » .

وفهم خالد من كلام مالك أنه مُصرٌّ على ردته ، فأمر بقتله ، ثم إنه بعد ذلك تزوج أمرأته ، وهى امرأة بارعة الجمَال . وكانت العرب لاتتزوج فى الحروب ، وكان فى جيش خالد صحابى شديد التحرج هو قتادة ، فغضب قتادة على خالد ، ولامه لوما عنيفا .

وكان من رأى قتادة أن مالكا مسلم لأنه أذن ، فلما أنكر قتادة على خالد ما فعله ، رده خالد ردا منكرا ، فتشاحنا ، فتركه قتادة ، وعاد إلى المدينة ليشكوه إلى الخليفة ، فغضب الخليفة من قتادة لأنه ترك الجيش بغير إذن قائده ، وأمره بأن يعود من فوره الى خالد !

وكان فى الجيش عبد الله بن عمر ، فأنكر على خالد قتل مالك والزواج من امرأته ، ولكنه لم يبرحه .

ومضى قتادة فروى لعمر ما فعله خالد ، فغضب الفاروق ، وأسرع إلى الصديق فقال له : « ياخليفة رسول الله . إن فى سيف خالد رَهَقاً (أى طيشا) فاعزله . » ثم طالبه بأن يعاقبه على ما فعله جميعا ، فلم يجب الصديق ، فلما ألح الفاروق عليه قال : « ايه ياعمر ! تَأَوَّلَ فأخطأ . »

وعاد عمر يلح على أبى بكر فى عزل خالد ، فقال : « ياعمر ، لم أكن لأشيم (أغمد) سيفا سله الله على الكافرين . »

ولكن عمر ظل يلح ، فاستدعى الخليفة خالدا ، فلما لقيه عمر فى المدينة قال له : « أقتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ؟ والله لأرجمنك ! » .

فسكت خالد ، ومضى إلى الخليفة ، فاعتذر له بأن لم يقتل مالكا إلا عندما حسبه مصرا على ردته !

فعذره أبو بكر ، ووجّهه إلى اليمامة ليقاتل مسيلمة الكذاب ، وكانت جيوش المسلمين قد عجزت عنه ، فلما زحف إليه خالد بجيشه هزمه مسيلمة أول الأمر ، وأوشك أن يسبى امرأته ، لولا أن أجارها رجل من حلفاء مسيلمة كان صديقا لزوجها الأول المقتول مالك بن نويرة .

ثم كر خالد بالمسلمين على مسيلمة ، وثبت مسيلمة ، وكانت راية المهاجرين مع زيد بن الخطاب شقيق الفاروق ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس ، واشتجر قتال عظيم ، وبلغت القلوب الحناجر ، ورأى خالد أنه لانصر له إن لم يقتل مسيلمة ، وحمل المسلمون حملة صدق غير مبالين بالحياة ، واستشهد منهم كثير ، فيهم زيد بن الخطاب . وتضعضع مسيلمة ، وانكسر ، فقال له جنده : « أين ما كنت تعدنا به ؟ » فقال لهم : « قاتلوا عن أحسابكم » .

واشتجرت الحرب مرة أخرى ، وامتلأت بيداء اليمامة بالغبار المتصاعد ، وسطعت الشمس الملتهبة على السيوف والرماح والأسنة والدروع ، ولم يعد يسمع غير وقع الحديد على الحديد ، وركض الخيل الصاهلة ! ! وأخيرا ارتجت آفاق اليمامة بالنداء : « الله أكبر » .

لقد قتل المسلمون مسيلمة الكذاب .

* * *

عادت الجيوش الإسلامية جميعها إلى المدينة بعد أن قضت على أهل الردة ، واضطرتهم إلى ايتاء الزكاة ، وبعد أن طهرت الجزيرة العربية من مدعى النبوة ، فمنهم من قتل ، ومنهم من تاب وأناب .

ولكن المسلمين فقدوا كثيرا من خيرة رجالهم فى هذه الحروب ، ومنهم عدد كبير من قراء القرآن .

ولقد سأل أحد الصحابة ذات يوم عن آية فلم يجدها ، ذلك أنه كلما سأل عن أحد حفاظها وجده قد استشهد فى حروب الردة ، ثم وجد الآية بعد جهد . . وأشفق عمرعلى القرآن أن يضيع ، وهو محفوظ فى صدور قراء استشهد أكثرهم فى الحروب ، فذهب إلى أبى بكر ، وأشار عليه أن يجمع القرآن . . وها هو ذا على بن أبى طالب قد اشتغل بجمعه منذ وفاة الرسول ، وهاهو ذا زيد بن ثابت مازال حيا وقليل من قراء القرآن بقوا أحياء . وهاهو ذا القرآن مكتوب فى رقاع متناثرة مما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أملاه على كتاب الوحى . .

وباغت رأى عمر أبابكر ، ولم يستجب أول الأمر ، وأخذ يفكر فيما أشار به عمر . . إن أبا بكر لايريد أن يفعل شيئا لم يفعله الرسول . . ولكن عمر مازال بالخليفة حتى انشرح صدره لجمع القرآن ، حفظا له من الضياع .

ودعا لذلك زيد بن ثابت فقال له : « إنك يازيد رجل عاقل ولانتهمك ، فتتبع القرآن ، فاجمعه . » فبوغت زيد ، كما بوغت أبو بكر من قبل ، فكيف يفعل خليفة رسول الله شيئا لم يفعله رسول الله من قبل ؟ ! . .

ولكن الخليفة لم يترك زيدا حتى شرح الله صدره لجمع القرآن ، فقام يستقصيه من صدور من أبقته حروب الردة من القراء ، ومن الرقاع ، ومن كل ما سطرت عليه الآيات المنزلات .

* * *

امتلأت المدينة بسبى عظيم من العرب ، جلبته جيوش المسلمين بعد انتصارها فى حروب الردة ، ووزعت السبايا الحسان على المجاهدين ، فكره عمر الأمر كله . . ورأى المجاهدين قد انشغلوا بالسبايا ، فضاق بذلك . . كان المسلمون قد فقدوا كثيرا من الشهداء من خير أبطالهم ، ولقد بكى عمر أخاه أحر بكاء ، وقال لابنه عبد الله حين عاد سالما من المعركة : « ما جاء بك وقد هلك زيد ، أفلا واريت وجهك عنى ؟ ! » فأجابه عبد الله : « سأل الله الشهادة فنالها ، وجهدت أن تُساق إلىّ فلم أُعْطَها . »

ولقد جاء مُتَمِّم بن نويرة شقيق مالك إلى أبى بكر يطالبه برد السبايا ، وبالدية ، فلما رآه عمر قال له : « ما بلغ بك الوجد على أخيك ؟ » قال: « ما رأيت نارا قط إلا كدت أتقطع أسفا عليه ، لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولايعرف مكانه ! » فقال عمر متأسيا ـ وكل حزين للحزين قريب ـ « أنشدنى بعض ماقلت فيه . »

وانتظر عمر ، وفى أعماقه رجع رنين من مرثية متمّم لأخيه مالك . . تلك المرْثية التى تناوحت بها الريح عبر الآفاق ، فلم يبق فى المدينة محب للشعر إلا تردد فى أعماقه صداها الحزين الدامع ! . .

ثم همست فى أطواء عمر نبضات دامعة مما قاله متمم فى رثاء أخيه مالك :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافكِ
فقال أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللّوى فالدّرانكِ ؟ !

(اللوى والدرانك مكانان)

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا فدعنى فهذا كله قبر مالكِ

وأطرق عمر ، ومُتَمَّم صامت . . وعاد عمر يقول فى نبرة مُشْفقة أسيانة : « أنشدنى يا متمم بن نويرة بعض ما قلت فى أخيك مالك رحمه الله » .

فأنشد قصيدة باكية ختمها بقوله :

فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا !

فقال عمر : « لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدا ! » فقال : « لو كان

أخى صرع مصرع أخيك لما بكيته . » فقال عمر : « ما عزانى أحد بأحسن مما عزيتنى به . »

وذهب عمر إلى أبى بكر يطالبه بإعادة السبى ودفع الدية عن مالك ، ولكن أبا بكر لم يشأ أن ينزع السبى من أيدى مالكيه ، غير أنه رد سبى قوم مالك ، وأعادهم إلى ديارهم مع شقيق مالك . ودفع له الدية ، واعتذر له عما فعل خالد .

وعلم الخليفة أن خالدا لم يكتف بالزواج من زوجة مالك بعد قتله ، بل تزوج من فتاة بكر بعد انتصاره فى اليمامة . . وكانت العرب تجد فى الزواج أثناء الحرب معرة ، فغضب الخليفة وأرسل إلى خالد : « لعمرى يابن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء ، وبفناء بيتك دماء ألف ومائتين من المسلمين لم يجف بعد ! »

وعاد الفاروق يطالب الصديق بعزل خالد عقابا على أخطائه . فقال الخليفة مغضبا : « هبه ياعمر ، تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد . لا أعزله ياعمر . » وعاد يقول : « ما كنت لأغمد سيفا سلَّهُ الله على المشركين . »

وكان الليل قد أقبل ، فمضى عمر إلى عجوز عمياء ذات حاجة ، ليقوم بأمرها ، ولكنه وجد غيره قد سبقه إليها ، وخدمها ، وظل عمر يتقصى ، ليعرف الرجل الذى سبقه إلى خدمة المرأة العجوز . .

وفى الصباح لقى أبابكر ، وحدثه عما كان من أمر تلك المرأة ، وتساءل عمن سبقه إلى خدمتها ، فلم يجب أبو بكر ، فقال عمر : « أنت والله هو ياخليفة رسول الله ! » فابتسم الخليفة ، وأغضى حياء . . ولم يقل شيئا عما صنعه ، ولكنه تكلم مع عمر فى أمر آخر . . إنه ليريد أن يوجه جيشا لينشر الإسلام فى العراق والشام ، وينقذ الناس هناك من ظلم الفرس والروم ، فلو أن الأجل امتد بالرسول لفتح الشام والعراق ! !

وإذ ألف العرب أن يتهيبوا الفرس والروم ، فقد رأى الخليفة أن يستشير الناس ، واستعان عليهم بعمر بن الخطاب . .

وأعجب عمر بالفكرة ، فقد رأى ما وقع للمسلمين من هيبة فى قلوب العرب المرتدين ، حين أنفذ أبو بكر جيش أسامة ! والمرتدون يأتمرون ليغزوا المسلمين

فى المدينة ، فما استطاعوا أن يفعلوا ، ولزموا ديارهم ، حتى دهمتهم خيل الإسلام ، وأما القليل الذين كانوا قد تجاسروا على المدينة ، فقد صدتهم عنها قوات على والزبير وابن مسعود .

استشار الخليفة أهل المدينة فى غزو الفرس والروم ، فكان عمر أول من تكلم ، قال : « والله ياخليفة رسول الله ، ما استبقنا إلى شىء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى رأيت ، لقد أصاب الله بك الرشاد . سَرِّبْ إليهم الخيل فى إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فان الله عز وجل ناصر دينه ، ومقر الإسلام وحده . »

ولكن الناس الذين لم يستريحوا بعد من حروب الردة ، والذين ألفوا الراحة إلى السبايا الحسان ، هؤلاء اثاقلوا إلى الأرض ، وأشاروا على الخليفة أن يستنفر غيرهم من أهل اليمن ، وسائر العرب .

فأشار عمر على الخليفة مرة أخرى أن يعيد السبايا ، ولكن الخليفة ظل على رأيه ألا ينزع من أحد ملك يمينه . . ثم إن عمر صاح فى الناس وهم فى المسجد : « ما لكم يامعشر المسلمين لاتجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ! » .

وخجل القاعدون ونفروا إلى الجهاد .

وقبل أن يتجهز الجيش ، والناس يتداعون ويستنفر بعضهم بعضا ، رأى الخليفة أن يرسل إلى أهل مكة فيشاورهم ، فأشار عليه عمر ألا يفعل ، وأن يكتفى بمشورة أهل المدينة ، فغضب من أجل ذلك عكرمة ، وسهيل بن عمرو من أهل مكة ، قال سهيل لعمر معاتبا : « أفإنكم إن كان الله قدم لكم فى هذا الأمر قدما صالحا تقطعون أرحامنا ، وتستهينون بحقنا ؟ ألسنا أخوانكم فى الإسلام ، وبنى أبيكم فى النسب ؟ » فقال عمر : « إنى والله ماقلت إلا نصيحة ، وتحريا للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين . »

وأرسل الخليفة الى أهل مكة يشاورهم ، حتى إذا جاءته موافقتهم ، بدأ بإعداد جيش يغزو العراق ، وجعل على رأسه خالد بن الوليد ، الذى سماه رسول الله سيف الله المسلول .

ومضى الجيش الى العراق بقيادة خالد ليخلص الناس من غاشية حكم الفرس ، وينشر دين الله . .

* * *

شغل أهل المدينة بجمع القرآن ، وأشرف على ذلك الخليفة نفسه ، وعمر الفاروق الذى أصبح وزيرا للصديق . وكان جمع القرآن عملا عظيما ، حتى لقد كان على بن أبى طالب يقول كلما وجد من يقرأ فى مصحف : « رحم الله أبا بكر ، كان أعظم الناس أجرا فى المصاحف . »

وأثناء جمع القرآن ، كان هناك من يسأل عن معانى بعض الآيات التى يكتبها . . ولقد سئل عمر عن معنى الآية الكريمة : (واذا النفوس زوجت) . فقال : « الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح » .

وكان عبد الله بن عباس حينئذ مشتغلا بتفسير القرآن ، وهو بعد شاب ، وكان من رأى عمر مشاورة الشباب للإفادة من توقد قرائحهم ، ولقد سئل عن معانى بعض ألفاظ القرآن ، ففيه ألفاظ لايجدونها فى لغة قريش ، فقال لهم ابن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمهم أن القرآن نزل بكل لغات العرب ، فألفاظه ليست هى التى تتداولها قريش فحسب . . ثم قال : « كنت لا أدرى ما (الفتاح) حتى سمعت بنت ذى يزن وهى من أهل اليمن ـ تقول لخصم لها : هلم فاتحنى أى حاكمنى ، فعلمت أن (الفتاح) هو الحاكم ، وكنت لا أدرى ما (فاطر السموات) حتى سمعت أعرابيا من أهل البادية ينازع فى بئر فيقول : أنا فطرتها ، أى أنشأتها . »

* * *

ظل عمر وزيرا يصدق الخليفة النصيحة ، ويجتهد رأيه . . ورأى أن الزمن قد تغير منذ وفاة الرسول ، وجَدّت أحوال وأقضية مستحدثة ، توجب على ولى أمر المسلمين أن يستنبط لها الأحكام المناسبة ، وألا يقف عند ظاهر نصوص القرآن

والسنة ، بل فليبحث عن علة الحكم وسببه وحكمته ويربط الأحكام بالعلل ، ليستطيع مواجهة ماتطرحه الحياه الجديدة المتغيرة .

ورأى عمر أن استلهام روح الشريعة من السنة ، فقد علم رسول الله أصحابه أن يتدبروا ، ويتفكروا ، وأن يجتهدوا لاستنباط الأحكام ، إن لم يجدوها فى القرآن أو السنة ، وأن يفقهوا علة الحكم الوارد فى النص ، ليحسنوا تطبيقة كلما جد جديد ، فلا يقفون أمام ظاهر النص ، بل عليهم أن يفقهوا دلالة النص .

وكان عمر ، وعليٌّ أكثر الصحابة اهتماما بعلل الأحكام ، لاستنباط ما يواجهون به مستحدثات الأمور ، فى زمان غير زمان الرسول . وكان سبيلهم إلى ذلك تفهم دلالة النص ، ثم تعرف علة الحكم ، ليقيسوا مالم يرد فيه نص على ما ورد فيه ، ثم تحرى تحقيق المصلحة ، فتحقيق المصالح العامة مقصد الشريعة .

والصحابة جميعا وعلى رأسهم خليفة رسول الله يعون قول الرسول عن عمر : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » . . وقوله : « قد يكون فى الأمم مُحَدَّثُون (أى مُلْهَمون) فإن يكن فى أمتى أحد فعمر . » وهم يعرفون ما لعمر من هيبة فى قلوب الآخرين حتى ليخافونه ! ! والصحابة يذكرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عاد منتصرا من إحدى غزواته ، جاءت جارية سوداء إليه ، فقالت : « يارسول الله ، إنى كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى . » قال : « إن كنت نذرت فاضربى ، وإلا فلا . » فدخل بعض الصحابة وهى تضرب ، ثم دخل عمر فألقت الدف ، وقعدت عليه ! فقال رسول الله مبتسما : « . . إنى كنت جالسا وهى تضرب ، ثم دخل أبو بكر وهى تضرب ، ودخل على وهى تضرب ، ودخل عثمان وهى تضرب ، ثم دخلت أنت ياعمر فألقت الدف . »

وهاهو ذا أحد الصحابة يقول : « مارأيت أحدا أرأف برعيته ولاخيرا من أبى بكر ، ولم أر أهيب فى صدور الرجال من عمر بن الخطاب . »

وكان بين المسلمين رجال من أعيان العرب أغدق عليهم الرسول ليتألف قلوبهم ، وهم من الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أراد أن يحرم منهم عدوه ، ويكسبهم إلى صف

المسلمين ، وعرف أن فيهم حبا للفخر ، والمال ، فأعطاهم مايحبون ، فلما خلفه أبو بكر الصديق أراد أن يسير على سنة رسول الله ، فاصطدم برفض الفاروق !

ذلك أن الفاروق نظر فى أمور الناس بعد وفاة الرسول ، فوجد هؤلاء المؤلفة قلوبهم قد أصبحوا يتقاضون ما لا يستحقون ، ومافقراء المسلمين من السابقين أولى به . .

من الحق أن الرسول أعطاهم ، ولكن ذلك كان والإسلام ضعيف ، وهو فى حاجة إلى أن يكسب أنصارا ، أما اليوم فهذا الدين مكين . . لقد انتفت علة الحكم ، فيجب إذن أن يتغير الحكم نفسه .

وهكذا جاء رجلان إلى الخليفة يطلبان منه أن يقطعهما أرضا واسعة ، ولكنها سبخة ، فاستشار من حضره من الصحابة فقالوا : « إن كانت أرضا سبخة لايُنتفع بها أحد ، فنرى أن تُقطعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم . » فأقطعهما إياها ، وكتب لهما كتابا وأشهد عمر، وهو ليس فى القوم .

فانطلقا إلى عمر يشهدانه ، فأبى أن يشهد وقال : « إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام ذليل ، واليوم قد أعز الله الإسلام . »

فعادا إلى أبى بكر مغضبين ، فقالا مستنفرين متذمرين : « والله ماندرى من الخليفة أأنت أم عمر ؟ ! » فقال : « بل هو لو شاء ! » . ثم جاء عمر ، فقال : « ياخليفة رسول الله أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هذين ، أهى أرض لك خاصة ، أم بين المسلمين عامة ؟ » قال : « بل هى للمسلمين عامة » . قال : « فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ » قال : « استشرت هؤلاء الذين حولى ، فأشاروا على . » قال : « فإذا استشرت الذين حولك ، أفكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضا ؟ » فقال الخليفة : « قد كنت قلت لك أنك أقوى على هذا الأمر منى ، لكنك غلبتنى ! » .

* * *

أقبل المحرم سنة ثلاث عشرة للهجرة فجاءت الأنباء إلى المدينة بأن المُثَنَّى ابن حارثة الشيبانى أغار من تلقاء نفسه على أرض الفرس بالعراق فَرَوَّعَهُمْ ، ونال منهم !

فسأل الفاروق : « من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » فقال له أحد الحاضرين : « أما أنه غير خامل الذكر ولامجهول النسب ، ولاقليل العدد ، ذلك المثنى بن حارثة الشيبانى » . وأشار الفاروق على الصديق أن يستقدمه ، فلما قدم المثنى على أبى بكر قال : « ياخليفة رسول الله ، ابعثنى على قومى ، فان فيهم إسلاما ، أقاتل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتى من العدو » .

وكان أبو بكر يفكر فى فتح الشام تحقيقا لرغبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، التى لم تمهله المنية ليحققها ، ثم إنه كان يعلم ما للفرس من هيبة فى قلوب العرب ، ففكر أبو بكر فى الأمر ، وشاور عمر فشجعه ، وظل يشاور ، ثم شرح الله صدره لفتح العراق ، فبعث المُثَنَّى بن حارثة الشيبانى فى قومه ليقاتل أهل فارس ، فقاتلهم المثنى بقومه عاما كاملا ، ثم بعث إلى أبى بكر يقول : « إن أمددتنى وسمعت بذلك العرب أسرعوا إلىّ ، وأذل الله المشركين ، مع أنى أخبرك ياخليفة رسول الله أن الأعاجم تخافنا وتتقينا . »

فقال عمر : « ياخليفة رسول الله ، ابعث خالد بن الوليد مددا للمُثَنَّى بن حارثة ، يكون قريبا من أهل الشام ، فان استغنى عنه أهل الشام ألح على أهل العراق حتى يفتح الله عليه . »

فجهز أبو بكر خالدا فى ثمانية عشر ألف مقاتل بعد عودته من اليمامة ، وفراغه من أمر مسيلمة ، وأرسله الى العراق ، وأوصاه أن يتألف أهل فارس ، وكل من يحكمونه من الأمم كالعراق .

فتقدم خالد بجيشه حتى نزل الحيرة فخرج إليه أميرها وأشرافها ، فدعاهم إلى الاسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، فاختاروا الجزية ، واشترط عليهم أن يكونوا عيونا للمسلمين ، فوافقوا ، فكانت أول جزية أداها الفرس للمسلمين ، وبلغت مائة وتسعين ألف درهم .

وتقدم خالد من نصر إلى نصر ، وأرسل المثنى بن حارثة يغزو فى اتجاه آخر ، فهزم الفرس فى أكثر من موقعة ، وغنم خالد والمثنى مغانم عظيمة ، أرسلا خمسها إلى الخليفة ، مع كثير من السبى ، وكان فى السبى يسار والد الحسن البصرى قبل أن يسلم ، وفرضت الجزية على الفلاحين ، وفى إحدى هذه المعارك

قتل خالد وجنده من الفرس مقتلة كبيرة بلغت ثلاثين ألفا ، سوى من ألقى بنفسه منهم فى النهر ، فهلك غرقا . .

وفى معركة أخرى بلغ عدد القتلى من الفرس سبعين ألفا ، وأصاب خالد من السبى والغنائم ، مالم يصب مثله من قبل ، فلما بعث إلى أبى بكر فى المدينة بخمس السبى والغنائم قال أبو بكر : « عجز النساء أن يلدن مثل خالد ! » .

وفتح الأنبار وزحف إلى مايليها ، فانحاز جمع عظيم من العرب مع العجم ، وحالفوهم ضد خالد ، قال شيخهم لشيخ العجم : « إن العرب أعلم بقتال العرب منكم ، فدعنا وخالدا » . فقال كبير العجم : « نعم ، وإن احتجتم الينا أَعَنَّاكُم . » فعمد خالد إلى كبير العرب ، فحمل عليه ، واحتضنه وأسره ، فانهزم من معه ، وأُسِرُوا ، فلما بلغ الخبر كبير العجم فر بجنده ، فطاردهم خالد حتى لحق بهم ، فحاصرهم ، فسألوه الأمان فأبى ، وقتلهم . ثم إن خالدا تقدم فحاصر حصنا كبيرا استعصم به أمير ذلك الإقليم ، ثم اقتحم الحصن ، وقتل من فيه من الرجال ، واستحيا النساء ، فسباهن ، واستخلص لنفسه ابنة الأمير ، وكانت جميلة ، فاشتراها .

وكان المثنى ينتقل هو أيضا من نصر إلى نصر .

وعلم عمر بخطأ لخالد ، فعاد ينصح الخليفة بعزله . . فقد كان الخليفة قد أعطى كتابا لرجلين بإسلامهما ، ولكن خالد بن الوليد قتلهما . . ورأى عمر فى ذلك ما يسيغ للخليفة عزل خالد لأن فى سيفه رهقا كما قال من قبل ! ولكن الخليفة التمس العذر لخالد ، واكتفى بلوم خالد ، وقال لعمر : « كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب ! »

واعتذر عمر للخليفة خشية أن يكون قد أرهقه بالإلحاح على عزل خالد وقمعه . .

وتذاكر الصديق والفاروق ما كان أيام النبى صلى الله عليه وسلم . . كان عمر يفضى بكل هواجسه أمام النبى ، ولم يكن ذلك يغضبه عليه الصلاة والسلام ، بل كان يراها فرصة لتعليم صحابته . . وكان يحب الاستئناس بهم مهما تكن رقة حالهم ، أو صغر سنهم ، ولقد أَمرّ أسامة بن زيد ، وهو فى نحو

العشرين ، على جيش فيه مشيخة قريش ، وفيه الفاروق ، وهو الجيش الذى أنفذه أبو بكر بعد وفاة الرسول . .

تذاكر الصديق والفاروق تلك الأيام الأخيرة من حياة معلمهم العظيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . عندما صلى الظهر وهو معصوب الرأس من مرضه الأخير ، ثم اعتلى المنبر يعظ الناس ، وختم خطبته تلك بقوله : « أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئا فليقم أدع له » . فقام رجل فقال : « يارسول الله ، إنى لكذاب ، وإنى لمنافق ، وما شىء إلا قد جئته . » فقام عمر فنهر الرجل قائلا : « فضحت نفسك أيها الرجل ! » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يابن الخطاب ، فضوح (أى فضيحة) الدنيا أهون من فضوح الآخرة . اللهم أرزقه صدقا وإيمانا وصيِّر أمره الى خير . » فقال عمر كلمة ، فضحك رسول الله ، وقال : « عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان . »

وبهذه الطمأنينة إلى أنه لاينصر غير الحق ، لم يجد عمر فى نفسه حرجا من مصارحة أبى بكر بكل أفكاره . . وإنه ما يشير على الخليفة بعزل خالد إلا لأنه يرى المصلحة فى عقابه ، على الرغم من أن خالد بن الوليد ابن عم أمه ، فهو خاله ! !

والفاروق حين نصح الصديق بألا يحارب المرتدين ، كان يخشى على المسلمين إنهاك قواهم بين أحياء العرب ، وكل من الصديق والفاروق قد عرف أن الردة بدأت فى الأيام الأخيرة من حياة النبى ، وهو يجهز جيش أسامة بن زيد ، فأنكر رجال أن يقودهم أسامة وهو أصغر من أبنائهم ، فلما بلغ الرسول ماقالوه ، قال : « لعمرى لئن قالوا فى إمارته ، لقد قالوا فى أبيه من قبله ! وان كان أبوه لخليق بها ، وان أسامة لخليق بها ، أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . »

لقد أمر الرسول أن يسير جيش أسامة الى الشمال ليفتح الأردن وفلسطين ، على الرغم من أن الأنباء أقبلت تترى على الرسول ، عن ردة (الأسود) فى اليمن ، وحشده الجند ، واستيلائه على صنعاء ، كما تواترت الأنباء عن ردة مسيلمة الكذاب ، وادعائه النبوة فى أرض اليمامة ، وإرساله الى النبى أن يقسم الجزيرة العربية بينهما مناصفة ! ! وكذلك عن ردة طليحة ، فما فكر الرسول فى

إرسال جيوش إلى المرتدين ، بل جعل كل همة إنفاذ جيش للفتح تحت أمرة أسامة ابن زيد ، إلى شمال الجزيرة : إلى الأردن وفلسطين . .

وإصرار الرسول على إنفاذ جيش أسامة ، هو الذى جعل الصديق ينفذ هذا الجيش بعد موت الرسول . .

كما أن إعراض الرسول عن إرسال جيوش تحارب المرتدين ، هو الذى دفع عمر إلى المشورة بتركهم ، ومهما يكن الخلاف ، فكل من الصديق والفاروق التزم السنة ، وتحرى أن تكون له فى رسول الله أسوة حسنة ، وكلاهما استشرف تحقيق المصلحة العامة : هدف الشريعة !

ولقد عادت الجيوش منتصرة ، عادت بسبايا من العرب ، مازال عمر يكره بقاءهم فى المدينة ، ومازال يشير على أبى بكر بإعتاقهم ، وإرسالهم إلى ذويهم فى أحياء العرب .

وهاهى ذى جيوش المسلمين تنتصر فى العراق وتغنم مغانم كثيرة ، ويكثر السبى ، كما يكثر المال . . . ويخاف الصديق كما يخاف الفاروق أن يشيع بين الناس لين العيش ، والترف فيفسدوا ، ويُزَيَّن لهم حب الشهوات !

على أنه مهما يكن الأمر فلابد من توزيع الغنائم والسبايا . لقد وزع خالد من قبل أربعة أخماسها على المقاتلين فى العراق ، وأرسل إلى الخليفة الخمس ، وهو كثير . .

ويسير الصديق فى التوزيع على سنة رسول الله ، فيسوى بين الناس . ولكن وزيره الفاروق يرى غير رأيه ، فقد تغير الزمان !

قال الفاروق : « ياخليفة رسول الله ، كيف تجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ ! كيف تجعل من ترك داره وأمواله وهاجر مع رسول الله كمن دخل فى الإسلام كرها ؟ ! » فقال الصديق : « إنما أسلموا وأجورهم على الله ، وثواب السابقين على الله . أما هذا فمعاش والأسوة (التسوية) فيه خير من الأثرة . »

وعاد الفاروق يلح على الصديق أن يعيد السبى الذى سُبِىَ فى حروب الردة إلى أحياء العرب التى سبى منها ، وحسبُ الناس سبايا العجم ! قال : « إنى لأكره أن يكون السبى سنة فى العرب . » فلم يجبه الصديق ، إذ أن السبى فى رأيه قد

أصبح ملك يمين ، وليس لولى الأمر أن ينزع من أحد ملكه لغير مصلحة عامة ! » .

وحاول بعض المنافقين أن ينتهز فرصة الخلاف بين الصديق والفاروق فى النظر إلى توزيع الغنائم ، ولكنه إذ شرع فى الوقيعة بين الشيخين ، نهره عمر وأغلظ عليه ، ثم قال على ملأ من الناس : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » يعنى بلال بن رباح ، وكان عبدا لأمية بن خلف فى مكة ، فلما أسلم عذبه صاحبه عذابا أليما ، فاشتراه أبو بكر ، وأعتقه .

* * *

وشجع فتح العراق أبا بكر على إرسال جيش لفتح الشام ، وتحرير أهله من غاشية الحكم الرومانى ، وجهز جيشا بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وجيشا آخر بقيادة عمرو بن العاص ، فإن أجتمع الجيشان أصبح أبو عبيدة هو الأمير . فلم يرض عمرو بذلك . وفكر فيما يعمل ، فتذكر فضل أبيه العاص على عمر ، يوم حاولت قريش الفتك به بعد إعلان اسلامه .

مضى عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ، وهو يعرف منزلته عند أبى بكر ، واستشفعه ليكون أميرا على جيش الشام !

فعجب عمر من هذا الطلب ، ولم يكتم عجبه وضيقه ، بل واجه عمرو بن العاص برأيه ، فقال له : « لا أكذبك ، ماكنت لأكلم خليفة رسول الله فى هذا أبدا ، فأبو عبيدة أفضل منزلة منك . » قال عمرو : « إنه لا يُنقص أبا عبيدة شيئا من فضله أن أكون أميرا عليه . » قال الفاروق : « ويحك ياعمرو ! إنك لتحب الإمارة ! والله ماتطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا ! فاتق الله ياعمرو ، ولاتطلب بسعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش ، فإنك إن لم تكن أميرا هذه المرة فما أسرع ما تكون أميرا ليس فوقك أحد . »

وانصرف عمرو . وطافت أمام عمر ذكريات عن ولع عمرو بن العاص بالإمارة . . كان ذلك لما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم جيشا بقيادته إلى شمال الحجاز ليغزو ، فلما وصل عمرو ذاتَ السلاسل علم أن العدو قد أعد له جيشا

كثيفا ، فأرسل يستغيث رسول الله ، فأمده بجيش يقوده أبو عبيدة بن الجراح ، وفيه أبو بكر وعمر ، وعدد من كبار المهاجرين . . وأوصى الرسول أبا عبيدة أمير الجيش المنجد بألا يختلف مع عمرو . وكان لأبى عبيدة مكانة رفيعة ، لسابقته فى الإسلام ، وحسن بلائه فى الحروب ، ولورعه ، وتقواه ، وصدقه ، وأمانته ، حتى لقد قال عنه الرسول : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وانضم جيش أبى عبيدة إلى جيش عمرو ، ثم أُذِّن للصلاة ، فقام أبو عبيدة يؤم الناس ، فأبى ذلك عمرو ، وقال له : « إنما جئت مددا لى ، فأنا أميرك ! » وحاول أبو بكر وعمر أن يصرفا عمرو بن العاص عن رأيه ، فاستمسك ، وعاد يقول لأبى عبيدة : « أنت مدد لى ! » قال أبو عبيدة ، وكان مسالما رضيا يكره الخلاف : « ياعمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : لاتختلفا ، وإنك إن عصيتنى أطعتك ! » قال عمرو : « فإنى الأمير عليك ، وأنت مدد لى . » وتأخر أبو عبيدة ، وأمَّ عمرو المسلمين فى الصلاة ، وفيهم من هم أفضل منه : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة !

* * *

علمت الروم أن أبا بكر أرسل إلى الشام جيوشا ، فأرسلت إلى امبراطورها هرقل ، فجاء إلى حمص ، وأرسل أخاه بجيش عدته تسعون ألفا ، فهابهم المسلمون ، وكانت جيوش المسلمين نحو ثلاثين ألفا ، وتكاتب أمراء الجند يتساءلون : « ما الرأى ؟ » فكتب عمرو بن العاص وكان أشدهم دهاء ، وأوسعهم حيلة : « الرأى أن نجتمع ، ذلك إن مثلنا إذا اجتمع لايغلب من قلة . »

فاتفق أمراء الجيوش على أن يجتمعوا عند نهر « اليرموك » ، وكان قواد الجيوش قد كتبوا إلى أبى بكر ، فرأى لهم بعد المشورة ما رأى عمرو بن العاص .

ولما زحف المسلمون إلى شاطىء اليرموك ، نزلوا به ، فأقبل عليهم جند الروم ، فأقاموا حتى ربيع الثانى من سنة ثلاثة عشر هجرية ، وكان الروم يفوقونهم عدة وعديدا بآماد شاسعة ، فأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه المدد ، فأشار عمر عليه بأن يمدهم بخالد بن الوليد .

فأمر الخليفة خالدا أن يزحف إلى اليرموك بنصف الجيش مددا لأبى عبيدة ، ويترك النصف الآخر بالعراق تحت إمرة المثنى بن حارثة .

وصدم المثنى الفرس فى أكثر من معركة ، وكسب مغانم وسبى السبى ، ثم آنس اضطرابا فى بلاط الفرس ، فوجد الفرصة سانحة ليضرب الضربة القاصمة ، ولكنه احتاج إلى مدد ، فأرسل إلى الخليفة ، فلم يتلق ردا ، فذهب بنفسه إلى المدينة ، فوجد أبا بكر يعانى من المرض ، وكان ذلك فى أوائل جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وهو المرض الذى توفى فيه رضى الله عنه .

أما خالد بن الوليد فقد سار بنصف الجيش إلى الشام كما أمره أبو بكر ، وعندما دخل الشام من ناحية العراق ، وجد جماعة يشربون الخمر ، وسمع صوت غناء :

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب ولاندرى !

فقتل خالد المغنى ومن معه ، واختلطت دماؤهم بخمرهم ، واستولى على أموالهم . . ثم تقدم يوقع بكل من يلقاهم ، ويغنم منهم ، ويأسر ، حتى وصل اليرموك ، حيث اجتمع المسلمون ، فبلغ المسلمون بجند خالد نحو أربعين ألفا ، أما الروم فبلغوا بعد المدد مائتى ألف !

* * *

فلما أحس المسلمون بخروج الروم إليهم ، قام خالد خطيبا فى جيوش المسلمين : فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « إن هذا يوم من أيام الله ، لاينبغى فيه الفخر ، أخلصوا بجهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، وهلموا فلنتعاور الإمارة (أى نتناوب ونتبادل) فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يَتَأَمَّر الكل ، ودعونى أميركم اليوم . »

فنزل أبو عبيدة له عن الإمارة ، ووافق أمراء الجيوش الإسلامية الأخرى ، وهم عمرو بن العاص ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعكرمة . . وتفقد خالد جيوشه ، وأخذ ينظمهم ، فسمع رجلا يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فقال له

خالد : « ما أكثر المسلمين وأقل الروم ! وإنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لابعدد الرجال . »

واصطف جيش الروم وجيش المسلمين ، فتقدم من جيش الروم أحد فرسانهم العظام ، وكان من أشرافهم ، فنادى خالد بن الوليد ، فتقدم إليه ، حتى تلاقى رأسا جواديهما .

قال الفارس الرومانى : « ياخالد ، اصدقنى ولاتكذبنى ، فإن الحر لايكذب ، ولاتخادعنى ، فإن الكريم لايخادع . هل أنزل الله على نبيكم سيفا ، فأعطاه لك ، فلا تسله على قوم إلا هزمهم الله ؟ ! » قال : « لا » . قال : « ففيم سميت سيف الله ؟ » قال : « إن الله بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا ، فنفرنا منه ، ثم إن بعضنا صدقه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت ممن كذبه وباعده ثم هدانى الله وتابعته ، فقال لى : ياخالد أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، فسُمِّيت سيف الله بذلك ، فانا أشد المسلمين على الكافرين المشركين . » فقال فارس الروم : « صدقت ، فأخبرنى ، إلام تدعونى ؟ » قال خالد : « إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب . » قال : « فما منزلة الذى يجيبكم ويدخل فيكم ؟ » قال : « منزلتنا واحدة » قال : « فهل له فى الأجر والذخر مثلكم ؟ » قال : « نعم ، وأفضل ، لأننا اتبعنا نبينا وهو حى يخبرنا بالغيب ، ونرى منه العجائب ، وأنتم لم تروا مثلنا ، ولم تسمعوا ماسمعنا ، فمن دخل منكم فى الإسلام بنية وصدق ، كان أفضل منا . »

فسأل الفارس الرومى خالدا أن يعلمه الإسلام ، فصحبه خالد إلى خيمته ، وأنطقه بالشهادتين ، ثم أمره بأن يتطهر ، فاغتسل ، وصلى خالد به ركعتين .

وحسب جيش الروم أن دخول فارسهم العظيم خيمة خالد حيلة عسكرية ، فشدوا على المسلمين ، وخرج إليهم خالد والفارس الرومى ، واستعر القتال ، وأزال المسلمون الروم ، فتقهقروا ، وتقدم خالد بالمسلمين ، فوجدوا النساء الروميات يقاتلن إلى جوار رجال الروم . واستمرت المعركة طوال اليوم ، حتى إذا ادلهم الليل انهزم الروم ، وقتل المسلمون من رجالهم مقتلة عظيمة ، ثم سبوا النساء الروميات ، واستشهد الفارس الرومى فى المعركة بعد إسلامه ، وما كان قد مارس من شعائر الإسلام إلا ركعتين صلاهما وراء خالد ، وتخطفت الصحراء

فلول جيش الروم ، وقُتل قائد الجيش وهو شقيق هرقل ، فلما علم هرقل بالهزيمة رحل عن حمص ، وعين عليها أميرا ، كما جعل على دمشق أميرا .

دوى انتصار اليرموك فى أرجاء الدنيا ، وتزلزل له عرش قيصر فى بيزنطة ، وإيوان كسرى فى المدائن ، وامتلأ المسلمون ثقة بالنفس . . وعجب غير المسلمين للمعجزة التى يصنعها الإسلام بأبنائه : إذ هم أربعون ألفا من أبناء الصحراء الفقراء ، يهزمون مائتى ألف من أبناء أكبر أمبراطورية ! !

* * *

عن الليث بن سعد : « أُهدى لأبى بكر طعاما وعنده الحارث بن كلدة ، فأكلا منه ، فقال الحارث : « أكلنا سم سنة ، وإنى وإياك لميتان عند رأس الحول . » فماتا جميعا فى يوم واحد عند انقضاء السنة ، وإنما سمته يهود ، كما سمت النبى صلى الله عليه وسلم بخيبر فى ذراع الشاة . »

وعن عائشة رضى الله عنها : « اغتسل أبو بكر يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة ، وكان يوما باردا ، فحُمَّ خمسة عشر يوما (أى مرض بالحمى) ، لايخرج إلى صلاة ، وكان يأمر عمر يصلى بالناس ، وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ (الهجرى) . وصلى عليه عمر بن الخطاب ، بين القبر والمنبر ، (قبر الرسول ومنبره أى فى الروضة الشريفة) ، وكَبّر أربعا » ، قالت عائشة : « فنظر إلىّ وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أغمى عليه ، فقلت : يا أبتاه ، هكذا كما قال حاتم :

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فنظر إلىّ كالغضبان ، وقال : ليس كذلك يا أم المؤمنين بل كما قال تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . صدق الله العظيم) . »

* * *

لما قبض الصديق رضى الله عنه ارتجت المدينة من البكاء ، ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء على بن أبى طالب كرم الله وجهه باكيا مسرعا مسترجعا (يقول إنا لله وإنا اليه راجعون) حتى وقف بالباب وهو يقول : « يرحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاما ، وأصدقهم إيمانا ، وأشدهم يقينا ، وأعظمهم غَناء ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وسمتا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا .

صدّقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسماك الله فى كتابه صديقا ، فقال : (والذى جاء بالصدق وصدق به) يريد محمدا ويريدك . كنت والله للإسلام حصنا ، وللكافرين ناكبا ، لم تضلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك . كنت كالجبل لاتحركه العواصف ، ولاتزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضعيفا فى بدنك ، قويا فى دينك ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مطمع ولاهوى ، فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى وتعطيه للضعيف ، فلا حرمك الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك »

ثم دخل الفاروق رضى الله عنه ، فقال : « ياخليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعبا ، ووليتهم نصبا ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ! »

وكان الصديق قبل أن يتوفى قد عهد بالخلافة إلى الفاروق . وذلك أنه لما شعر بدنو أجله ، دعا إليه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، فقال له : « أخبرنى عن عمر بن الخطاب . » قال : « ما سألتنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى . » قال أبو بكر : « وإن » فقال عبد الرحمن : « هو والله أفضل من رأيك فيه . » ثم دعا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال : « أخبرنى عن عمر بن الخطاب . » فقال : « سريرته خير من علانيته ، وليس فينا مثله . » فقال : « يرحمك الله » . ثم شاور بعض كبار المهاجرين والأنصار من أهل السابقة وحسن البلاء والحكمة ، فأقروه على الفاروق ، ولكن أحدهم قال له : « سيكون غليظا علينا ، فقد ترى شدته وأنت معنا » . قال الصديق : « لأنه يرانى لينا ، رأيتنى إذا

غضبت على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له أرانى الشدة عليه . »

وجاءه أحد كبار الصحابة من ذوى قرباه ، فقال له : « استخلفت على الناس عمر ! وقد رأيت مايلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ؟ ! فما أنت قائل لربك إذا سألك عن رعيتك وعن استخلافك عمر ؟ » . قال الصديق : « أجلسونى . أبا لله تخوفنى ؟ ! خاب من تَزَوَّدَ من أمركم بظلم ! أقول اللهم قد استخلفت عليهم خير أهلك . أبلغ عنى ماقلت مَنْ وراءك . »

ثم اضطجع ، ودعا عثمان بن عفان ، فأملاه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها ، . . . إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا ، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب من الإثم ، والخيرَ أردت ، ولا أعلم الغيب ، (سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . والسلام عليكم ورحمة الله . » ثم أمر بالكتاب فختمه .

ثم دعا الصديق خليفته الفاروق ، فقال له : « يا عمر أبغضك مبغض وأحبك محب ، وقد ما يُبغض الخير ويُحب الشر . » قال الفاروق : « لا حاجة لى فيها . » قال الصديق ، « لكن لها بك حاجة ! قد رأيت رسُول الله ﷺ وصحبته ، ورأيتُ إيثاره أنفسنا على نفسه ، وأنت رأيتنى وصحبتنى ، وإنما اتبعت أثر من كان قبلى . والله ما نمتُ فحلمت ، ولا شَبّهْتُ فتوهمت ، وإنى على طريقى ما زغت . تعلم يا عمر أن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وحقا فى النهار لا يقبله فى الليل . . . إن أول من أحذرك نفسك ! وأحذرك الناس ، فإنهم قد طمحت أبصارهم ، وانتفخت أجوافهم ! . . وإنهم سيخافونك ما خفت الله . . . هذه وصيتى وأقرأ عليك السلام . »

ثم انه أمر عمر وعثمان بالخروج إلى الناس ، فقال عثمان للناس : « أتبايعون لمن فى هذا الكتاب ؟ » فقالوا : « نعم » وقال بعضهم : « قد علمنا ما به » وبايعوا جميعا ، لم يتخلف عن البيعة أحد .

فرفع الصديق يديه فقال : « اللهم إنى لم أرد إلا صلاحهم ، وخفت عليهم

الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيى فولّيت عليهم خيرهم ، وأقواهم على رشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ما حضر ، فاخلفنى فيهم ، فهم عبادك ، ونواصيهم بيدك ، أصلح لهم وإليهم ، وأجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدى نبى الرحمة ، وهدى الصالحين بعده ، وأصلح له رعيته . »

ثم غفا .

وفى اليوم التالى دخل عليه عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : « يا خليفة رسول الله ، غدوتَ بحمد الله بارئا . » قال الصديق : « أتراه الشفاء يا عبد الرحمن ؟ » قال : « نعم » قال : « أما إنى على ذلك لشديد الوجع !وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى . إنى وَلّيت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم من ذلك أنفه ، يريد أن يكون له الأمر ! ورأيتم الدنيا مقبلة ـ ولما تقبل ، وهى مقبلة ـ حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى (نسبة إلى أذربيجَان وصوفها رقيق جدا) كما لم يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان (شوك صحراوى شديد القسوة) . والله لأن يقدم أحدكم فتُضرب عنقه فى غير حد (عقاب) خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ! ألا وإنكم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا ! يا هادى الطريق إنما هو الفجر أو البَجْر » (البجر هو الأمر العظيم أو المصيبة . أى إن انتظرت حتى يضىء الفجر رأيت الطريق ، وإلا وقعت فى المكروه) .

فقال عبد الرحمن : « هون عليك يرحمك الله . . إنما الناس فى أمرك بين رجلين . إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو يشير عليك برأيه . . ولم تزل صالحا مصلحا » فقال الصديق : « وددت لو أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قد رميت الأمر فى عنق أحد الرجلين (يعنى عمر وأبا عبيدة) ، فكان أحدهما أميرا ، وكنت له وزيرا ! لوددت أنى كنت من أموركم خلْوا ! . . . يا عبد الرحمن ، إن عمر حين يفضى إليه الأمر سيترك كثيرا مما هو عليه ، فما يشتد إلا لأنه يرانى رقيقا . » قال عبد الرحمن : « لا نعلمك إلا أنك أردت الخير » . . .

* * *

بعد أن عاد الناس من تشييع الصديق ، أقبلوا على الفاروق يبايعونه ، والكل دامع العينين ، فقال أحدهم : « يا خليفة خليفة رسول الله . » قال عمر : « والذى سيأتى بعدى ستنادونه يا خليفة خليفة خليفة رسول الله ! هذا شىء يطول ! »

وسكت الناس ، وسكت عمر ، وهم يفكرون فى تغيير النداء على الخليفة . .

وبعد هنيهة قال عمر : « إنما أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم ، فأنا أمير المؤمنين . »

قال الناس : « نعم يا أمير المؤمنين ! »

أمير المؤمنين

لما بويع عمر بالخلافة ، أهمه أمر الناس ، فلم يستطع أن ينام ليلته ، وقام ليصلى ، فلم يستطع أن يفرغ قلبه للصلاة ، فما زال أمر الناس يلح عليه ! . . وبكى !

وأُذِّن للفجر ، فقرأ سورة يوسف كلها ، ليتيح للمتخلفين فرصة اللحاق بالجماعة ، قبل صلاة الفرض .

وحين وصل من سورة يوسف إلى قوله تعالى : (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) غلبه البكاء ، وغاض صوته فى دمعه ، وابتلّت لحيته الشيباء .

وانتهى من الصلاة ، فجلس ينظر فى أمر الناس ، وفى توزيع خمس الغنائم التى أرسلها اليه أمراء جيوش الفتح ، وكان أربعة أخماس الغنائم يُوَزّع على المقاتلين ، والخمس يُرسل إلى المدينة ليُنفق كما قال تعالى : (واعلموا أن ما غنتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . . فكان الرسول ﷺ يأخذ خمس المغنم فيوزعه ، كما أمر الله تعالى ، ويقول للناس : « ليس لى فى مغنمكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » . إذ أن الرسول ﷺ كان ينفقه فى وجوه المصلحة العامة . .

جلس عمر إلى الناس ومعه دِرَّة ، وهى عصا صغيرة ، وأخذ يفكر فيما يفعل بما جاءه فى ذلك الصباح من مال كثير !

وتداعى عليه الناس ، فرأى سعد بن أبى وقاص قد أقبل عليه ، يزاحم الناس ، فخفقه بالدِّرَّة ، فعجب سعد : فيم يضربه أمير المؤمنين ؟ ! ووجل

الحاضرون ، فلسعد هيبة خاصة ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد المسلمين السابقين ، وقد كان من أقرب الصحابة إلى الرسول ﷺ !

وقرأ عمر الدهشة والتساؤل والإنكار على وجه سعد ، فقال له عمر : « إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض ، فأحببتُ أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك . »

وأقبل عمر على المغانم يوزعها ، وحسب الناس أنه سيسير فى التوزيع على سنة الرسول ، ثم أبى بكر ، وكان أبو بكر قد سوى بين الناس ، فجاءه بعض المهاجرين الأوائل فقالوا له : « يا خليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس من لهم فضل وسوابق ، فلو فَضَّلْتَ أهل السوابق والفضل والقِدمَ بفضلهم ! » .

قال : « أَمَّا ما ذكرتم من السوابق والفضل والقدم ، فما أعرفنى بذلك ! وإنما ذلك شئ ثوابه على الله ، وهذا معاش ، فالأسوة (التسوية) فيه خير من الأَثَرة (التفضيل) . »

وكان الفاروق قد ناشد الصِّدِّيق أن يؤثر السابقين من المهاجرين والأنصار ، ولكن الصديق أبى ، وسوى بين الجميع . . .

أما عمر فقال : « لا أجعل من حارب رسول الله كمن حارب معه ، ولا من ترك داره وماله وهاجر إلى الله ، كمن أسلم بعد الفتح كرها ! »

واذ جلس عمر أمام المال الكثير والغنائم العظيمة ، أمر بعض الصحابة بإحصائها ، ثم أعلن سياسته فى التوزيع فقال للناس : « والله الذى لا إله إلا هو ، ما من الناس أحد إلا له فى هذا المال حق . . . وما من أحد أَحَقّ به من أحد . . . وما أنا فيه إلا كأحدهم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، ومن رسول الله ﷺ : فالرجل وبلاوءه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغَناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه . » (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

فبدأ بمن شهد بدرا من المهاجرين ثم الأنصار ، وأعطى الحسن والحسين كأبيهما لمكانتهما من رسول الله ، ولأنه سمعه يقول عنهما : « هما سيدا شباب أهل الجنة » ولم يفضل أحدا على أهل بدر إلا أزواج رسول الله ﷺ .

ولقد جعل آخر الناس ، هم من أسلموا بعد الفتح . وفرض للقيط زِرْقا ، وأمر بأن يكون رضاع اللقطاء من بيت المال !

ولم يعط عمر أحدا من المُؤَلَّفة قلوبهم ، بل حرمهم كل ما كانوا يتقاضونه من أموال الزكاة ! وكان رسول الله ﷺ قد تألفَّ قلوب جماعة من رؤساء وسادات العرب ، كانوا قد أظهروا الإسلام ، لما يدخل الايمان فى قلوبهم ، فأغدق عليهم الرسول من أموال الزكاة ، وخصهم ببعض الغنائم ، ليتألف بذلك قلوبهم ، وعرفوا باسم المؤلفة قلوبهم ، وجاء أبو بكر فاتبع الرسول فى سيرته معهم ، وقد قال الله تعالى فيهم : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم) . كان هذا والإسلام ضعيف .

وكان من بين هؤلاء أبو سفيان ، وعباس بن مرداس ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن .

فلما بويع عمر نظر فى الأمر ، فوجد الزمان قد تبدل ، والإسلام قد أصبح متينا مكينا ، لا حاجة به إلى اصطناع أحد ، ووجد فقراء المهاجرين والأنصار أحق بهذا المال من المؤلفة قلوبهم . . وهكذا تأمل فى علّة النص ، وحكمته ، فوجد أن الحال قد تغير وانتفت العلة والحكمة ، فوجب أن يتغير الحكم ! . . . من أجل ذلك أبى أن يعطى المؤلفة قلوبهم ، فلما عاتبوه فى ذلك ، قال لهم : « إن الله أعز الإسلام وأغناه عنكم ، فإن تبتم إلى الله ، وإلا فبيننا وبينكم السيف ! »

وجاء إلى عمر ، وهو فى مكانه رسول من عائشة وكان أبوها الصِّدِّيق قد قال لها :

« أماَ إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما . . . . ولكننا أكلنا من جريش (غليظ) طعامهم ، ولبسنا من خشن ثيابهم ، وليس عندنا من فيء المسلمين إلا هذا العبد ، وهذا البعير ، وهذه القطيفة ، فإذا مت فابعثى بالجميع إلى عمر . » فحمل رسول عائشة ذلك كله إلى عمر وهو بالمسجد .

فلما رأى عمر ما بعثت به عائشة ، بكى حتى سالت دموعه على أرض المسجد ! ، وقال : « رُحُم الله أبا بكر ، لقد أتعب مَنْ بعده ! » ولكنه أمر بأخذ ما أرسلته عائشة ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : « سبحان الله . أتسلب عيال أبى بكر عبدا ، وناضحا (أى بعيرا) ، وشِقّ قطيفة ثمنها خمسة دراهم ! فلو

أمرت بردها عليهم ! » فقال : « لا ، والذى بعث محمدا لا يكون هذا فى ولايتى ، أيخرج أبوبكر منها ميتا وأتقلدها أنا حيا ؟ ! »

وردها عمر إلى بيت المال ، كما أوصى أبو بكر .

* * *

ورأى أمير المؤمنين أن يتفقد أحوال الناس ، فعزم على أن يطوف بأسواق المدينة إذا كان النهار ، وأن يتجول بها إذا كان الليل ليتحسس حوائج الرعية ، وفى يمينه الدرة .

وفى إحدى أسواق المدينة طاف بمكان لبيع اللحوم يملكه الزبير بن العوام ، ولم يكن فى المدينة مجزرة غيرها . . وشاهد ما يعرض فى الأسواق ، وراقب الموازين والمكاييل . . ووجد فى إحدى الأسواق رجلا يمسك بتمرة ضائعة ويسأل عن صاحبها ، فنهره عمر ، وضربه بالدرة ، وقال له : « ليس هذا ورعا ، ولكنه التكلف ! كلها يا ذا الورع البارد ! » ورأى رجلا يشترى لحما يومين متتالين فضربه بالدِّرَّة ، وقال له : « ألا طويت بطنك يومين ؟ ! »

ووجد رجلا يسير متماوتا ، فسأل عن أمره ، فقيل له إنه ناسك ، فضربه بدرته ، وقال له : « هذا نفاق ، فالخشوع مكانه القلب لا الوجه ، اعتدل ولا تمتْ علينا ديننا أماتك الله ! »

ورأى إبلا سمانا حسنة الهيئة فأعجبته ، فقال : « لمن هذه الإبل » . قالوا : « إبل عبد الله بن عمر » ، وأرسل من يأتيه بعبد الله فقال له : « بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين ! ما هذه الإبل ! » قال عبد الله : « إنها إبل اشتريتها بمالى ، أتاجر فيها وأبتغى ما يبتغيه المسلمون . » قال : « ويقول الناس حين يرونها : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ! وهكذا تسمن إبلك ، ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين ! يا عبد الله بن عمر ، خذ رأسمالك الذى اشتريت به هذه الإبل ، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين ! » .

ثم دعا إليه أفراد أسرته فقال لهم : « إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإذا وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا . وإنى والله لا أوتَى برجل منكم

وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى . »

واعترضه رجل وهو يسير فى إحدى الأسواق ، فسأله : « يا أمير المؤمنين : ما معنى قوله تعالى : (والذاريات ذروا فالحاملات وقرا) قال : « الذاريات ذروا هى الرياح ، والحاملات وقرا هى السحب ، ولولا أنى سمعت رسول الله يقول هذا ما قلته . » فتقدم منه رجل آخر فسأله : « وما معنى قوله تعالى : (وفاكهة وأبًّا) فأنا لا أعرفها . » وأحس عمر بأن هذا الرجل لا يريد أن يعرف ، وانما يسأل ابتغاء الفتنة ، فضربه بالدرة ، وقال : « وما عليك ألا تعرفها ؟ ! » .

ورأى عمر فى إحدى الأسواق بائعا يغش اللبن ، فضربه ، وأنذره بالحبس ، ووزع اللبن المغشوش على الفقراء ، وأنذر من يغش اللبن بعقاب أليم ، وذكّر الناس بقول رسول الله ﷺ : « من غشنا فليس منا » .

وقابل فى السوق رجلا غريبا فسأله عمر : « ما اسمك يا رجل ؟ » قال : « جمْرة يا أمير المؤمنين . » قال : « أبو من ؟ » قال : « أبو شهاب . » قال : « فممن » قال : « من الحرقة . » قال : « أين سكنك ؟ » قال : « بحرقة النار » قال : « بأيتها ؟ » قال الرجل : « بذات لظى . »

وعلى الرغم من أن عمر كان قليل المزاح ، إلا أنه لم يسعه إلا أن يقول للرجل : « أدرك أهلك قبل أن يحترقوا ! »

وجاءه اعرابى فقال له : « يا عمر ! اتق الله . » فهم أحد جلساء عمر أن يبطش بالرجل ، وقال له : « أمثلك يقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ ! » فقال عمر : « دعه ، فليقلها ، فلا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نسمعها . دعه فليقلها لى ، فنعم ما قال ! »

ثم دعا الناس ، فصعد المنبر فقال : « يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا ؟ انى لأخاف أن أخطىء فلا يردّنى أحد منكم تعظيما لى ! . إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . » فقال له رجل : « والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه . » ووثب رجل آخر فقال : « والله يا أمير المؤمنين ، لو رأيناك معوجا لقومناك بسيوفنا . » فقال عمر : « رحمكم الله ، والحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم عمر بسيفه . »

* * *

ورأى عمر أنه لم يعد يملك وقتا للتجارة ، فقال للناس : « إنى كنت امرأ تاجرا يُغنى الله عيالى بتجارتى ، وقد شغلتمونى بأمركم هذا ، فما ترون أن يحل لى فى هذا المال ؟ » فقالوا وأكثروا ، ولم يقل علىٌّ شيئا ، وانتظر عمر أن يسمعه ، ولكن عليا ظل صامتا ، حتى سأله : « ما تقول يا أبا الحسن . » قال : « ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف » .

ولكن عمر قسا على نفسه ، وقدر لنفسه ما لايشبعه أو يشبع عياله من جوع ، وما لا يكسوه أو يكسوهم بما يليق بهم ، فاجتمع على وعثمان وطلحة والزبير ، فجاءوا إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ، وأشاروا عليها أن تحدث أباها أمير المؤمنين فى زيادة ما يتقاضاه ، فالمغانم بحمد الله عظيمة ، وقد كثر المال !

فلما كلمته حفصة فى ذلك غضب وسألها عمن أشار عليها بما قالته ، فقالت : « لا سبيل إلى علمهم » قال : « أنت بينى وبينهم ! ما أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ فى بيتك من الملبس ؟ » قالت : « ثوبين حسنيين كان يلبسهما للوفد والجُمَع (أى لاستقبال الوفود ولصلاة الجمعة) » قال : « فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ » قالت : « خبزنا خبز شعير ، فصببنا عليه وهو حار عُكَّة لنا ، (إناء فيه سمن) فجعلتها دسمة حلوة ، فأكل منها . » قال : « أى بسط كان يبسط عندك أوطأ ؟ » قالت : «كساء ثخين كنا نرقعه فى الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه ، وتدثرنا (أى تغطينا) بنصفه . » قال : « يا حفصة ، قولى لهم إنما مثلى ومثل صاحبىَّ كثلاثة سلكوا طريقا ، فمضى الأول وقد تزوّد فبلغ المنزل ، وتبعه الثانى فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم اتبعه الثالث ، فان لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يدركهما . »

ثم خرج إلى الناس على بابه ، فقال : « أنا أخبركم بما أستحل من مال الله : هما حُلّتان ، حلة فى الشتاء وحلة فى الصيف ، وما أحج به وأعتمر من الدواب ، وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . »

ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « أيها الناس ، إنى داع فأَمِّنوا » (أى قولوا : آمين) ثم رفع يديه ، وقال : « اللهم إنى غليظ فَلَيِّنِّى لأهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على

أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم . اللهم إنى شحيح فَسَخِّنى من غير سَرَف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، وأجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين . اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين . اللهم إنى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثَبِّتْنى باليقين والبر والتقوى ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وصلاح النيات ، والحذر من الشبهات . اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت . »

وبعد أن فرغ من الدعاء قال : « أيها الناس ، إنما العرب مثل جمل أَنِف (ذلول) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . أما أنا ورب الكعبة لأحملنكم على الطريق . »

ثم نزل وكتب إلى عماله كتابا واحدا يعظهم فيه أن يحسنوا التصرف بالمال العام ، وأن يقوموا فيه بحاجات الناس . قال : « يا معشر الأمراء ، إن هذا المال لو رأيناه يحل لنا لأحللناه لكم ، فأما إذا لم يحل لنا ومنعنا أنفسنا منه ، فامنعوا أنفسكم منه . »

* * *

وبعد ذلك أخذ أمير المؤمنين يفكر فيما عساه يصنع من فوره لجيوش المسلمين التى تحارب فى العراق والشام ، منذ بعثها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق .

ولقد أدرك عمر أن الرسول إنما غزا وقاتل دفاعا عن الإسلام حين هاجمه أعداؤه ، ثم لنشر الإسلام وتحريرا للانسان من ربقة الذل والاستبداد فى دولة الفرس ودولة الروم ، ولبناء مجتمع إنسانى على أساس وطيد من الإخاء ، وفى ظل ظليل من وحدة الدين ، والتسامح ، والعدل ، والإحسان ، وكانت سبيله هى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى قاتلوه ، فقاتل . .

هكذا قاتل النبى منذ يوم بدر : إما دفاعا عن الإسلام ، وإما تحريرا للإنسان ، وإقامة مجتمع عادل حر متحاب .

وهكذا خاض أبوبكر حروب الردة ، وسير الجيوش إلى العراق والشام حيث امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم تفرضان حكما مستبدا ظالما على الناس ، وأكثر رعايا هاتين الامبراطوريتين من العرب . ومن المستضعفين الذين يتوقون إلى الخلاص ، والحرية ، والإنصاف .

ولقد استثار نشر الإسلام والعدل فى الجزيرة العربية عروبة العراق ، إذ عرف عرب العراق ما صنعه الإسلام بأهل الجزيرة العربية : كانوا أعداء فألّف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

فلما أرسل الصِّديِّق خالدا إلى العراق ، أمره أن يجاهد بمن يخرج طائعا محتسبا ليجاهد فى سبيل الله ، حبا فى الجهاد ونصرة الحق ، لا طمعا فى المغانم ، وحذره من أن يجعل فى جيشه أحدا من أهل الردة ، ثم أمد خالدا بالقعقاع ، وهو أحد الذين اشترى الله منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة ، عظيم الشجاعة ، سخى العطاء ، وسئل أبوبكر : كيف يمد خالدا برجل واحد ؟ ! فقال : « لا يهزم جند فيهم مثل هذا » . ذلك أنه كان مثالا للتضحية والفداء ، وللشدة فى الله .

وكتب أبو بكر للمُثَنَّى الذى بدأ غزو العراق ، يأمره بطاعة خالد بن الوليد .

فزحف خالد ، وكما أوصاه أبو بكر لم يبدأ بالقتال ، بل أرسل إلى هرمز قائد الفرس : « أما بعد فاسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وإقرار الجزية ، وإلا فلا تلومَنّ إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ! »

فلما كتب هرمز إلى ملكه بنذير خالد ، جهز جيشا كثيفا ، وسار هرمز بالجيش ، وعجل فنزل بالمكان الذى أراد المسلمون أن ينزلوا به ، وسبق خالد إلى ضفة النهر ، واضطره إلى أن ينزل بالمسلمين بعيدا عن الماء ، وفى الحق إن خالدا تعمد أن يستفز رجاله ليحاربوا الفرس على الماء ! قال لهم : « حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى لَيَصِيَرونّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين . »

وبدأت المعركة ، فحمل خالد وجنوده على الفرس ، ورأى هرمز أن الذعر قد أصاب رجاله المترفين ، فأخذ بعضهم يتقهقر فى اضطراب ، بل لقد حاول بعضهم الفرار ، فوضع هرمز السلاسل فى أرجلهم كيلا يفروا . .

وكاد هرمز مكيدة ليقتل خالدا فيسهل على الفرس بعده ضرب المسلمين ! إذ اتفق هرمز مع رجاله على أنه سيدعو خالدا ليبارزه ، حتى إذا شُغِلَ خالدٌ بالمبارزة ، تقدم الرجال من خلفه ، فطعنوه من ظهره بالرماح !

ونزل خالد عن حصانه ليبارز هرمز ، وإنه لمنهمك فى المبارزة ، إذ تقدم بعض قواد الفرس ليقتلوه غيلة ، فحمل عليهم القعقاع ، فأوقع بهم هو وحده ، وقتل خالدٌ هرمزَ ، وانتصر المسلمون انتصارا ساحقا ، وأسروا سبيا كثيرا ، وغنموا أموالا طائلة ، وكان مما غنموه قلنسوة هرمز المرصعة بالجواهر النادرة ، وقد قدرت بنحو مائة ألف دينار ! . .

وزع خالد أربعة أخماس الغنائم والسبايا على المقاتلين ، وأرسل الخمس إلى الخليفة .

وقاد خالد جيوش المسلمين من نصر إلى نصر ، حتى أتى هو والمثنى بالأعاجيب ، وفعلوا بالفرس الأفاعيل ، حتى لقد زحفا إلى الحيرة عاصمة الفرس بالعراق !

يشحن خالد الجند فى سفن تمخر الفرات إلى الحيرة ، ويخرج المرزبان صاحب الحيرة إلى خارجها بالفرسان ، ويأمر ابنه أن يسد الفرات ، ليتدفق ماؤه إلى الانهار الصغيرة المتفرعة منه ، ويفاجأ المسلمون بالفرات يكاد يجف ، فيجنح الفلك المشحون بالرجال والسلاح والعتاد ، والمؤن ! ويُذْعَرُ المسلمون ، ويعربد عليهم الفرس الذين باتوا فى سكرة فرحين !

ولكن خالدا خاض الماء الضحل برجاله فانقضوا على الفرس وهم نائمون ، فقتلوهم جميعا ، وفيهم ابن المرزبان ، وسدوا الأنهار المتفرعة من الفرات ، فعاد إليه الماء ، وطفت السفن ، وتقدمت إلى الحيرة تحمل جيش المسلمين .

وترامت الأنباء عبر بلاد فارس ، فهرب المرزبان فزعا ، وجاءه فى الطريق نبأ موت ملكهم ، وتناحر الأمراء على العرش ، فأسرع إلى المدائن عاصمة الدولة يخوض غمرات الصراع مع الخائضين !

أما خالد فتقدم ليحاصر الحيرة عاصمة العراق ، واعتصم سادة الحيرة بقصورهم ، فجعل قواد جيشه وفى طليعتهم المثنى يحاصرون تلك القصور . وقال خالد لأمراء الجيش : « لا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم ، ولا تمكنوا عدوكم منكم فيتربصون بكم الدوائر . »

وأوصى قواده أن يمهلوا المعتصمين يوما واحدا : ليختاروا بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، فإن انقضى اليوم ولم يردوا ، اقتحموا عليهم ، وقتلوهم . فصاح القسيسون والرهبان من أهل الحيرة فى أمرائهم المتحصنين بقصورهم : « يا أهل القصور ! ما يقتلنا غيركم ! »

فنادى أهل القصور : « يا معشر العرب ، قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تبلغونا خالدا . » فلما جاءوا اليه ، حاور أهل كل قصر على حدة ، وقال لهم كلاما واحدا : « ويحكم ! أعرب أنتم ؟ فما تنقمون من العرب ؟ ! أم عجم ؟ ! فما تنقمون منا وما جئنا إلا بالعدل والإنصاف ؟ » قالوا : « بل نحن عرب عاربة ، وأخرى مستعربة » قال : « لو كنتم كذلك لم تُحادُّونا ، وتكرهوا أمرنا . » قالوا : « لَيدُلَّك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية . » قال : « أختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم أو أقمتم فى دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة (الحرب) ، فقد والله أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة . » قالوا : « نعطيك الجزية . » قال : « ويحكم ! إن الكفر فلاة مُضِلّة ، فأحمق العرب من سلكها . »

فصالحوه على جزية قدرها تسعون ومائتا ألف درهم ، وأهدوه أثمن الهدايا ، فأرسلها إلى أبى بكر .

وفرح الخليفة والناس بالانتصارات ، وأرسل الخليفة إلى خالد : « احسب لهم هديتهم من الجزية ، وخذ بقية ما عليهم . »

واتخذ خالد الحيرة قاعدة للجيش الإسلامى ، وأرسل المُثَنَّى فهزم الفرس فى أكثر من موقعة ، وحاز للمسلمين بلادا جديدة .

* * *

وكان للفرس هيبة فى قلوب العرب ، فَهُمْ أصحاب دولة كبرى ، فلما هزمهم المسلمون ، شاعت بين الناس فى المدينة قصص عجيبة عن بطولات خالد بن الوليد ، والمُثَنَّى بن حارثة ، حتى خشى عمر أن يُفْتَنَ الناس بهما من دون الله ، فأشار على الصديق أبى بكر بعزلهما لكيلا يفتن الناس بهما ، وليعلموا أن الفتح جاء من الله لا منهما ، وأن القوة لله جميعا . . !

ولكن الصديق خشى أن يكسر عزلهما جيوش المسلمين ، فأبى !

وكان أبو عبيدة يقود جنود الإسلام إلى الشام ، فجمع هرقل رؤساء الروم ومن حالفهم من العرب ، وقال لهم عن جيوش الإسلام : « لقد ساروا إليكم حفاة عراةً جياعا قد اضطرهم إلى بلادكم قحط الأرض وسوء الحال ، فسيروا إليهم وقاتلوهم عن بلادكم وأبنائكم ونسائكم ، وأنا مُمِدٌّ بالخيول والرجال . »

فلما علم أبو بكر بما قاله هرقل قال : « والله لأُنْسِيَنّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . » وكتب لخالد : « دع العراق واخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم امض فى الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام . » ثم كتب إليه ناصحا : « لا يَدْخُلَنكّ عجب ! وإياك أن تُدِل (أى تفخر) بعمل ، فإن الله له المَنّ ، وهو وَلِيّ الجزاء . » وأرضت هذه النصيحة عمر ، فقد كان يخشى أن يفسد زهو الانتصارات الحربية قلبَ خالد والمثنى . .

ثم كتب أبو بكر إلى أبى عبيدة : « أما بعد ، فإنى وليت خالدا قتال العدو بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له ، وأطع أمره ، فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه ، ولكنى ظننت أن له فطنة بالحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك خيرا . » ولم يغضب أبو عبيدة ، وسره أن يقدم عليه خالد الذى صنع معجزة النصر فى حرب اليمامة . .

وكتب خالد إلى أمراء جيوش المسلمين بالشام : « أما بعد ، فإن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتانى بالمسير اليكم . . . فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثواب الله ، عصمنا الله وإياكم باليقين ، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين . »

وكان لنبأ قدوم خالد بجنده الذين صنعوا نصر اليمامة فعل السحر فى نفوس جيوش المسلمين بالشام ، فقوى إيمانهم بالنصر . .

وكتب خالد إلى أبى عبيدة : « أما بعد ، فانى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة فى الدنيا من كل سوء ، وقد أتانى كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرنى بالمسير إلى الشام ، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ، ولا أردتُه إذ وُلِّيته ، فأنت على حالك التى كنت عليها ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع أمرا دونك ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك ، تمم الله ما بنا وبك من إحسان ، ورحمنا الله وإياك من النار ، والسلام عليك ورحمة الله . »

وسر أبو عبيدة بما أبداه خالد من أدب الخطاب وحسن التأتى ! . .

وقسم خالد جيش العراق نصفين ، فأخذ نصفه ، وترك للمثنى نصفه كما أمره الصديق ، ولكنه أخذ فى جيشه كل من بجيشى العراق من صحابة رسول الله ، فقال له المثنى : « لا والله . لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحابك نصف الصحابة وإبقاء النصف معى ! فوالله ما أرجو النصر إلا بهم ، فأنت تُعَرِّينى منهم . »

ولكن خالدا أصر على أن يأخذ الصحابة جميعا ، وترك للمثنى عوضا عنهم فرساناً من أشجع رجالات القبائل وأبناء البيوتات ، فرضى المثنى .

ولما فصل خالد بنصف الجيش من العراق مقتحما بادية الشام ، طمع الفرس فى استرداد ما فتحه المسلمون ، فهاجموهم ، واضطروا المثنى إلى الجلاء عن عاصمة العراق : الحيرة ، وآثر المثنى ألا يقاتلهم حتى يُمِدّه الخليفة بجنود يعوضون نصف الجيش الذى قاده خالد إلى الشام ، فلما لم يصله المدد أتى المدينة ، فوجد أبا بكر مريضا ، ولكنه لقيه ، وشكا إليه حرج الموقف ، واضطراره إلى ترك كل ما فتحه الله عليهم ، إلى موقع على حدود العراق وشبه جزيرة العرب .

وذات صباح دعا أبو بكر خليفته عمر فقال له : « اسمع يا عمر ما أقول ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تُمْسِيَنّ حتى تندب

الناس مع المثنى ، وإن تأخرتُ إلى الليل فلا تُصْبِحَنّ حتى تندب الناس مع المثنى ، وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق ، إنهم أهله وولاة أمره ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم . »

فلما توفى أبو بكر ، وبويع لعمر ، كان أكثر ما أهمه هو أمر جيوش المسلمين التى خرجت تجاهد فى سبيل الله فى أراضى الفرس والروم . وأشار المثنى على عمر بأن يمده بأهل الردة الذين تابوا ، فطمعُهم إلى الغنائم والسبايا الفارسيات الحسان ، سيُلْهِبُ حماستهم فى الحرب . . ! ولكن عمر آثر أن يستجيش غيرهم من العرب . وأمر أن يُجمع له الناس فى المسجد ، فلما اجتمعوا استنفرهم للجهاد ، فلم ينفر أحد ، فقال لهم : « إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى (يعنى أبا بكر) ، وإنه لا يحضرنى من أمركم شىء إلا دفعت به إلى أهل الأمانة ، فلئن أحسنوا أحسنت اليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم . » وعاد يحرض الناس على قتال الفرس بالعراق ، فلم ينهض أحد ! . . .

وعجب عمر لأمر الناس ! لماذا كلما دعاهم إلى الجهاد اثاقلوا إلى الأرض ؟ ! . . أحقت نبوءة أبى بكر ، فاستطابوا متاع الحياة بعد تدفق الغنائم ؟ ! ولكن الدنيا لم تقبل بعد ، فما عسى أن يكون خطبهم إذا أقبلت ؟ ! . .

ورأى عمر أن يحرم أهل المدينة من السبايا ، وأن يرد السبايا إلى أهليهم من أهل الردة ، ويحرضهم على قتال الفرس ، فربما أقبلوا تحركهم الرغبة فى الغنائم ، كما يرى المثنى بن حارثة !

وقال عمر للناس : « إنى كرهت أن يكون السبى سنة بين العرب . » وأمر برد سبايا أهل الردة اليهم ، ثم أرسل اليهم يستنفرهم إلى العراق ، فلبوه فرحين شاكرين له ما رده لهم من السبايا من النساء والوِلْدان .

فلما أصبح اليوم التالى ، واجتمع الناس فى المسجد ما بين مشفق من عمر ، ومشفق عليه ، أقبل بعضهم على بعض يتخافتون بأن عمر نزع السبايا منهم انتقاما لتثاقلهم عنه لما حرضهم على القتال ! . .

وأخذوا يتهامسون عما عسى أن يلقوه بعد من شدة عمر وغلظته ! !

* * *

ولم يخف على عمر ما قالوه .

فصعد المنبر ، بعد الصلاة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « بلغنى أن الناس هابوا ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبوبكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور اليه ؟ ! ومن قال ذلك فقد صدق . . . إنى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رءوفا رحيما . فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى ، أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله كثيرا وأنا به أسعد .

« ثم ولى المسلمين أبوبكر ، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون فى يده سيفا مسلولا حتى يغمدنى ، أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد .

« ثم انى وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، وأنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق ، وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف (الفقراء) .

« ولكم عَلَىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم ، فخذونى بها : لكم على ألا أجتبى شيئا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه . ولكم على إذا وقع فى يدى مال ألا يخرج منى إلا فى حقه . ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، وألا أُحَمّركم فى ثغوركم (يجمدهم ويمنعهم من العودة) ، وألا ألقيكم فى المهالك ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

« فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فيما ولانى الله من أمركم . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين . »

وعاد عمر يحرض المؤمنين على القتال ، فلم يجبه أحد ، فادرك المثنى أن هؤلاء الناس يتهيبون الفرس ، فقال لهم : « أيها الناس ، لا يعظُمَنّ عليكم هذا الوجه ! فإنا قد تَبَجَّحْنا ريف فارس (أى تمكنا منه) ، وغلبناهم على خير شِقّىْ السواد (العراق) ، وشاطرناهم وطنا ، ونلنا منهم ، واجترأنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها . »

وأثر كلام المثنى فى الناس تأثيرا حسنا ، وكأنه خلصهم من تهيبهم الفرس ، فقام عمر فقال : « سيروا فى الأرض التي وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (ليظهره على الدين كله) ، والله مظهر دينه ، ومعزّ ناصره ، ومُوَلٍّ أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ! ؟ »

فنهض أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى فتطوع للجهاد مع المثنى ، وتلاه رجل آخر ، فثالث ، فقامت جماعة ، ثم جماعة ، حتى اجتمع لعمر ألف مقاتل .

وقال رجل من المهاجرين لعمر : « أَمِّر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين . » فقال : « لا والله لا أفعل ! إن الله إنما رفعكم بسبقكم إلى العدو ! فإذا جبنتم لما دعوتكم ، وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق وأجاب الدعاء . والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابا (تطوعا) ! »

ثم دعا أبا عبيد الثقفى ، فجعله أميرا على الجيش الذى سيمد به المثنى .

وأخذ يجهز الجيش ، وأرسل إلى أحياء العرب التى رد إليها من كانوا قد سبوا منها فاستنفر هذه الأحياء جميعا ، فنفرت إلى الجهاد ، فَأَمَرَ المثنى بأن يعود إلى قواته فى العراق ، وأوصاه بالحكمة والثبات والأناة « حتى يقدم عليك أصحابك . »

مضى المثنى إلى العراق ، وعمر فى المدينة يجهز المدد . . وغضب رجال أنه جعل على الجيش رجلا ليس من المهاجرين ولا الأنصار ، ولكن عمر لم يحفل بغضبهم ، فقد أَمَضَّه أنهم لم يستجيبوا له ، لما دعاهم إليه ، واستجاب رجل هو أحدث منهم عهدا بالإسلام ، وليست له صحبة برسول الله ، ولا هو من المهاجرين أو الأنصار !

وحين رأى عمر أن يبعث المدد إلى العراق نادى قائده أبا عبيد الثقفى فقال

له : « اسمع من أصحاب النبى ﷺ ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث (المتأنى المتدبر) الذى يعرف الفرصة . »

* * *

هذا ما كان من أمر جيش العراق .

أما عن جيوش الشام التى أَمَّر أبوبكر عليها خالدا ، وجعل أبا عبيدة بن الجراح تحت قيادته ، فكانت قد حققت انتصارات أذهلت الناس ، وبصفة خاصة فى أجنادين ! وشعر عمر أنهم قد فتنوا بخالد بن الوليد ، فرأى عمر أن يسترعى انتباههم إلى أن النصر قد جاء هو والفتح من عند الله ، لا من عند خالد ، وأن الإيمان العميق الذى يلهب مشاعر المسلمين هو ما يقودهم إلى النصر ، لا عبقرية رجل واحد منهم ، وأن فى وسع جيوش الإسلام أن تنتصر بقيادة رجال آخرين غير خالد . .

ثم إنه رأى أن الانتصارات المدوية ، ونسبتها إلى خالد وحده ربما جعلته يشعر بالامتياز ، والزهو ، والتفوق على الآخرين ، فيحمل فضل عقله على المسلمين ! . . ورأى عمر إلى هذا كله أن المرحلة القادمة من الفتح ، تحتاج إلى الحكمة ، وقوة الورع ، مع البراعة العسكرية . . فلم لا يوفر الحسنيين لجيوش المسلمين ؟ ! . . وها هو ذا أبوعبيدة بكل حكمته وورعه ، فليكن أمير الجيوش جميعا ، يعاونه خالد بن الوليد تحت إمرته ، وليكن قائد أحد الجيوش الإسلامية . . وليتبادل الرجلان مكانيهما ، ليفيد الإسلام بخير ما عند الرجلين .

وكتب الفاروق إلى أبى عبيدة : « أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملناك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذى يحق عليك . لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزل منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف (أى جماعة) من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك ، فأغمض بصرك عن الدنيا ، وألْهِ قلبك عنها ، وأياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيتَ مصارعهم . »

فأخفى أبوعبيدة أمر كتاب عمر عن الجميع . . وأذاع فى الناس حين سألوه أن الخليفة سيرسل لهم مددا عظيما ، ذلك أن المسلمين كانوا يستعدون من ليلتهم تلك لمعركة حاسمة سيخوضونها فى الصباح . . فخشى أبو عبيدة أن يضعفهم الحزن ، إن هم علموا بوفاة أبى بكر ، وأن تتوزع أفكارهم ، إن هم أُخْبِروا بتولى عمر ، وأبوعبيدة يعرف وَجَل الناس من شدة عمر ! . .

ولكنه أخبر خالدا بوفاة أَبى بكر ، وطلب منه أن يجعل الخبر سرا يكتمه فى قلبه ، ولا يبوح به لأحد . . ولم يخبره أبوعبيدة بأن عمر عزله ، لكيلا يفسد عليه حربه منذ الغد .

وفى الصباح دارت المعركة بين المسلمين والروم على ضفاف نهر اليرموك . . وتداخلت الصفوف ، واشتجرت الأسنة ، واضطربت الخيل ، وكان الروم عشرة أضعاف العرب . . وجعل خالد على مؤخرة جيوش الإسلام كتائب من النساء العربيات المسلمات ، فإذا انهزم من المسلمين أحد ، وحاول الفرار ، انقض عليه النساء يُعيِّرنه بجبنه ، ويضربنه بالخشب ، ويرضخنه بالحجارة ، حتى يعود إلى القتال ، فَيَغْلِب أو يستشهد . . !

ولقد أبلى المسلمون بلاء حسنا ، وبرز فيهم الزبير بن العوام ، فكان يقود الكتيبة ، فيخترق صفوف الروم ، فيطيح بفرسانهم من على صهوات الجياد ، ويروى سيفه بدمائهم ، ويعود سالما . واستطاع خالد بن الوليد أن يطوق الروم ، فى خطة محكمة ، واستمر القتال يوما كاملا ، وتحقق النصر للمسلمين أثناء الليل ، وغنم المسلمون مغانم عظيمة ، وكثيرا من السبايا الروميات من المقاتلات الشقراوات ، اللواتى سماهن العرب : بنات الأصفر !

وعجب الناس لهزيمة الروم أمام العرب هذه الهزيمة المنكرة ! فقد كان الروم كالفرس هم سادة الدنيا حينئذ ! !

وجمع هرقل قواد الروم فقال لهم : « ويلكم . أخبرونى من هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ؟ أليسوا بشرا مثلكم ؟ ! » قالوا : « بلى » قال : « فأنتم أكثر أم هم ؟ ! » قالوا : « بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن . » قال : « فما بالكم تنهزمون ؟ ! » فقال شيخ ورع من كبارهم : « من أجل أنهم يوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم (أى ينصف بعضهم

بعضا) ، ومن أجل أننا نركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغتصب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض . » فقال هرقل : « أنت صدقتنى » .

* * *

وغداة ليلة النصر فى اليرموك أبلغ أبوعبيدة بن الجراح خالدا ما أمره به عمر . فسكت خالد طويلا ثم قال : « يرحمك الله ! ما منعك أن تعلمنى الأمر حين جاءك ؟ » قال : « إنى كرهت أن أكسر عليك حربك . وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ، وما نرى سيصير إلى زوال وانقطاع . وإنما نحن أَخَوَان ، وما يضر الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه . »

وتعاون الرجلان ولم يلق أحدهما من أخيه إلا ما يحب ، فخالد يعرف فضل أبى عبيدة ، ومكانته عند الرسول والصحابة ، وأبوعبيدة يحسن تقدير مواهب خالد ومزاياه الحربية . .

فتح الله على المسلمين كثيرا من البلاد التى خضعت لحكم دولة الفرس ودولة الروم ، وصالح المسلمون بعض هذه البلاد على الجزية ، وبعضها فتحوها عنوة ، وغنموا منها مغانم عظيمة ، فأرسلوا الأخماس إلى عمر فى المدينة ، وكانت الأخماس أموالا طائلة ، وسبيا كثيرا .

وأرسل عمال الأمصار بأموال أخرى ضخمة ، فلم يصدق الناس أنفسهم ، ورأى عمر أن يبحث عن نظام آخر غير وضع الأموال فى المسجد فى حراسة بعض الصحابة الأشداء ، ثم توزيعها على الناس كلما تدفقت ، حتى يفرغ منها . . وكان للمسلمين خزانة عامة هى بيت المال ، ولكنها كانت لا تحتفظ بالمال الا لتوزعه فور وصوله .

قدم أبو هريرة من البحرين ، وكان عاملا عليها ، فسأله عمر عن الناس ، وقال له : « ماذا جئت به ؟ » قال أبوهريرة : « بثمانمائة ألف درهم . » وعجب عمر ، فكرر السؤال على أبى هريرة ، فقد حسبه أخطأ فى الحساب ، ولكن أبا هريرة قال : « ثمانمائة ألف درهم ، يا أمير المؤمنين ! » قال عمر : « إنك

ناعس ، فاذهب إلى أهلك ، فنم ، فإذا أصبحت فائتنى » ، وفى الصباح أتاه أبوهريرة مؤكدا . .

وإذن فما العمل بهذا المال الكثير الذى يتدفق من كل مكان ؟ !

لم ينم عمر ليلته ، حتى إذا نودى لصلاة الفجر قالت له امرأته : « يا أمير المؤمنين ما نمت الليلة ! بت ليلتك أرقا ! » قال : « كيف أنام وقد جاء الناس ما لم يكن جاءهم مثله منذ كان الإسلام ؟ فكيف لو هلكتُ ولم أضع ذلك المال فى حقه ؟ »

فلما صلى الصبح بالناس ، ارتقى المنبر ، فقال : « أيها الناس . أما بعد ، فإنه قدم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعده لكم عدا ، وإن شئتم أن نكيله لك كيلا . »

فوثب رجل فقال : « يا أمير المؤمنين إنى رأيت هؤلاء الأعاجم يُدَوِّنون ديوانا يعطون الناس عليه . »

والديوان كلمة معربة عن الفارسية وهى تعنى المكان الذى تُجمع فيه الصحف أى الأوراق التى يكتب فيها من فُرض له العطاء أى الراتب ومقدار هذا العطاء . فالديوان إذن هو المكان الذى تسجل فيه أسماء مستحقى العطاء ، ومقدار العطاء ، ويجلس فيه من تستخدمهم الدولة للقيام على هذه السجلات ، وحفظها . . وما كانت العرب تعرف هذه الدواوين ، وإن عرفتها دولة الفرس ودولة الرومان .

وسأل الفاروق الناس رأيهم فى تدوين الديوان ، فقال له على بن أبى طالب : « تقسم كل سنة ما اجتمع لك من مال ، ولا تبقى منه شيئا . » وقال عثمان بن عفان : « أرى مالا كثيرا يسع الناس ، وإن لم يُحْصَوْا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، خشيت أن يفسد الأمر . » فقال له الوليد بن هشام : « يا أمير المؤمنين ، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنودا ، فَدَوِّنْ ديوانا ، وجَنِّدْ جنودا . »

واتفق الناس جميعا على تدوين الديوان ، إلا رجلا من أشراف قريش ، قال : « يا أمير المؤمنين ، إن قريشا أهل تجارة ، ومتى فرضت لهم عطاء (راتبا)

تركوا تجارتهم ، فيأتى بعدك من يحبس عنهم العطاء ، فتكون التجارة قد خرجت من أيديهم ! »

ولكن عمر رأى فى تدوين الديوان مصلحة للمسلمين . . والعطاء الثابت يجب ألا يصرفهم عن العمل ، بل إن الفاروق ليغريهم بالعمل ، فيقول : « من كان له مال فليُصْلِحْه (أى فليستثمره) ، ومن كانت له أرض فليعمرها ، من عَمَّرَ أرضا فهى له ، فإن حبسها ثلاث سنوات دون أن يعمرها أُخذت منه . » وقال لهم : « غدا سيكون لكم أبناء وحَفَدَة ، فماذا يغنى عنكم هذا الذى بأيديكم . » . . ثم إنه خصص مراعى بلا مقابل لمن يريد أن يربى الأنعام .

وكان بلال بن رباح من أحب الصحابة إلى عمر ، وأعزّهم عليه ، وأكرمهم لديه ، وما ذكر بلالا قط إلا قال عنه : « سيدنا بلال » . ولكن بلالا ترك أرضا له بالعقيق (خارج المدينة المنورة حينئذ) ، فلا هو استزرعها وعمرّها ، ولا ترك غيره يستصلحها . فقال له عمر : « إن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحجز عن الناس ! فخذ ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقى . »

(الأحكام السلطانية للماوردى)

* * *

لما صح عزم الفاروق على تدوين الديوان ، دعا إليه عقيل بن أبى طالب ، واثنين معه ، وهم أعلم الناس بالأنساب ، فقال لهم : « اكتبوا الناس على قدر منازلهم . (جمع منزلة) . »

فكتبوا بنى هاشم أول الناس ، وسجلوا من بعدهم بنى تَيْم قبيلة أبى بكر ، ثم بنى عَدِىّ قبيلة عمر . .

فقال لهم عمر : « وددت والله لو أنه هكذا ! ولكن ابدأوا بقرابة رسول الله ﷺ ، الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله . »

فجاء اليه روءساء بنى عدى عاتبين ، قالوا : « أنت خليفة خليفة رسول الله ﷺ ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم ! » .

فأجابهم مغضبا : « بخ بخ بنى عدى ! أردتم الأكل على ظهرى وأن أُذْهِب حسناتى من أجلكم ! لا والله . . إن لى صاحبين سلكا طريقا ، فإن خالفتهما خُولفَ بى ، والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا ولا نرجو ما نرجو فى الآخرة من ثواب الله على ما عملنا إلا بمحمد ﷺ ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ، ثم الأقرب فالأقرب . »

وفرض لكل الناس : فبدأ بالعباس بن عبد المطلب عم النبى ففضله على كل الناس ، ثم بأزواج النبى ، ففضل عليهن عائشة ، لمكانتها عند رسول الله ، ولكنها طالبته بالتسوية مع غيرها من نساء النبى ، فقد كان الرسول يسوى بينهن .

ثم فرض لأهل بدر ، ثم لكل من هاجر قبل الفتح ، ولكل من يُظِلُّه الإسلام ، حتى لم يدع أحدا من الناس إلا فرض له عطاء .

وجاءه قاتل أخيه زيد ، وكان قاتل أخيه قد تاب من ردته ، فلما رآه عمر قال له : « لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! » قال الرجل : « أهذا يحرمنى العطاء يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « لا . فلا تبال ، فما يأسى على الحب إلا النساء ! » .

على أن عمر زاد بعض الرجال والنساء عن أقرانهم ، كعمر بن أبى سلمة وهو ابن أم المؤمنين أم سلمة . وسئل عمر فى ذلك فقال : « أفضله لمكانه من النبى ، فليأتنى الذى يستعصب (أى ينتسب) بأم مثل أم سلمة . »

وجاء ابنه الصحابى عبد الله بن عمر فقال له : « يا أمير المؤمنين ، فرضت لى ثلاثة آلاف ولأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وقد شهدت مالم يشهد أسامة ! » قال : « زدته عليك لأنه كان أحب إلى رسول الله منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك . »

وسَرّ العطاء نفرا من المسلمين ، إذ تقاضوا أموالا لم يتخيلوا من قبل أنهم يتقاضونها ، فجاءوا إلى عمر يحمدون الله اليه ، ويثنون عليه ، فقالوا : « والله ما رأينا رجل أقضى بالقسط (العدل) ، ولا أَقْوَلَ بالحق ، ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين ! فأنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ . » فقال أحد الجالسين مع عمر : « كذبتم والله ، لقد رأيت بعد رسول الله ﷺ . » قالوا : « من هو؟ » قال : « أبوبكر » فقال عمر : « صدق صاحبى وكذبتم ! والله لقد كان

أبوبكر أطيب من ريح المسك ، وأنا أضل من بعير أهلى ! ولقد سبقنى إلى الإسلام بست سنين ! » .

ورأى عمر رجلا يبدى الزهد فى العطاء ، وقد نكّس رأسه ، فقال له : « يا هذا ، من أظهر للناس خشوعا فوق ما فى القلب فإنما أظهر للناس نفاقا . »

والتفت إلى جلسائه ، وقال : « لا تنظروا إلى صلاة امرىء ولا إلى صيامه ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث ، وإلى ورعه إذا أقبلت عليه الدنيا . » فقال أحد جلسائه عن الرجل الذى أبدى الزهد فى العطاء ، ومشى مُنَكَّس الرأس : « إنه لا يعرف الشر يا أمير المؤمنين . » قال : « فذلك أحرى بأن يقع فيه ! » .

* * *

ومضى عمر كدأبه يذرع طرقات المدينة نهارا ، يتفقد أحوال الناس ، فسمع صوت بكاء فى بيت ، فدخل ومعه غيره ، فمال على الباكين والباكيات ضربا ، حتى بلغ النائحة ، فسقط عنها خمارها . قال عمر : « اضرب ، فانها نائحة لا حرمة لها ، إنها تبكى لتزيد أحزانكم ! إنما تريق دموعها على أخذ دراهمكم ! إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم ، وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر الذى أمر الله به ، وتأمر بالجزع الذى نهى الله عنه . »

ولما كثرت الأموال ، وظهر الثراء ، غالت النساء فى مهورهن ، حتى اشتكى بعض الرجال ، فوقف عمر على منبر المسجد ، بعد أن فرغ من صلاة الظهر ، وقال : « أيها الناس ، ما إكثاركم فى صدقات النساء (المهر) ؟ لقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه يقللون ! وإنما الصدقات ما بين اربعمائة درهم فما دون ذلك . لو كان الإكثار فى ذلك تقوى أو مَكْرُمَة لم تسبقوهم اليها ! فلا يزيدَنّ رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم . » . . فاعترضته امرأة ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، أو ما سمعت الله تعالى يقول :

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا .)

قال : « اللهم اغفر لى ! كل الناس أفقه منك يا عمر ! أخطأ أمير المؤمنين وأصابت امرأة ! أيها الناس ، إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم . فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت نفسه فليفعل . »

وكان عمر لا ينظر إلى ظواهر الناس ، فمن المظهر ما يخدع .

سأل عمر رجالا حوله : « من أفضل الناس ؟ » قالوا : « المصلّون » قال : « إن المصلِّى يكون بَرًّا وفاجرا ! » قالوا : « الصائمون » قال : « الصائم يكون بَرًّا وفاجرا ! » قالوا : « المجاهدون فى سبيل الله » قال : « المجاهد يكون بَرًّا وفاجرا . إنما أفضل الناس هو الوِرَعُ فى دين الله الذى يستكمل طاعة الله عز وجل . »

وكان يقول : « ما أخاف عليكم أحد رجلين : مؤمن قد تبين إيمانه ، وكافر قد تبين كفره ! إنما أخاف عليكم منافقا يُظهر الإيمان ويعمل بغيره . » وكان يقول : « إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاثة : منافق يقرأ القرآن لا يخطىء منه حرفا ، يجادل الناس بأنه أعلم منهم لِيُضِلّهم عن الهدى ، وزلة عالم ، وأئمة مُضَلِّلون . »

وكان يقول : « يهدم الإسلام زلة عالم ، وجدال منافق . »

* * *

وسَنَّ عمر مع عماله سنة جديدة : فهو حين يولى أحدهم يكتب ما عنده من مال ، ثم يراقبه ، فإن زاد مِلْكُه عزله وشاطره ماله ، وجعل نصف الزيادة لبيت المال . ولقد كتب إلى أمراء البلاد كتابا واحدا : « حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة ، فإنه من حاسب نفسه فى الرخاء قبل الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة ، ومن أَلْهَتْهُ حياته ، وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة ، فتذكر ما توعظ به ، لكيما تنتهى عما تنهى عنه ، وتكون عند التذكرة من أولى النهى . »

وكتب إلى أبى عبيدة وهو على جند الإسلام بالشام : « الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتحظ بأفضل حظك : إذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول والأيمان القاطعة ، ثم أَدْنِ الضعيف حتى ينبسط لسانه ويجترىء قلبه ،

وتعاهد الغريب فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف إلى أهله ، واحرص على الصلح مالم يبن لك القضاء والسلام . »

وأهداه رجل فخذ بعير ، وكرر الهدية ، حتى كان ذات يوم ، فجاء إلى عمر ومعه خصم له وقال : « يا أمير المؤمنين ، اقض قضاء فصلا كما يُفْصَل الفخذ من سائر الجزور (أى البعير) » قال عمر : « فما زال الرجل يرددها عَلَىّ ، حتى خفت على نفسى ! » وقضى عليه عمر ، ثم قام من فوره فكتب إلى أمراء البلاد كتابا واحدا : « إياكم والهدايا ، فإنها من الرشا (جمع رشوة) » .

وأراد عمر أن يسأل زيد بن ثابت عن أمر ، وكان زيد أعلم الأنصار بالقرآن ، وفوجىء زيد بن ثابت ذات صباح بعمر بن الخطاب يزوره فى داره ، وجارية له تُرجِّل شعره ، فنزع زيد رأسه من يد الجارية ، وأقبل على عمر ، فقال عمر : « دعها تُرِجِّلَ شعرك ! » قال زيد : « يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ جئتك . » قال عمر : « إنما الحاجة لى » .

* * *

ولقد عرف عمر ما لم يكن يستطيع أن يعرف من أحوال مجتمع المدينة ، ذلك أنه كان يطوف بالمدينة تحت جنح الليل ، والناس نيام ، فأتاح له هذا أن يكتشف أحوالا وأسرارا يخفيها النهار ، فلما عرف غَيَّر الأحكام لتلائم الأحوال الجديدة .

خرج عمر ذات ليلة يطوف بالمدينة ، إذ مَرّ بامرأة مغلقة عليها بابها ، وهى تنشد :

« تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى ألا ضجيع ألاعبه »

ثم قالت أبياتا أخرى تعبر عن شوقها ، وورعها ، ثم قالت :
« هان عَلَى عمر وحشتى وغيبة زوجى عَلَىّ ! »

فتوجع عمر ، ثم ذهب مهموما حتى دخل على ابنته حفصة فقالت له : « يا أمير المؤمنين ، ما جاء بك فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ ! » قال : « أى بنية . كم تصبر المرأة على فراق زوجها ؟ » قالت : « أربعة أشهر » .

فأمر عمر بألا يزيد غياب الزوج فى الحرب عن أربعة أشهر .

وسمع ذات ليلة شيخا يشكو وحدته ، فعلم أن له ولدا وحيدا يغزو ، فأمر ألا يغزو أحد يحتاج اليه أبواه ، أو أحدهما ! !

ومن طرائف ما حدث له وهو يطوف بالمدينة ليلا ، أن سمع امرأة تأمر ابنتها بأن تخلط اللبن بالماء ، فقالت لها : « يا أمتاه ، إن أمير المؤمنين أطلق مناديه فنادى ألا يُشَابَ اللبن بالماء . » فقالت الأم : « إننا بموضع لا يرانا فيه عمر ولا منادى عمر . » قالت الصبية : « ما كنت لأطيع أمير المؤمنين فى الملأ ، وأعصيه فى الخلاء ! وهو إن لم يكن يرانا فإن الله يرانا ! »

فأعجب عمر بعقل الصبية وأمانتها ، ولم ينصرف حتى أمر من معه بأن يضع علامة لتلك الدار ، وفى الصباح أرسل عمر من علم بأمر أهل تلك الدار ، فإذا هما فتاة بكر وأمها ، فخطبها لابنه عاصم الذى لم يكن قد تزوج بعد ، فلما تزوجها عاصم بن عمر ولدت له بنتا ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز .

* * *

وذات يوم شديد الحر ، أطل عثمان بن عفان من دار له ، فرأى رجلا يسوق أمامه بعيرين ، والهواء يلفحه ، فأشفق عثمان عليه ، وأرسل غلامه يدعوه ليستظل ، حتى تذهب عنه حمّارة القيظ ، فلما اقترب الرجل ، عرفه عثمان فقال له : « ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟ ! » قال : « بكران من إبل الصدقة تخلفا عن الحمى (المرعى) ، وخشيت أن يضيعا ، فيسألنى الله عنهما . » قال عثمان : « هلم يا أمير المؤمنين إلى الظل والماء وعندنا من يكفيك هذا الأمر . » قال : « عد إلى ظلك ومائك يا عثمان ، فوالله لو تعثرت عنزة بأعلى اليمن لسألنى الله : لماذا لم أُعبِّد لها الطريق ؟ » .

ومضى أمير المؤمنين يسوق البعيرين فى الوهج ، وعثمان يقول : « من أراد أن ينظر إلى القوى الأمين ، فلينظر إلى عمر بن الخطاب ! » .

ورآه علىٌّ يجرى ، فسأله : « إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ ! » قال : « بعير نَدَّ (أفلت) من إبل الصدقة ، فأنا أجرى لألحق به . » قال على : « لقد أتعبت الذين

سيجيئون بعدك ! » قال : « والذى بعث محمدا بالحق ، لو أن دابة هلكت بأقصى أرض المسلمين لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة . »

ولقد أملى عليه حرصه على العدل أن يتدرج فى الجزية المفروضة على أهل الذمة فى البلاد المفتوحة ، وأعفى بها من كان مدينا ، أو من يحارب مع المسلمين . . وجعل على الغنى من أهل الذمة ثمانية وأربعين درهما فى العام ، وعلى الوسط أربعة وعشرين ، وعلى الفقير اثنى عشر درهما ، وقال : « لا يُعْوِزُ رجلا منهم درهم واحد فى الشهر ! »

وكان يعامل أهل الذمة كما يعامل المسلمين : يحنو على ضعيفهم ، ويرعى فقيرهم . . ذات مساء رأى فى إحدى جولاته شيخا كبيرا يتسول ، فسأله عن أمره ، فقال الشيخ : « أنا من أهل الكتاب » قال : « من أى أهل الكتاب أنت ؟ » قال : « يهودى يا أمير المؤمنين » قال : « وما ألجأك إلى هذا ؟ » قال : « الجزية والحاجة والسن » فأمر بإعفاء اليهودى الشيخ من الجزية ، وفرض له سهما من عطاء المساكين . وأرسل إلى عماله فى الآفاق كتابا واحدا : « أنظر إلى هذا وضُرَبَائه (أمثاله) ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته (شبابه) ، ثم نخذله عند الهرم (الشيخوخة) » .

وقد فصل بين الإدارة والقضاء ، فجعل للولاة اختصاصهم الإدارى ، وقد اختارهم جميعا بدقة ، وأجزل لهم العطاء ، لِيَعِفّوا .

وكان يختار عماله من أهل الورع والكفاءة ، متبعا سنة الرسول الذى لعن من ولى على المسلمين رجلا لقرابة أو مودة ، وهو يرى فيهم من هو خير منه ! . ولقد قال عمر : « من ولَّى على الناس فاجرا فهو فاجر مثله ، وعليه إثمه ! » .

على أنه كان يختار الأفضل والأنسب لكل ولاية . ومن أجل ذلك ترك بعض كبار الصحابة ، مثل على وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وولى من هم دونهم ، فلما سئل فى ذلك قال إنه آثر أن يبقيهم إلى جواره فى المدينة ليهتدى بآرائهم ، ثم قال : « لا أُولّى الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ لأنى أكره أن أدنسهم بعمل ! »

غُلِبَتِ الرّومُ

سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ ، عما يفعلون ، إذا نزل بهم أمر ، لم يجدوا له حكما فى القرآن ولا السنة ، قال : « اجمعوا له العالمين . »

وكان أبوبكر إذا لم يجد حكما فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ، خرج إلى الناس فسألهم إن كان لأحدهم علم بسنة للرسول فى الأمر الذى عرض ، وقال : « هل علمتم أن رسول الله ﷺ ، قضى فيه بقضاء ؟ » ، فإن وجد سنة قضى بها ، كما فى ميراث الجدة لأم ، إذ قال لجدة أتت تسأله حقها فى الميراث : « ما أجد لك شيئا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله . » ولكنه لما سأل الناس علم أن الرسول ﷺ قضى لها بالسدس ، فقضى بذلك .

فإن لم يجد أبوبكر ما يقضى به فى الكتاب أو السنة جمع الناس فشاورهم ، فاذا أجمعوا على حكم قضى به .

وكان عمر يفعل ذلك ، فإذا لم يجد حكما فى القرآن أو السنة ، سأل الناس : « هل كان أبوبكر قضى فيه بقضاء ؟ » فإن وجد حكما لأبى بكر فى الأمر قضى به ، وإلا جمع علماء الناس فشاورهم . من ذلك أن جدة لأب طلبت منه ميراثا مع جدة لأم ، ولم يكن يعلم للأمر حكما إلا ما قضى به أبو بكر اتباعا للسنة لجدة واحدة ، فأشرك عمر الجدتين فى السدس .

وكان عمر يشاور فى الأحكام الشرعية أهل العلم وحدهم ، أما فى غير الأحكام الشرعية من أمور الناس ، فقد كان يستشير الناس جميعا : الرجال والنساء ، وكان يدعو الفتيان فيستشيرهم ابتغاء حدة عقولهم .

كان عمر يستشير فقهاء الصحابة لأنه يعرف أنهم فقهوا من صحبة

الرسول ﷺ كتاب الله ، فهم يعرفون معناه ، ويدركون دلالاته جميعا ، وهم يفهمون أقوال الرسول وأفعاله فى العبادات والمعاملات والسياسات وكل أمور الحياة ، فهم أهل فتيا ، وأوثقهم عند عمر هم : أم المؤمنين عائشة ، وأم المؤمنين أم سلمة ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، على الرغم من صغر سنهما بالقياس إلى أكابر الصحابة ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب . . وقد جاء نفر من الصحابة يسألون الفاروق : عن حرصه على الاستئناس برأى عبد الله بن عباس ، وهو بعد شاب ، فنادى عبد الله بن عباس ، وسأل هذا النفر عن معنى السورة : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) ، وسأل : « ولماذا قال تعالى فى هذه السورة لرسوله : (فسبح بحمد ربك واستغفره ؟) » . فكلهم قال إن السورة بشارة بأن الله سيفتح مكة على المسلمين ، وأنه أمر رسوله بأن يحمد ويستغفر شكرا على هذا الفتح . . فلما انتهوا وابن عباس ساكت ، سأله عمر عن رأيه فى معنى السورة ، فقال : « إن الله أخبر رسوله أنه سيقبضه بعد الفتح ، ولهذا أمره بالاستغفار » .

ولقد أصبح عمر ذات يوم فقال لعلماء الناس : « قرأت الليلة آية أسهرتنى وهى : (أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) ، ماعَنَى الله تعالى بقوله هذا ؟ » فقال بعض القوم : « الله أعلم » . قال عمر : « إنى أعلم أن الله أعلم . ولكن إنما سألت إن كان عند أحدكم علم بها وسمع فيها أن يخبرنى بما سمع » . فسكتوا .

وكان فى الناس عبد الله بن عباس ، فخطر له المعنى ، ولكنه تَهَيَّبَ الكلام فيما لم تعرفه هذه المشيخة من علماء الناس . . وشرع يهمس برأيه ، فرآه عمر وهو يهمس ، وعلم أنه يتحرج من الجهر برأيه أمام قوم كلهم فى سن أبيه ، فقال عمر : « قل يا ابن أخى ، ولا تحقر نفسك » قال : « عنى الله تعالى بهذه الآية : العمل » . قال عمر : « صدقت يا ابن أخى ، عنى بها العمل . فابن آدم أفقر ما يكون إلى جنة إذا كبر سنه وكثرت عياله . وابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم القيامة . صدقت يا ابن أخى » .

وأعجب من عاتبوا الفاروق فى أمر ابن عباس ، بتفسير ابن عباس ، فقال لهم عمر إنه من أجل علمه هذا يقربه ، ويستشيره .

وهكذا تعود عمر أن يقر ما يفتى به فقهاء الصحابة ، وإن خالف رأيه ، ومن ذلك أنه لقى رجلا كان يستفتى الصحابة فى حكم ، فسأله عمر : « ما صنعت ؟ » قال : « قضى على بن أبى طالب وزيد بن ثابت بكذا » قال عمر : « لو كنت أنا لقضيت بكذا » . قال : « وما يمنعك والأمر إليك فأنت أمير المؤمنين ؟ » قال عمر : « لو كنت أردُّك إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لفعلت ، ولكنى أردك إلى رأى ، والرأى مشترك . »

وكان الفاروق يوصى الصحابة بقوله : « لا تختلفوا ، فإنكم إن اختلفتم كان الناس من بعدكم أشد خلافا » .

وحين اختلف عبد الله بن مسعود مع أُبَىّ بن كعب حول أحد أحكام الصلاة ، صعد عمر المنبر وقال : « رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ اختلفا ، فعن أى فتياكم يصدر المسلمون ؟ لا أسمع اثنين يختلفان بعد مقامى هذا إلا فعلت وصنعت ! »

وكان الناس حين يختلفون يحتج كل منهم بحديث شريف ، فمن قائل : هذا يُؤَوَّلُ على غير ظاهره ، ومن قائل : هذا منسوخ ، ومن مفسر للحديث باجتهاد ، وصاحبه باجتهاد غيره ، فرأى عمر أن يجمع الأحاديث الشريفة فى كتاب فيه شرح لكل حديث ، وتفصيل لما فيه من أحكام . وظل يفكر فى الأمر شهرا كاملا ، ولكنه عدل عن جمع الأحاديث وأمر بمحو ما كان مكتوبا من السنة وقال الناس : « إنى كنت ذكرت لكم عن كتابة السنن ما علمتم ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا ، فأَكبُّوا عليها ، وتركوا كتاب الله ! وإنى والله لا أَشوبُ كتاب الله بشىء أبدا . »

وتشدد عمر فى قبول الأحاديث ، وألزم رواة الأحاديث الإقلال من الرواية كيلا ينتشر الخطأ أو الكذب على رسول الله ﷺ ، ولكيلا ينشغل الناس عن القرآن . .

وقد نظر الفاروق فى الأمر ، فوجد أن الصديق كان لا يقبل حديثا حتى يتثبت أن اثنين من الصحابة قد سمعاه من الرسول ، فاتبعه الفاروق ، ولم يقبل حديثا مهما تكن ثقته فى الراوية ، حتى يشهد بصحته رجل ثان .

ونهى عمر الصحابة عن الفتيا تأسيسا على حديث رواه واحد فحسب ، بل

كان يجمع فقهاء الصحابة للمشاورة ، فيحاورهم ويحاورونه ، حتى يطمئن قلبه إلى الفتيا . . وكان أكثر المفتين من الصحابة هم عمر نفسه ، وعلى بن أبى طالب ، وكان عمر يعجب بفتاواه واستنباطاته ولا يخفى إعجابه هذا على الناس ، ثم عبد الله بن مسعود ، وعائشة أم المؤمنين ، وزيد ابن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر .

ولما رأى بعض عمر رواة الحديث يكثرون ، أمر بحبسهم لا يبالى بمكانتهم ، ليعتبر الآخرون ويرتدعون ! فقد دعا عبد الله بن مسعود وأبا الدرداء وأبا السعود الانصارى ، فقال لهم : « أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ ! » ثم جبسهم ، وكان قد اشترى بيتا فسيحا جعله سجنا .

وسئل أبو هريرة : « أكنت تُحدِّث هكذا فى حياة عمر ؟ » فقال : « لو حدثت هكذا فى حياته لضربنى وحبسنى ! » .

تعود عمر إذن أن يشاور فقهاء الصحابة فى الأقضية المستحدثة وأحكامها ، وكان يناظرهم حتى يطمئن إلى ما أفتوا به .

ولكن عمر كان أحيانا يُذَكّر بآية من القرآن ، فإذ به يخشع ، وينزل على حكمها ، ويعتذر إلى الله ، ويعلن الناس بأنه أخطأ .

ومن ذلك أن أحد المؤلفة قلوبهم من سادات قريش ، ممن حرمهم ما كانوا يتقاضونه من أموال الزكاة ، لم يعجبه ما قسم له عمر من عطاء ، فقال له فى غلظة : « يا عمر ، ما تعطينا الجَزْل ، ولا تحكم فينا بالعدل ! » وهَمَّ عمر بأن يسطو به حمايةً لهيبة الحكم من تكبر أحد هؤلاء السادة الذين أسلموا كرها بعد الفتح ، ولكن أحد الجالسين صاح : « قال تعالى : (وأعرض عن الجاهلين) ، وهذا من الجاهلين يا أمير المؤمنين . » فكف عمر عن السطو بالرجل ، واستعاذ بالله .

ومن ذلك أنه أمر برجم امرأة ولدت لستة أشهر ، فلما علم على بن أبى طالب ، أسرع إلى عمر فحدثه فيما قضى به على المرأة ، وذكّره بقوله تعالى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) . مع قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) . فعدل عمر عن حكمه ، واعتذر إلى الله منه ، وقال : « لولا علىٌّ لهلك عمر ! » .

ولكن عمر على الرغم من حرصه على الشورى ، كان أحيانا يرى المصلحة فى حكم ما ، فيصر عليه على الرغم من مخالفته لما انتهت إليه الشورى ، بل على الرغم من مخالفته لما قضى به من قبل أبوبكر ، ولما جرت السنة به ، حتى إن خالف فى ذلك ظاهر نصوص القرآن ، إن رأى فى ذلك تحقيقا للمصلحة العامة . . من ذلك ما قضى به فى الطلاق ثلاثا فى كلمة واحدة . . وكان الرسول قد قضى بأنه يقع طلاقا واحدا ، وعلى هذا سار أبوبكر ، وبهذا قضى عمر نفسه أول عهده بالخلافة . والحكمة فى اعتبار مثل هذا الطلاق طلقة واحدة ، هو تمكين الزوج من مراجعة امرأته ، وعدم تسريحها من بيته ، حفاظا على كيان الأسرة واستقرارها .

فلما عرف الرجال السبايا الروميات والفارسيات ، وأصبحن مما ملكت أيمانهم ، طمع بعض الرجال فى الزواج من هؤلاء الأجنبيات ، فاشترطن أن يطلق الزوج زوجته العربية ، لتستأثر الجارية الحسناء بسيدها ، أو لتأمن الزوجة الأجنبية منافسة الضرائر . . . فاستجاب الُرجال إرضاء لمن خلبنهم ، وأسرفوا فى الطلاق ثلاثا بكلمة واحدة .

رأى عمر أن يعاقب هؤلاء الرجال ، إذ وجد فى مسلكهم استهتارا بالزواج ، وعبثا بعقدته وبأمن المرأة وباستقرار العائلة ، فألزم المطلق فى مثل هذا الطلاق بتسريح زوجته ، فجعله ثلاثا ، فلا يحق له مراجعة مطلقته ، حتى تتزوج غيره زواجا صحيحا كاملا ويدخل بها ، فاذا طلقها الزوج الثانى ، وأوفت عدتها ، كان لمطلقها أن يتزوجها زواجا جديدا . . فهو منها كأحد الخطاب ! وقال فى ذلك : « إن الناس استعجلوا أمرا كانت لهم فيه أناة ! »

ولكنه على الرغم من ذلك ، قال فيما بعد : « ليس أذكى من أولاد السرارى ، فقد جمعوا عز العرب وتدبير العجم . »

فالفاروق فى اجتهاده هذا يراعى المصلحة العامة بعد تغير الظروف والأحوال فيأخذ بقاعدة الزجر والتأديب حماية لهذا المجتمع الجديد .

ومن ذلك حكمه فى الزواج أثناء العِدَّة : تزوجت امرأة فى عدتها ، وهذا محرم شرعا ، ورأى علىٌّ أن يفرق بين الزوجين ، فإذا انقضت عدتها ، كان له أن

يتزوجها ، ولكن عمر ضرب الزوج ضربا شديدا ، وفرق بينه وبين الزوجة ، وحرمه منها ، وأفتى بأنها لا تحل له أبدا . .

وهذا حكم فيه زجر وتأديب وعقاب تحريا للمصلحة العامة . .

ولقد حرص عمر على توفير العدل ، وإرساء قواعده ، والمساواة بين الخصوم أمام القضاء ، وكان يأخذ أصحابه بهذا .

اختصم عمر مع أُبيّ بن كعب ، فقال له : « اجعل بينى وبينك حكما » فاختار ابن كعب أن يحتكما إلى زيد بن ثابت ، فذهبا إليه ، فقال عمر : « أتيناك لتحكم بيننا ، وفى بيته يؤتى الحكم » فوسع زيد لعمر ، ثم قال : « أجلس ها هنا يا أمير المؤمنين . » قال عمر : « هذا أول جور فى حكمك ! ولكن أجلس مع خصمى . » وادّعى أُبَىٌّ على عمر ، وقدم البينة على ما ادعى ، فأنكر عمر واستعد لحلف اليمين ، فاليمين على من أنكر ، فقال زيد : « يا أبىّ بن كعب أعفُ أمير المؤمنين من اليمين . » فغضب عمر ، وحلف ، وقال لزيد : « لن تكون قاضيا عادلا حتى يستوى عندك أمير المؤمنين وسائر الناس . »

وفى كل القضايا التى تمس مصالح الأفراد كان عمر يستشير ، ولا يلتزم بالضرورة رأى الكثرة ، بل يلتزم الرأى الذى يقبله عقله ، ويطمئن اليه قلبه ، ولو كان رأى رجل واحد .

من ذلك أن أمرأة غاب عنها زوجها فى الغزو ، فسمع عمر أن أقواما يخوضون فى سيرتها ، فأرسل اليها عمر موعظة ، ووعيدا بعقاب أليم أن عادت إلى اقتراف ما يثير الأقاويل حولها ، فاستولى الرعب على المرأة ، فجاءها المخاض ، فوضعت غلاما ما إن خرج حتى هلك من فوره ، فشاور الفاروق أصحابه فى الأمر ، فقالوا : « والله ما نرى عليك من شىء ! إنما أنت مؤدب ، وما أردت بهذا إلا الخير . » وكان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف من بين الذين رأوا هذا الرأى ، وعلى بن أبى طالب حاضر ، فلم يتكلم ، فسأله عمر : « ما ترى يا أبا الحسن ؟» قال : « يا أمير المؤمنين ، لقد قال هؤلاء ، فإن كان هذا جهد رأيهم فقد قضوا ما عليهم ، وإن كانوا قاربوك (أى جاملوك) فقد غشوك ! أما الإثم فأرجو أن يضعه الله عنك بنيتك وما يعلم منك ، وأما الغلام فقد

والله غرمت . » فقال له : « أنت والله صدقتنى . » وغرم عمر من ماله ومال قبيلته دية الغلام المقتول .

* * *

وقد عرفنا من مزايا عمر ومكارم أخلاقه ، اعترافه بالخطأ بلا حرج ، والندم عليه أمام الناس ، كما قال عن نفسه : « كل الناس أفقه منك يا عمر ! » حين أراد أن يحدد المهور ، فذكرته امرأة وهو على المنبر بقول الله تعالى : (أتيتم إحداهن قنطارا . . .) .

كان يرحب بمن ينبهه إلى الخطأ ويقول : « أحبكم إلىّ من أهدى إلى عيوبى ! » ولكنه كان أحيانا يقسو على نفسه حتى ليتعذب من الندم !

من ذلك أنه أثناء تجواله بالمدينة ذات ليلة ، سمع بكاء طفل ، فتوجه نحوه ، فقال لأمه : « اتقى الله تعالى ، وأحسنى إلى صَبيّك . » ثم مضى ، وبعد قليل سمع بكاء الطفل مرة ثانية ، فتوجه إلى أم الطفل ، وأعاد عليها ما قاله أول مرة ، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الطفل فجاء إلى أمه ، فقال : « ويحك أم سوء ! مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة عن البكاء ؟ » قالت له ، وهى لا تعرفه : « يا عبد الله ! انى أُسْكِته عن الطعام فيأبى ذلك ! » قال : « وكم عمره ؟ » قالت : « كذا وكذا شهرا . » قال : « فلم عجلت بفطامه ؟ ! » قالت : « لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم . »

فلما صلى الصبح ، صعد المنبر وكانت عيناه تدمعان ، وقال : « بؤسا لعمر ! كم قتل من أولاد المسلمين ! »

ثم أمر مناديه فنادى فى الناس : لا تعجلوا بفطام صبيانكم ، فإنا نفرض عطاء لكل مولود فى الإسلام . » وكتب بذلك إلى الأمصار .

كان عمر إذن يشاور فقهاء الصحابة إذا عرضت قضية خاصة لم يجد لها حكما فى القرآن أو السنة ، أما فى القضايا العامة فكان يستشير الناس جميعا ، فيرتقى المنبر بعد الصلاة ، أو يطلق مناديه فى الطرقات والأسواق فينادى : « الصلاة جامعة » ، فيعرف الناس أنهم مدعوون لأمر عظيم .

فاذا اجتمعوا شاور فى الأمر الناس عامة ، فاذا اختلفوا ، أو انتهوا إلى رأى لا يرضيه عرض رأيهم هذا على فقهاء الصحابة فناظرهم ، ثم أمضى ما يرونه .

وكان أحيانا يخشى على نفسه الزهو ، فيكفكف من زهوها فى عنف ، وقد رئى يوما وهو يحمل قربة ، فلما سئل فى ذلك قال لسائله إنه أحب أن يؤدب نفسه . وقد صعد المنبر يوما ، فقال : « كنت فى أحد شعاب مكة أرعى إبل الخطاب ، وكان فظا غليظا ، يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا تعبت . »

فلما نزل قال له ابنه عبد الله : « ما حملك على قولك هذا يا أمير المؤمنين ؟ ! مازدت على أن نقصت نفسك ! » فقال : « إن أباك أعجبته نفسه ، فأحب أن يذلها ! » .

* * *

اتخذ عمر من مسجد رسول الله دارا للحكم ، كما فعل سلفه أبوبكر ، وكما كان رسول الله ﷺ يفعل . والدولة تتسع وتترامى أطرافها عبر الآفاق ، ويطلع الفاتحون على قصور الفرس والروم ، ويشير بعضهم على أمير المؤمنين ، أن يتخذ قصرا للحكم ، ولكنه يأبى . فعرشه هو حصير المسجد ، وتاجه عمامته ، وطيلسانه ثوبه الذى ترصعه الرقع ! !

فلما رأى المسجد يضيق بمن فيه بعد أن انتشر الإسلام ، وتوالت الفتوحات ، وقامت تحت ظلال الإسلام دولة فتية قوية ، فكر فى أن يوسعه ، ولكنه تردد لأن الرسول لم يفعل ، ولا أبوبكر فعلها .

ولكنه قد يذكر أنه سمع رسول الله يقول : « ينبغى أن نزيد فى المسجد » وهكذا اشترى من بيت المال بعض الدور المجاورة للمسجد ، فهدمها ، وزاد فى مساحة المسجد ، ليتسع للمصلين ، وليسع الناس حين يجتمعون . .

وتعهد عمر المسجد ، فرمى على تراب فنائه الحصباء لكيلا يعفر التراب جباه الساجدين . .

وشاهد بعض الناس يلزمون المسجد يتعبدون ، ولا يعملون ، فضربهم قائلا : « هلك المتنطعون ! » .

وكان يسأل كل من يجده فى المسجد بعد الصلاة عن حرفته ، فإن وجده بغير حرفة سقط من عينه ، وحضه على التجارة ، أو إتقان أى عمل .

وخرج من المسجد فلقى رجلا يجلس على قارعة الطريق ، وهو يدعو : « اللهم ارزقنى . اللهم ارزقنى الخير كله . » فضربه عمر بالدرة ، ثم عاد إلى المسجد ثم فخطب الناس ، فقال : « لا يقعدَنّ أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ! وإنما يرزق الله عباده بعضهم من بعض ، فشَمّروا واعملوا . »

وبعد أن زاد عمر من مساحة المسجد وَزَّينه ، أصبح منتدى يلتقى فيه الناس ، ليتسامروا ، وملتقى للتجار يصخبون فيه بعضهم على بعض فى المساومات والصفقات ، حتى لقد كانت أصوات المتحدثين وصخبهم يشغب عليه ، وهو يصرف شئون الدولة . . فأخرج عمر التجار والسمار من المسجد ، وجعل لهم مكانا خاصا خارج المسجد فى الساحة . . وخصص المسجد للعبادة ، والعلم ، والتدارس ، وانتبذ منه ركنا قصيا للنظر فى شئون الحكم .

وكان عمر يقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم حتى فى السوق ، فلما زادت أعباؤه بعد ما انتشر الإسلام ، واتسعت الدولة ، أقام على المدينة قاضيا ، وأقام قضاة على البلاد الأخرى الفتوحة ، ليتفرغ الولاة للإدارة وحدها . .

وقد أوصى عمر القضاة ألا يحكموا بالظاهر ، فإن إخوة يوسف ألقوه فى غيابة الجب ، وجاءوا أباهم عشاء يبكون !

وكان عمر يعظ قضاته بما وقع له من قضايا ، أثبت الأخذ بالظاهر فيها ، أن فى الظواهر ما يخدع !

من ذلك أن أمرأة جميلة جسيمة قوية أحبت شابا يصغرها من الأنصار ، فلما لم يحبها ، ادعت عليه أنه اغتصبها ، وجاءت ببيضة فطرحت صفرتها ، وسكبت البياض على ثوبها ، وبعض جسدها ، وأمسكت بتلابيب الشاب ، وجرته إلى عمر جرا وهى تصرخ : « يا أمير المؤمنين ، هذا الرجل غلبنى على نفسى ، وفضحنى فى أهلى ، وهذا أثر فعاله . » فسأل عمر النساء فى أمرها ، فقلن له : « إن ببدن المرأة وثوبها آثارا من فعل الرجل . »

فَهَمَّ عمر برجم الشاب ، فجعل يستغيث ويقول : « يا أمير المؤمنين ، تَثَبَّتْ فى أمرى يرحمك الله ! فوالله ما أتيت فاحشة ، ولا هممت بها ، ولقد راودتنى هذه المرأة عن نفسى فاعتصمت بالله . »

وكان علىٌّ جالسا مع عمر ، فقال عمر : « يا أبا الحسن ما ترى فى أمرهما ؟ » قال : « أمهلنى يا أمير المؤمنين . » ثم فحص ثوب المرأة وما عليه ، ودعا بماء شديد الغليان ، فصبه على البياض الذى على الثوب ، فجمد ذلك البياض ، ثم أخذه وشمه ، وجعل عمر يشمه ، فعرفا فيه بياض البيض ، فأطلق عمر الشاب ، وزجر المرأة ، فاعترفت ، وحذرها بجلدها حد الافتراء إن هى عادت لمثل ذلك .

ومن ذلك أن فتى أمرد (ليس فى وجهه شعر) ، جميل الوجه كأن وجهه وجه فتاة ، وجُد قتيلا ملقى فى الطريق . فسأل عمر عن أمره واجتهد ، فلم يقف له على خبر ، فشق ذلك عليه ، فقال : « اللهم أظفرنى بقاتله . » حتى إذا مر نحو تسعة أشهر ، وُجِدَ صبى لقيط ملقى على الطريق مكان القتيل ، فلما جاءوا به إلى عمر قال : « ظفرت بدم القتيَل إن شاء الله تعالى . »

فدفع باللقيط إلى امرأة ، وجعل لها نفقة لتقوم بشأنه ، وقال : « إذا وجدت امرأة تقبّله وتضمه إلى صدرها فأعلمينى بمكانها . »

فلما شب اللقيط ، جاءت جارية فقالت للمرأة : « إن سيدتى بعثتنى إليك لتبعثى بالصبى لتراه وترده إليك . » قالت : « نعم ، اذهبى به إليها ، وأنا معك . »

فذهبت بالصبى والمرأة معها ، حتى دخلت على سيدتها ، فلما رأته أخذته فقبلته وضمته إليها . فاذا هى ابنة شيخ من كبار الأنصار ! فأتت المرأة عمر ، فأخبرته ، فأخذ سيفه واتجه إلى منزل الفتاة ، وقد صح عنده أنها آثمة تستحق العقاب ، فوجد أباها الشيخ متكئا على باب داره ، فقال له : « يا فلان ، ما فعلت بابنتك فلانة ؟ » . قال : « جزاها الله خيرا يا أمير المؤمنين ، هى من أعرف الناس بحق أبيها ، مع حسن صلاتها ، والقيام بدينها » . قال عمر : « قد أحببت أن أدخل اليها ، فأزيدها رغبة فى الخير ، وأحثها عليه . »

فدخل أبوها ، ودخل عمر معه . وأمر عمر بأن تبقى الفتاة وحدها معه . .

ثم كشف عمر سيفه ، وكان قد خبأه تحت عباءته ، وقال : « أصدقينى ، وإلا ضربت عنقك . » ففهمت ما يريد . قالت : « على رسلك يا أمير المؤمنين ، والله لأصدقنك ، إن عجوزا كانت تدخل على بعد موت أمى فاتخذتها أما ، وكانت تقوم من أمرى بما تقوم به الوالدة ، وكنت لها بمنزلة البنت ، حتى مضى لذلك حين . ثم إنها قالت يا بنية ، إنه قد عرض لى سفر ، ولى ابنة فى موضع أتخوف عليها فيه أن تضيع ، وقد أحببت أن أضمها اليك حتى أرجع من سفرى ، فَعَمدْت إلى ابن لها شاب أمرد ، فهيأته كهيئة الجارية ، وأتتنى به ، لا أشك فى أنه جارية ، فكان يرى منى ما ترى الجارية من الجارية ، حتى اغتفلنى يوما وأنا نائمة فما شعرت حتى خالطنى ، فمددت يدى إلى شفرة كانت إلى جانبى فقتلته ، ثم أمرت به فألقى حيث رأيت ، فاشتملت منه على هذا الصبى ، فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه . فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك . » قال : « صدقت » ثم أوصاها ، ودعا لها وخرج .

وقال لأبيها : « نعمت الإبنة إبنتك ! »

ثم انصرف

ومن ذلك أن امرأة أقرت على نفسها ، فسألها عمر مرة ثانية . فأقرت . فسألها عن ذلك ، فقالت : « نعم يا أمير المؤمنين » . فقال له على : « إنها لتستهل استهلال من لا يعرف إنه حرام ! فادرأ عنها الحد » . فدرأه عنها .

ومن ذلك أن شابا من الأنصار خاصم أمه إلى عمر ، وجاءت بنفر فشهد أنها لم تتزوج وأن الفتى كاذب عليها ، وقد قذفها ! فأمر عمر بضربه ، فلقيه على ، فسأله عن أمرهم ، فأحال إليه القضية . فدعا على المرأة والغلام والنفر الذين معها إلى مسجد رسول الله ﷺ ، وقعد للحكم . فقال للفتى : « اجحدها كما جحدتك . » قال الغلام : « يا ابن عم رسول الله ﷺ ، إنها أمى . » قال : « اجحدها وأنا أبوك والحسن والحسين أخواك . » قال : « قد جحدتها وأنكرتها . » فقال على لأولياء المرأة : « أأمرى فى هذه المرأة جائز ؟ » قالوا : « نعم ، وفينا أيضا » فقال على : « أشهد من حضر أنى قد زوجت هذا الفتى من هذه المرأة الغريبة عنه » ، ودعا بمن يأتيه بدراهم ، فأتاه بها ، فعد منها أربعمائة وثمانين ، فدفعها مهرا لها . وقال للفتى : « خذ امرأتك ، ولا تأتنا إلا وعليك أثر العرس . » فوقفت المرأة حتى ينصرف الشاب عنها . .

فلما ذهب الشاب قالت المرأة لعلى : « يا أبا الحسن ! الله الله ! هو والله ابنى ! » .

قال : « وكيف ذلك ؟ » قالت : « إن أباه كان هجينا (أى ابن أَمَة) ، وإن اخوتى زوجونى منه ، فحملت بهذا الغلام ، وخرج غازيا فقُتِل ، فبعثت بهذا إلى حى بنى فلان ، فنشأ فيهم ، وأنفت أن يكون ابنى ! » .

فألحقه على كرم الله وجهه بها ، وأثبت نسبه ، وأقره عمر رضى الله عن على حكمه .

وكانوا لا يحبون أولاد الاماء حتى لقد قال أحدهم : « رب أدخلنى بلادا لا أرى فيها هجينا . »

ومن ذلك اقرار امرأة على نفسها أمامه وأمام على . .

وكان عمر يأنس بعلى ، ويكثر من صحبته ، وكانا على الرغم من فارق السن بينهما صديقين حميمين ، وأخوين متحابين ، يعرف كل واحد منهما قدر الآخر . .

وما زال عمر كلما ذُكِرَ علىٌّ يقول : « علىٌّ أقضانا . » وإذا أشكلت عليه قضية ، ولم يجد عليا ، ولم يطمئن قلبه إلى قضاء فيها ، قال : « قضية ولا أبا الحسن لها . » وكم من مرة قال : « لا أحيانى الله بأرض ليس فيها أبو الحسن ! »

وكان علىٌّ يبادله هذا التقدير . . يروى ما سمعه عن الرسول ﷺ فى فضل عمر . وما زال علىٌّ يقول : « خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبوبكر وعمر . » وكم من مرة قال على : « ما كنا نُبعد أن تكون السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه » (وهو يعنى بالسكينة : الإلهام) .

جاءوا إلى عمر بامرأة جهدها العطش ، فمرت على راع فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ، فشاور فقهاء الصحابة فى رجمها : فقال على : « هذه مضطرة يا أمير المؤمنين ، قال تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) . أرى أن تخلى سبيلها » . ففعل ، ورجم الراعى وحده . (يراجع فى الأقضية السابقة الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية)

* * *

تقدمت جيوش المسلمين تفتح مدن الشام تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح . وبرز فى المعارك خالد وجيشه ، وعمرو بن العاص وجيشه ، ويزيد بن أبى سفيان وجيشه ، وشرحبيل وجيشه ، وكل هؤلاء القواد كانوا يأتمرون بأمر أبى عبيدة ، فهو يضمهم إليه مرة ، ويوزعهم مرة أخرى ، حسبما تقتضيه مصلحة الحرب . .

وكان عمر قد أرسل إلى أبى عبيدة يطالبه بأن يُلزم خالدا ألا ينفق مالا على أحد غير فقراء المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يحذره من إعطاء من لا يستحقون ، من هؤلاء المؤلفة قلوبهم طلاب الثراء وصلات الأمراء . . وكان عمر يعرف فى خالد حب الإنفاق على هؤلاء ، فأرسل يأمره ألا ينفق شيئا إلا بإذنه ، وألا يعجل إلى قتل العدو إن آنس فيهم رغبة فى الصلح وإعطاء الجزية .

ولكن خالدا رد على أمر عمر إليه ردا أغضب عمر ، قال : « إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فدونك عملَك ! »

وإذن فخالد يرفض أن يتدخل أمير المؤمنين فى عمله ، ويهدده بالاستقالة . . لقد كتب هذا الرد نفسه من قبل إلى أبى بكر لما لامه على أمور ، فأشار عمر على أبى بكر بعزله ، ولكنه قال : « ما كنت لأغمد سيفا سله الله على المشركين . » ولكن عمر رأى أنه لن يقوم للدولة نظام إن سمح لأحد برفض رقابة أمير المؤمنين ! فقال عمر : « ما صدقت الله إن كنت نصحت أبابكر بأمر فلم أنفذه ! » .

هكذا عزل خالدا عن القيادة العامة ، وولاها أبوعبيدة بن الجراح . لكنه أوصاه أن يلزمه ، ويشاوره . وأن يجعله قائدا لأحد الجيوش ، وأن يستفيد من مهارته الحربية .

كانت سمعة خالد تسبقه ، فيفر من أمامه الأعداء . . فقد سبقه إلى الشام ما صنعه بالعراق ، وإن قواد الروم فى الشام ليتذاكرون فيما بينهم ما قاله أحد قادة الفرس فى العراق ، فى معركة دومة الجندل حين نصح قومه بأن يوادعوا خالدا ، فرفضوا ، فأنزل بهم خالد هزيمة منكرة . . قال ذلك القائد الفارسى وهو ينصح قومه : « لا أحد أيمن طائرا من خالد ! لا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوه . »

والروم ما زالوا يذكرون بطش الفرس بهم لما غُلِبت الروم فى أدنى الأرض منذ بضع سنين ! ، فشهادة قائد فارسى لها عند الروم وزن كبير .

وهكذا كان بعض الروم فى الشام ينهزمون عن خالد قبل اللقاء ، فرقا من سمعته ! . . روى رجل من صناديد حَرّان فى سوريا « إنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو إلا أن دنونا منهم ، فثاروا فى وجوهنا بالسيوف كأنهم الأُسْد ، فانهزمنا أقبح هزيمة ، وقتلونا شر مقتلة ، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم ، ولقد رأيت رجلا منا كنا نعده بألف قال : لئن رأيت القوم لأقتلن أميرهم . فلما رأى خالدا قيل له ، هذا خالد أمير القوم ، فحمل عليه ، وإنا لنرجو أن يقتل خالدا ، فما هو إلا أن دنا منه ، فضرب خالد فرسه فأقدمه عليه ، ثم استعرض وجهه بالسيف ، فأطار رأسه ! ودخلنا مدينتنا ، فما كان لنا منهم إلا الصلح ، حتى صالحناهم . »

وقد رأى أبوعبيدة أن فى الشام ما فيه الكفاية من جيوش الإسلام ، والقواد الشجعان من أهل النجدة والحذق بفنون الحرب ، وحسب أن جيش الإسلام بالعراق أشد حاجة إلى خالد وجنوده من جيوش الشام ، فأرسل إلى عمر يستأذنه فى أن يوجه خالدا وجيشه إلى العراق مددا للمثنى وجيشه .

ولكن عمر أبى ، وكتب إلى أبى عبيدة : « إنك لا غنى لك عن خالد . »

ذلك أن عمر كان يعرف خبرة خالد بالحرب ، وكان يقدر مهارته وعبقريته ، ولكنه كره منه أمورا خافها على نظام الدولة الجديدة : كره منه رفضه أن يتدخل الخليفة فى عمله ، ذلك أن الخليفة هو الراعى المسئول عن رعيته جميعا .

وكره منه إنفاقه المال على أهل الغنى دون فقراء المهاجرين والأنصار .

وكره منه استقلاله بالإنفاق قبل أن يأذن له الخليفة .

وكره أن يحسب الناس ـ إذ جاء نصر الله والفتح ـ أن قائدا ما هو الذى صنع النصر ، لا الله تعالى . . وما النصر إلا من عند الله ، لا من عند خالد ، كما يجب أن يعرف الناس . .

إن الفاروق ليريد أول الأمر وآخر الأمر أن يكون للدولة نظام ، وأن تكون

للنظام هيبة ! وإذن فالجميع مطالبون بالتزام النظام ، وما يحق لأحد ـ مهما تكن بطولاته ، وفتنة الناس به ـ أن يستقل بعمله عن هذا النظام !

كما كره الفاروق أيضا فتنة الناس ببطولة المثنى بعد انتصاراته على الفرس . ولكن عمر لم يشأ أن يحرم الأمة هذين القائدين العظيمين ، فجعلهما فى الجيش ، ليبذلا فيه ما يستطيعان ، ولكنه لم يجعل لهما الإمارة العامة ، بل جعل أبا عبيد الثقفى أميرا على المثنى فى العراق ، وجعل أبا عبيدة بن الجراح أميرا على خالد فى الشام . .

هكذا ضمن الفاروق الانتفاع بمزايا الرجلين ، وسد باب الفتنة بهما ، ومكن لنظام الدولة ، لكيلا يكون فوق أمير المؤمنين أمير ! .

وإذا كانت انتصارات المسلمين فى أجنادين واليرموك قد ارتبطت بخالد ، فقد ارتبطت انتصاراتهم الأخرى فى الشام بأبطال آخرين : كابن الجراح ، ويزيد ابن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل ، كما ارتبطت انتصاراتهم فى العراق بأبطال آخرين إلى جوار المثنى . .

ولقد حرص عمر على أن يقوى التعاون بين أبى عبيدة بن الجراح وبين خالد ، وبلغ به الحرص فى ذلك مبلغا عظيما . .

* * *

علم أبوعبيدة أن هرقل قد ذهب بعد اليرموك إلى حمص ، يعد جيشا للدفاع عن دمشق ، وأن الروم المنهزمين فى اليرموك قد تجمعوا فى بلد يقال له فحل ، وأنهم يجهزون جيشا كثيفا لضرب المسلمين ، فأرسل أبوعبيدة إلى عمر يسأله بأى المَوْقِعَيْنِ يبدأ : بدمشق أم بفحل ؟ فرد عليه عمر : « أما بعد ، فابدأوا بدمشق ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل (أى بفرسان) تكون إزاءهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق ، فذلك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها (أى يحميها) ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تُغيروا على فحل . فإن فتح الله عليكم ، فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، وضع شرحبيل وعمرو بن العاص بالأردن وفلسطين . »

* * *

لما علم المقاتلون المسلمون ، بعد غزوة اليرموك ، أن أباعبيدة قد أصبح أميرهم بدلا من خالد ، لم يعجبوا ، فقد كان أبوعبيدة أمير الجيوش من قبل ، ولقد ولاه الرسول أمر أول جيش بعثه إلى الشام ، وكان من جنده أبوبكر الصديق ، وعمر الفاروق . .

ولقد تقبل خالد الأمر طيّب النفس ، فهو يعرف فضل أبى عبيدة ، ويعرف أن الرسول ﷺ سماه : أمين الأمة . .

وسار أبوعبيدة بجنده وفيهم خالد إلى دمشق ، وأرسل جيشا إلى فحل ، فأحاط الروم فحلا بالماء ، فحاصرتها الأوحال ، فلا المسلمون استطاعوا التقدم ، ولا الروم استطاعوا إمدادها . .

زحف أبوعبيدة بجيشه وفيه خالد إلى دمشق فوجدوها خلف أسوار ضخمة ، وقد تحصن فيها الجند والناس ، وكان هرقل يراقب الأمور فى حمص ، بين قواده الذين أُمروا بتطويق فحل بالماء ، وبالتحصن خلف أسوار دمشق ، فلا يستطيع العرب أن يدخلوها ، وسيظلون خارج الأسوار ، حتى يأتى الشتاء وهو شديد البرد ، وهم أهل بلاد حارة لم يتعودوا صقيع الشتاء ، فيكسرهم الجليد والريح الباردة دون فحل ودمشق ، ويضطرهم الشتاء إلى فك الحصار ، والعودة إلى بلادهم . . !

ولكن هؤلاء المسلمين ، كانت تضطرم فى الأعماق منهم جذوة إيمان أقوى من الجليد ، ومن عواصف الشتاء ! . كانوا يجاهدون بحرص على الاستشهاد ، لا بحرص على الحياة . . وهم يعلمون أن منازل الشهداء عند الله كمنازل النبيين والصديقين والصالحين . . وهم يعرفون أن دمشق هى بيت مملكة الروم ، ودعامتها .

من الحق أنها ولاية رومانية ، ولكنها كانت أعز ولايات الشرق على الامبراطورية الرومانية الشرقية التى جعلت عاصمتها مدينة القسطنطينية .

ورأى أبوعبيدة بمشورة خالد أن يوزع قواته على أبواب دمشق ، وجعل نفسه على باب منها ، وخالدا على باب آخر ، ويزيد بن أبى سفيان على باب ، كل أمير يقود قوة من الفرسان ، ورماة المنجنيق .

وأمر أبوعبيدة قوات المسلمين أن تدك أسوار دمشق بالمنجنيق ، ولكن الأسوار كانت منيعة ، فلم يؤثر فيها شىء .

ما من سبيل إذن إلا الصبر والمصابرة ، حتى يستسلم الذين هم وراء هذه الأسوار !

وطال الحصار ، وخشى هرقل أن ينفد زاد أهل دمشق ، وزادُ حاميتها المتحصنة وراء أسوارها ، فيضعفوا عن مقاومة المسلمين ، فأرسل هرقل من حمص حيث يقيم جيشا لنجدة دمشق ، وأمر بجيش آخر يتحرك من فلسطين لإمدادهم . فبعث أبوعبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق ، وجندا آخرين فعسكروا بين دمشق وفلسطين ، فقطعوا الإمدادات التى أرسلها هرقل إلى دمشق ، وسدُّوا عليها الطريقين جميعا . .

وجاء الشتاء عنيفا قاسيا بعواصفه وأمطاره ورعوده وجليده ، على نحو لم يعرفه الجند المسلمون فى بلادهم من قبل ، فاحتملوه صبرا واحتسابا فى سبيل الله . .

وقلَّت الأقوات فى دمشق ، حتى انهزم حماتها وأهلها فى أغوار أنفسهم . . . ثم فوجئوا ذات ليلة بخالد بن الوليد ومعه جنده قد تسلقوا الأسوار على سلالم من الحبال ، وأعملوا السيف فى الحامية ، فهرع الناس إلى أبى عبيدة ففتحوا له الباب واستسلموا له طائعين ، وكانوا يعرفون عنه الجنوح إلى السّلْم ، فأعطاهم الأمان ، وصالحوه . . . وكان صلح أهل دمشق على أن يدفعوا فى كلّ عام دينارا جزية على كل رأس وقدرا من القمح والزيت ، على أن يحتفظوا بأموالهم وعقيدتهم وحرياتهم .

فلما أرسل أبوعبيدة نبأ الصلح إلى عمر ، كتب اليه أن يفرق فى الجزية بين الأغنياء والفقراء ، وأن يتدرج بها وفق طاقة كل فرد : من نصف دينار على الفقير إلى أربعة دنانير على الغنى .

وزحف أبوعبيدة وخالد إلى بعلبك ، فطلب أهلها الأمان ، فأمنهم أبوعبيدة وصالحهم .

وواصل المسلمون زحفهم إلى حمص ، وكان هرقل قد تركها ، ولكنه وعد

أهل حمص بأن يمدهم بجيش كثيف يصد عنهم المسلمين . . وحاصر أبوعبيدة وخالد مدينة حمص حتى أقبل الشتاء ، فلقى المسلمون بردا شديدا ، لم يعرفوه من قبل قط حتى فى دمشق ! وتواصى أهل حمص فيما بينهم : « تمسكوا بمدينتكم ، فهؤلاء المسلمون حفاة ، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم . »

ولكن حرارة الايمان اتقدت فى الأبدان ، فشعرت بالدفء ، وصبر المسلمون على البرد ، كما صبروا فى دمشق ، وصدوا عنها الإمدادات ، وتأذى الروم من البرد أكثر مما تأذى المسلمون ، وشح الوقود والطعام وهم تحت الحصار ، فسقطت أقدام بعض الروم من البرد !

فلما طال الحصار ، وأوشك أهل حمص أن يهلكوا صبرا وجوعا ، خرجوا إلى أبى عبيدة يطلبون الأمان والصلح ، فصالحهم على ما صالح عليه أهل دمشق ، من أموال ، وثمرات . . فأرسل أبوعبيدة الأخماس إلى عمر مع عبد الله بن مسعود .

أما فحل التى أقام الروم حولها خندقا عريضا من الأوحال صد عنها جيوش المسلمين ، فقد زحف إليها أبوعبيدة ، وجعل على مقدمة الجيش خالدا . .

لم يقتحمها المسلمون خشية الضياع فى الأوحال ، وانتظروا حتى أتاهم جند الروم ، فقاتلوهم طوال النهار ، فلما جاء الليل ، استدرج المسلمون الروم إلى الأوحال التى كانوا قد جعلوها مكيدة للمسلمين ، فغاصوا فيها إلى الأذقان ، والمسلمون يدفعون برماحهم ونبالهم كل من حاول النجاة . فهلك الروم فى تلك الأوحال ، وكانوا ثمانين ألفا لم يفلت منهم إلا قليل تشردوا فى الأرض ! !

وانطلقت قوات المسلمين تفتح شاطىء الشام ، حتى فتحت بيروت . . وغنمت من كل فتوحاتها مغانم عظيمة ، وسبيا كثيرا . .

ثم بعث أبوعبيدة خالدا إلى قنسرين بعد فتح حمص ، فسير إليه هرقل جيشا ضخما يقوده رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، وكان فارسا جسورا ، واسع الحيلة ، فلما التقى الجمعان خارج المدينة دار بينهما قتال شديد الضرواة ، وقتل خالد قائد الروم ، وأثخن فى الروم ، حتى لقد فقدوا فى تلك المعركة ما لم يفقدوا مثله من قبل قط فى أية معركة ، وزحف خالد إلى قنسرين ، فتحصن أهلها

وحاميتها منه ، فى حصون منيعة ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، فقال لهم خالد : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم ، أو لأنزلكم الينا ! »

وانتظر أهل قنسرين مددا من هرقل ، ولكن خالدا سد جميع الطرق إلى قنسرين ، حتى شح الطعام ، وأخذ المتحصنون يعانون آلام الجوع ، وتناجوا فيما بينهم ، ولا خير فى كثير من نجواهم ، فأرسلوا إلى خالد يسألونه الصلح على شروط صلح أهل حمص ودمشق ، فأبى خالد إلا أن يقتحم المدينة عنوة ، فاقتحمها وأخربها ، وغنم منها مغانم عظيمة وسبيا كثيرا .

فلما أرسل أبوعبيدة خمس الغنائم والسبى إلى عمر ، وأنبأه أفاعيل خالد ، قال عمر معجبا بما صنعه خالد : « يرحم الله أبابكر ، كان أعلم بالرجال منى ! لقد أمّر خالد نفسه ! والله ما عزلته عن ريبة فيه .. »

* * *

عندما كان أبوعبيدة بن الجراح وخالد يفتحان سوريا ، كان المثنى قد عاد إلى العراق ، وبقى ينتظر المدد بقيادة أبى عبيد الثقفى ، وانتظر المثنى نحو شهر حتى جاءه المدد ، وعلم خلال الشهر ، أن الفرس قد شغلتهم عن المسلمين الفاتحين خلافاتهم الداخلية حول السلطة : فقد ثار ابن كسرى بأبيه فقتله ، وجلس على عرشه ، وكان باطشا فاسدا عربيدا ، شديد الحماقة ، فأهان الأمراء ، فعربدوا عليه فقتلوه ، واقتتلوا فيما بينهم على العرش ، وباتوا كلما اعتلى أحدهم العرش تآمر عليه الآخرون ، فقتلوه ، حتى انتهوا إلى بنت كسرى فولّوها ، فلما وجدوها ضعيفة خلعوها وزوجوها رجلا من الحاشية وولوه ، فكبر عليها أن تتزوج بمن كانت تعتبره عبدا لها ، فدست عليه من قتله فى مخدعها ليلة الزفاف قبل أن يدخل بها ، فنهضت ابنة أخرى لكسرى ذات حكمة ودهاء ، فدعت إليها أشجع فارس فى الدولة وهو رستم ، فشق لها بسيفه طريقا إلى العرش ، فلما اعتلت العرش على جماجم منافسيها ، جعلت رستم وزيرا وظهيرا ونصيرا .

وكان للمغيرة بن شعبة علاقة بالبلاط الفارسى ، ومودة برستم فدعاه رستم ليسأله النصيحة .

كان الفرس قد انغمسوا فى الترف ، حتى لكان الرجل منهم يسير مثقلا بما على بدنه وثيابه من ذهب وجواهر ، وكان هذا الترف يشعرهم بأنهم أعلى من العرب الفقراء درجات ، وأنهم من خلق آخر غير العرب !

دخل المغيرة بن شعبة على رستم ، فوجده على سرير واسع من ذهب ، كسرير العرش ، فجلس إلى جواره ، فغضب أعوان رستم ، فانقضوا على المغيرة وجذبوه ليجلس بعيدا عن رستم . فقال المغيرة كاظما غيظه : « لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام (أى أنكم عقلاء) ، ولا أرى أسفه منكم ! إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى (أى نتساوى) ، فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ! . . . إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم . . وإنى لم آتكم من تلقاء نفسى ، ولكن دعوتمونى . . . اليوم علمت أنكم مغلوبون ، فالمُلك لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول ! »

وكانت سيرة المسلمين فى البلاد المفتوحة ، قد شجعت أهل هذه البلاد على مساندة الفاتحين ليحرروهم من غاشية الروم والفرس . . ذلك أن رؤساء الروم والفرس كانوا إذا ادخلوا بجندهم قرية أفسدوها ، وانتهبوها ، وهتكوا حرماتها ، وبطشوا وظلموا ، واستباحوا نساءها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون !

أما المسلمون ، فقد ساروا فى البلاد التى فتحوها بمكارم الأخلاق التى تعلموها من الإسلام : احترموا أهلها ، ورعوا حرماتها ، وساعدوا ضعفاءها ، وعطفوا على فقرائها ، وأقاموا العدل ، والتزموا الإحسان .

وكان أخو القيصر الذى قاد جيوش الروم فى الشام ثم قُتِل فى الحرب ، كان قد سأل رجلا من بعض أحياء العرب الخاضعة لحكم الروم فى شمال الحجاز ، عن هؤلاء المسلمين ما هم ، ولماذا تميل إليهم نفوس رعايا الروم ؟ قال العربى : « هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده . . . » فقال قائد الروم : « لئن كنت صادقا يا أخا العرب ، لَبَطْن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ! »

من أجل ذلك عندما أشعل الدهاقين وهم رؤساء القرى والجماعات فى

العراق ثورة على المسلمين ، أمر المثنى قوات المسلمين ألا تصطدم بالثائرين ، فدخل أجناد الفرس وكبراؤ ها تلك القرى ، ففسقوا فيها ، واستبدوا ، وطغوا فى البلاد ، واكثروا فيها الفساد ، وتمنى سكان قرى العراق لو لم ينقضوا على المسلمين ، وتمنوا لو أن لهم رجعة ، فيكونوا حلفاء مخلصين طيبين !

* * *

أرسل رستم جيشا إلى المسلمين ، فسار إليهم أبوعبيد الثقفى ، وجعل المثنى قائدا للفرسان ، فلما دار القتال انتصر المسلمون ، وأسروا قائد جيش الفرس ، واحتال قائد الفرس على آسره المسلم وقال له : « هل لك أن تؤمننى ، وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى العمل ، وأعطيك كذا وكذا » فأخلى سبيله ، غير أن مسلمين آخرين عرفوه ، فأخذوه إلى أبى عبيد الثقفى ونصحوه بقتله ، فهو أمير جيش الفرس ، ولكن أبا عبيد الثقفى قال لهم : « إنى أخاف الله أن أقتله ، وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون كالجسد الواحد : ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم . » وأطلقه !

وأرسل رستم جيشا آخر فهزمه المسلمون ، وكان أهل العراق يساعدون المسلمين ليتخلصوا من وطأة الحكم الفارسى .

فأرسل جيشا ثالثا ضخما ، وجعل فى الجيش فيلة عسى أن يخافها العرب فيولوا هاربين . .

وحال الماء بين الجيش الإسلامى وجيش الفرس ، فقال قائد الفرس لأبى عبيد الثقفى : « إما أن تعبروا الينا وندعكم تعبرون ، وإما أن تدعونا نعبر اليكم . »

وأشار عليه من معه من الصحابة ألا يعبر وأن يترك الفرس يعبرون ، ولكن الثقفى أبى ، فذكروه أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أمره بألا يعجل ، وأن يشاور الصحابة الذين معه ، ولكنه لم يحفل بهم ! إذ كان يرى نفسه أقدر على القتال ، وحسن تقدير الأمور منهم جميعا ، وقال المثنى : « أيها الأمير ، لا تقطع هذه اللُّجّة فتجعل نفسك ومن معك غرضا لأهل فارس . » فقال له : « جبنت ! »

فعبر إلى الفرس على جسر ، فلما رأت الخيل الفيلة أنكرتها ، وخافتها ، ولم تقدم ، فلا عهد لها بها ، واضطربت خيل المسلمين ، وأحجمت ، فنزل الثقفى عن صهوة جواده ، وأمر فرسانه بأن يترجلوا ويتركوا الخيول ، ووثب هو إلى فيل أبيض يقود الأفيال فقطع رحله ، وقلب راكبه ، وأمر جنده أن يفعلوا مثله ، فما تركوا فيلا إلا قطعوا رحله ، وقتلوا راكبه ، وهجم الفيل الأبيض على أبى عبيد فضربه أبوعبيد بالسيف ، ولكن الفيل ضربه ، فوقع ، وداس عليه الفيل ! . . وهكذا استشهد ، واستشهد معه كل من حمل اللواء بعده ، حتى حمل المثنى اللواء ، وهُزِم المسلمون هزيمة منكرة ، واستشهد منهم أربعة آلاف أكثرهم هلكوا غرقا ، وهرب ألفان ، ولم ينج إلا ثلاثة آلاف يقودهم المثنى ، ذلك أن المثنى لما رأى جيش الإسلام يتساقط رجاله ما بين غريق وقتيل ، قال لعروة بن زيد الخيل الطائى : « انطلق إلى الجسر ، فقف عليه ، وحل بين العجم وبينه . » وثبت المثنى فى بعض الفرسان يقاتل من وراء الناس ، ويحميهم حتى عبروا ، فنجا ثلاثة آلاف مقاتل ، قادهم المثنى بعد أن فشل الفرس فى العبور خلفهم ، وجاءهم نبأ انقضاض بعض الأمراء على رستم ، فعاد قائد الفرس بهم إلى المدائن عاصمة الدولة يراقب الأحداث ، وينظر فى أمره أى الحزبين ينصر : حزب رستم أم حزب عدوه !

وكتب المثنى إلى أمير المؤمنين مع عروة بن زيد الخيل ، فبكى عمر على الشهداء أحر بكاء ، وَامَضّه نبأ الهزيمة ، وقال لعروة : « مرهم أن يقيموا بمكانهم الذى هم فيه ، فإن المدد وارد اليهم سريعا » .

أما الذين فروا ، فقد ساحوا فى أحياء العرب مجانين من الغيظ ، متزايلين من وطأة عار الفرار ! . . وأخذ الناس يعيرونهم بالفرار وهم يبكون !

فتذكر عمر غزوة مؤتة فى زمن الرسول : حين أرسل عليه الصلاة والسلام ، زيد بن حارثة فى آلاف قليلة إلى الشام ، فسار إليهم هرقل فى مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من حلفائه من العرب المستعربة ، فلما التقى الجمعان عند قرية مؤتة ، استشهد زيد بن حارثة براية رسول الله ، فحمل الراية من بعده جعفر بن أبى طالب ، فلما قتل أخذ الراية عبد الله بن رواحه ، فلما لحق بالشهداء ، أخذ الراية خالد بن الوليد ، فلم يحارب ، بل جعل همه أن ينجو بالذين بقوا أحياء من جند المسلمين ، ونجا بهم ، فلما أتوا المدينة ، جعل الناس يَحْثُون عليهم

التراب : ويقولون لهم : « يا فُرّار ! يا فُرّار » وهم يبكون ، فقال الرسول ﷺ : « أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين . » يشير بذلك إلى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) » . ومعنى (متحرفا لقتال أى مظهرا الفرار خدعة للعدو ثم يكر عليه) . ومعنى (متحيزا إلى فئة أى منحازا ومنضما إلى جماعة يعاونهم ويعاونونه ، وإن انضم إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم يعتبر متحيزا إلى فئة) .

تذكر عمر قول الله تعالى ، وكلام الرسول لمن فروا إليه من مؤتة ، فقال : « اللهم إن كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم . يرحم الله أبا عبيد ! لو كان انحاز إلىّ لكنت له فئة . »

* * *

وأمد عمر جيش المثنى بجيش كبير . وكان ممن استنفرهم فرسان قبيلة بنى بجيلة ، وهم أهل شجاعة ، فجاءوا إليه يقودهم جرير بن عبد الله البجلى ، فقالوا لعمر : « لا نكون إلا بالشام . » فوعدهم عمر بعطاء خاص ، فأجابوه ، وسَيّرهم إلى المثنى بالعراق ، وأرسل المثنى إلى منْ بالعراق من العرب ، فاستثار فيهم النخوة العربية ، فتوافوا اليه أرتالا ، وكانوا نصارى ، فقالوا : « نقاتل مع قومنا العرب لا مع الفرس ! »

وعلم رستم وحزبه أن العرب قد توافوا على المثنى ، فسير رستم جيشا ضخما إليهم ، يقوده مهران ، وهو من أعظم مقاتلى الفرس . . وكان الجمعان على ضفتى الفرات ، كل على ضفة ، فأرسل مهران إلى المثنى : « إما أن تعبر إلينا ، وإما أن نعبر إليك . » فرد المثنى : « اعبروا أنتم إلينا » ، فعبر مهران ، واصطف جنده فى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل . وكان الوقت رمضان ، فأمر المثنى جنده بالإفطار ، ليقووا على القتال ، فأفطروا ، وارتفعت من الفرس صيْحات غريبة عجب لها المسلمون ، فقال المثنى : « الزموا أنتم الصمت ، فإن الذى تسمعون فشل » .

وبدأ القتال ، وفى الساعات الأولى من المعركة ، قتل قائد الفرس مهران ، قتله غلام نصرانى من عرب العراق ، فمنحه المثنى فرسه وسلبه . .

واشتد القتال ، فانهزم الفرس ، فطوقهم المثنى وحال بينهم وبين التقهقر إلى الجسر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وطارد فلولهم ، وتوغل فى الأرض ، فغنم المسلمون كثيرا من الأموال ، والسبى ، والأنعام ، واستولوا على أرض واسعة . وعبر المثنى بقواته الفرات ، وغزا ما بين الفرات ودجلة ، حتى وصل إلى شاطىء دجلة .

وهكذا ثأر المسلمون لهزيمتهم فى معركة الجسر التى قتل فيها قائدهم أبوعبيدة الثقفى .

فلما توالت الهزائم على الفرس ، اجتمع امراؤ هم واتفقوا على أن خلافهم قد أوهن الدولة ، وأطمع فيهم العدو ، فاتفقوا على تولية واحد من نسل كسرى ، لا ينازعه على الملك أحد ، فولوا يزدجرد وهو ابن شهريار من أولاد كسرى ، وتعاهد الجميع على طاعته . فلما علم المثنى بذلك أرسل إلى عمر ، فقال : « والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب . » وكتب إلى عماله على العرب ، ألا يدّعوا من له قوة على القتال ، أو رأى ، أو حكمة ، أو فرس ، أو سلاح إلا وجهوه اليه .

ولم يدَع عمر أحدا إلا استشاره فى الخروج بنفسه لغزو الفرس ، قال له عامة الناس جميعا : « سر ، وسر بنا معك » قال : « أعدّوا واستعدوا ، فإنى سائر إلا أن يجىء وجه أمثل . »

وركب عمر فى الجيوش ، وخلف على بن أبى طالب على المدينة ، واستصحب معه عددا من كبار الصحابة ، حتى نزلوا بماء خارج المدينة ، فعسكروا فيه ، فأرسل إلى على ، وعقد مجلس مشورة من كبار الصحابة الذين معه ، فقال لهم : « احضرونى الرأى فإنى حائر ! » فقال عبد الرحمن بن عوف : « إنى أخشى إن كسرت أن يضعف المسلمون فى سائر أقطار الأرض ، وإنى أرى أن تبعث رجلا وترجع أنت المدينة . »

وأشار عليه آخرون من كبار الصحابة : أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ، « فإن كان الذى تشتهى من الفتح فذلك ما تريد وما نريد ، وإلا ندبت جندا آخر حتى تغيظ به العدو . »

وأقبل من المدينة على بن أبى طالب ، فسأله عمر : « وما تقول

يا أبا الحسن ؟ » قال على : « إنك إن شخصت من هذه الأرض ، انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى تكون ما تدع وراءك أهم إليك مما أمامك ! وإن العجم إذا رأوك عيانا قالوا : هذا ملك العرب كلها ، فكان أشد لقتالهم ، وإنا لم نقاتل الناس منذ عهد نبينا ﷺ ولا بعده بالكثرة » .

فوقف فى الجند ، فقال : « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم ، وأن أبعث رجلا » .

ولكن من الرجل !؟

قال عمر : « فمن الرجل ؟ » قال عبد الرحمن بن عوف : « لقد وجدته » .
قال عمر : « ومن هو ؟ » قال عبد الرحمن : « الأسد : سعد بن أبى وقاص ! » .

ووافق عمر ، فأرسل إلى سعد ، فجعله أميرا على العراق ، وجهزه بجند كثيف ، وأوصاه بقوله : « يا سعد ، لا يغرنّك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه ، فإن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكن يمحو السيىء بالحسن ، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت عليه رسول الله ﷺ منذ أن بعث إلى أن فارقنا ، فالزمه . . . هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين » .

ولما تجهز سعد للرحيل ، قال له عمر وهو يودعه : « يا سعد ، إنك ستقدم على أمر شديد ، فالصبر الصبر على ما أصابك ونابك . . . وأعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . لا تزهد من التحبب إلى الناس ، فإن النبيين قد سألوا الله محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا حَبَّبه ، وإذا أبغض عبدا بغّضه . فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس » .

وأرسل عمر إلى المثنى أن يعمل تحت إمرة سعد .

ثم سار سعد بالجيش إلى العراق ، ورجع عمر ومن معه من كبار الصحابة إلى المدينة .

زحف سعد بن أبى وقاص فى نحو أربعة آلاف مقاتل ، وأمده عمر قبل أن يدخل أرض العراق ، بألفين من اليمن ، وألفين من نجد ، وكان المثنى ينتظره فى ثمانية آلاف آخرين .

وخلال سير الجيش انضم إلى سعد كثير من قبائل العرب ، فبلغ جيشه نحو ثلاثين ألفا ، دخل بهم القادسية ، حيث حسب أن المثنى ينتظره ، ولكنه وجد المثنى قد مات من جراحه فى موقعة الجسر ! وأحزنه ذلك ، وأحزن الجيش كله .

وأقام سعد بالقادسية شهرا ، فلم يجىء إليه أحد من الفرس !

كان يزدجرد ملك الفرس الجديد يعد له أضخم جيش جهزته الفرس ، بقيادة رستم أعظم أبطالهم ، ولقد حاول رستم أن يعتذر أكثر من مرة ، ولكن الملك أصر .

كتب سعد بن أبى وقاص إلى الخليفة بأمر هذا الجيش ، فكتب إليه : « لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، استعن بالله ، وتوكل عليه ، أبعث إلى ملكهم رجالا من أهل المناظرة ، والجدل يدعونه ، فإن الله تعالى جاعل دعاءهم توهينا لهم » .

فأرسل سعد دعاته إلى يزدجرد ، فقدموا عليه ، فجمع كبراء الدولة وفيهم رستم ، وأحضر الترجمان ، وقال له : « سلهم ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا ، والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟! » فقال أحد مبعوثى سعد : « إن الله رحمنا ، فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة ، وباعده عنه فرقة ، ثم أمر أن يدعو من خالفنا من العرب فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره ، وطائع . فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا فيه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا . . وهو يُحسّن الحسن ، ويقبّح القبيح ، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه : الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة (الحرب) ، وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم . وإن بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » .

فقال الملك يزدجرد : « إنى لا أعلم أمة فى الأرض أشقى ولا أقل عددا ،

ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوننا أمركم ، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس ، فإن دفعكم إلينا الجهد (يعنى الفقر) فرضنا لكم قوتا ، وأكرمناكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » . فذهل القوم مما قاله ملك الفرس ، وسكتوا ، وبعد قليل قال أحدهم : « يا ملك الفرس . إننا رءوس العرب ووجوههم ، والأشراف يستحيون من الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمت أنت به أجابوك عليه ! وأما ما ذكرت من سوء الحال ، فهى على وصفت أو أشد . . ثم أرسل الله إلينا رسولا يأمرنا بالخير ، فدخلنا فى دين الله كافة ، ثم أمرنا أن ندعو من يلينا من الأمم إلى الإنصاف ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت السيف ، أو تسلم فتسلم » .

فقال الملك : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم . . لا شىء لكم عندى ! » .

ثم أمر بحمل ثقيل من التراب فقال لرجاله : « احملوه على أشرف هؤلاء العرب ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب مدينتى ! وأما أنتم أيها العرب ، فأعلموه إنى مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفن دينكم معكم فى خندق القادسية . ثم أورد بلادكم فأشغلكم عن أنفسكم بأشد مما نالكم فى معركة الجسر » .

فقام أحد العرب ، فقال : « أنا أشرفهم ، فحملونى التراب » . وحمله عن إخوانه ، وقام فركب راحلته ، وحمل التراب على رأسه ، فلما وصل إلى سعد ابن أبى وقاص قال له : « أبشر ، فقد والله أعطانا الله مفاتيح ملكهم » .

وقال الملك يزدجرد لرستم : « ما كنت أحسب أن فى العرب مثل هؤلاء ! ولقد صدقنى القوم : لقد وعدوا أمرا ليدركُنّه أو ليموتُنّ عليه . على أنى وجدت أفضلهم أَحْمَقَهم حيث حمل التراب على رأسه ! » فقال رستم : « أيها الملك ، إنه أعقلهم ! » .

* * *

وعلم عمر أن سعدا وجنده ما زالوا فى القادسية ينتظرون . . وخرج إلى طريق القوافل ينتظر كتابا من سعد .

وتعود أن يخرج إلى ظاهر المدينة حيث طريق القوافل ، فيسأل الركبان ، عن خبر القادسية !!

ومن يسأل الركبان عن كل غائب فـلابـد أن يلقى بشيـرا ونـاعيـا

لا أخبار بعد من العراق !

ثم جاءه البشير من الشام : غُلِبَتْ الرُّومُ !

فالعرب بقيادة أبى عبيدة وبفضل مهارة خالد الحربية قد فتحوا كل بلاد الشام : حلب ، وحماة ، وأنطاكية ، وبيسان ، وطبرية ، وغزة ، وغيرها من البلاد الخاضعة للروم ، ولم يبق إلا بيت المقدس .

فأخذ عمر يمشى على طريق العراق ميلين أو ثلاثة كل يوم ، وينتظر حتى يقترب الظهر ، فلا يطلع عليه راكب من جهة العراق إلا سأله ! . . ما خطب العراق ؟ وما نبأ سعد ؟! ألا نصر من الله كما جاء نصر الله فى الشام ؟!

أصبح العرب على حدود بلاد الروم نفسها ، ولقد أغرت الانتصارات المتوالية خالد بن الوليد أمير قنسرين ، بالتوغل فى بلاد الروم ، فاقتحم بلاد الروم وأوغل فيها ، دون أن يستأذن القائد العام أبا عبيدة بن الجراح الذى اتخذ من حمص مقرا للقيادة العليا ، وعاد خالد من بلاد الروم بعد أن غنم منها كثيرا .

وتوافى إليه المهنئون من أعيان العرب ، فأغدق عليهم ، وكافأ أحدهم بعشرة آلاف درهم ، دون أن يرجع إلى الخليفة . ودون فقراء المهاجرين من السابقين الذين ضحوا بأموالهم حين هاجروا ، والذين هم فى حاجة ، وأولى بهذا المال ، من أثرياء العرب الذين تأخر إسلامهم ، والذين هم فى غنى عن هذا المال !

فكتب عمر إلى خالد مؤنبا : « ألم أكتب إليك من قبل بألا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ؟! » فرد خالد مغاضبا : « إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك وعملك فلتولّ عليه من تشاء ! » .

وعجب عمر لرد خالد عليه ، ورأى فيه زهوا يهدد انسجام نظام الدولة ، ومن قبل كُتب إليه أبو بكر ألا يعطى شيئا إلا بأمره ، فرد عليه خالد بالكلمات

نفسها : إما أن يتركه حرا يفعل ما يريد ، وإلا ترك عمله ! ولكن الصديق لم يعاقبه .

أما الفاروق ، فكتب إلى أبى عبيدة أن يحضر خالدا ، ويسأله من أين هذا المال الذى كافأ به أهل الثراء وأصحاب الحظوة عنده ، ومنح واحد منهم عشرة آلاف درهم ؟! أهو من مال الله ، أم من ماله ، أم من المال الذى غنمه من غارته على بعض بلاد الروم ؟ فإن زعم أنه من إصابة أصابها فقد خان ، وإن زعم أنه من ماله الخاص فقد أسرف !

وعلى أية حال فليعزل عن عمله وليقاسمه أبو عبيدة ماله .

وسأله أبو عبيدة : « يا خالد ، أمن مالك أجزت بعشرة آلاف درهم أم من إصابة أصبتها ؟ » .

فلم يجب خالد .

وأعاد أبو عبيدة سؤاله ، وهو ما برح صامتا ، فوثب إليه بلال مؤذن النبى ﷺ ، ومن يقول عنه عمر : « إنه سيدنا » ، فقال بلال : « يا خالد ، إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا » . وسأله : « ما تقول يا خالد أمن مالك أجزت أم من إصابة ؟ » قال : « بل من مالى » فقال بلال : « نسمع ونطيع لولاتنا » . ثم قاسم أبو عبيدة بن الجراح خالدا ماله نصفين ، فلم يبق إلا نعلاه ، فقال له أبو عبيدة : « إن هذا لا يصلح إلا بهذا » ، فقال خالد : « ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك » . فأخذ نعلا وأعطاه نعلا !

عاد خالد إلى قنسرين ، فودع أهلها ، فنهض له رجل يواسيه ، فقال : « صبرا أيها الأمير ، إنها الفتنة » . فقال خالد : « أما وابن الخطاب حى فلا » .

ثم ذهب إلى المدينة حزينا ليقضى ما بقى له من العمر !

ولكن ما جدوى الحياة بعيدا عن الجهاد ؟ ما من شىء أحب إليك يا خالد من ساحات المعارك ، وما من شىء يطربك مثل قرع الحديد على الحديد ، والأبواق العزافة ، والخيل الصاهلة ؟!

ولكم قلت للناس : « ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب ، أو أُبشَّر فيها بغلام ، أحب إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بها

العدو ! فعليكم بالجهاد » !! .

وها هو ذا أنت اليوم يا خالد قد حرمت آخر الدهر من أحب شيء إليك : الجهاد في سبيل الله ، لتقضى في السكينة والأمن بقية حياتك بعيدا عن الغمرات والخطر ، وروعة الانتصارات !

وفاضت عيناه من الدمع .

وعندما بلغ المدينة ، ذهب إلى عمر فقال له : « لقد شكوتك إلى المسلمين ، والله إنك في أمري غير مُجْمِل يا عمر (غير مجمل أي لم تراع المجاملة والاعتدال) » فقال له الفاروق : « يا خالد ، إنك عليّ لكريم ، وإنك إليّ لحبيب ، ولن يصلك منى بعد اليوم ما تكرهه ، ولن تعاتبنى على شيء بعد اليوم ! » .

وسأله طلحة : « فيم عزلُ خالد ؟! » فقال : « إنى ما عتبت على خالد إلا في تقدمه ، وما كان يصنع في المال » .

لقد كان عمر يبنى دولة مترامية الأطراف ، متعددة الأجناس ، وكان يجب أن يخضع الجميع للنظام ، وأن يأخذ الجميع بالعدل والسوية في المعاملة ، وإلا فقدت الأمة الانسجام !

وظل عمر يؤكد للناس أنه ما نقم على خالد إلا الاستقلال خارج نظام الدولة ، وتوزيعه المال دون الرجوع إلى رأى الخليفة ، ثم إنه خاف على الناس الفتنة لبطولاته ، وهي بطولات أشعرته بالامتياز ، فجعل نفسه فوق النظام .

وكتب عمر إلى الآفاق كتابا واحدا : « إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ، ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخشيت أن يوكلوا إليه (أي أن يعتمدوا عليه) ، فأحببت أن يعلموا أنَّ الله هو الصانع » .

* * *

وما زال الفاروق ، يخرج كل يوم إلى طريق القوافل يتحسس من أنباء سعد وجنده ، ويسأل الركبان : « أما من خبر عن القادسية ؟! » .

نصر من الله

بعد صلاة الصبح ، خرج الفاروق ، فمشى على طريق العراق ، كما تعود منذ حين . . وإنه ليمشي وحده ، لا يدع أحدا على الإطلاق يمشى معه ، يستخبر الركبان ، ويستنشق الأخبار ، ويتحسس من سعد وجنوده ، فما يطلع عليه راكب من الركبان من ناحية العراق إلا استوقفه ، وسأله ، وإنه لكذلك إذ طلع عليه راكب من ناحية العراق ، مسرعا بناقته إلى المدينة ، فاستوقفه عمر فلم يقف ، فسأله عمر : « ما الخبر ؟ » قال الرجل والناقة تعدو به : « فتح الله على المسلمين ، وانهزمت العجم » .

وصاح عمر : « الله أكبر » ، وحاول أن يستوضح هذا البشير بالنصر ، ولكنه انطلق ، وعمر يجرى خلفه لا يبالى بما تثيره الناقة من رمال تغشى عينيه ، ويشرق بها حلقه ، حتى أتيا المدينة ، واتجه البشير إلى المسجد باحثا عن أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين ما زال يعدو خلفه ، والناس يتجمعون متعجبين قائلين : « لماذا تجرى يا أمير المؤمنين ؟! » .

وأناخ البشير ناقته ، وأخذته الحيرة ، واستبد به الحياء . . فلما بركت به الناقة ، تقدم معتذرا إلى الفاروق ، وقال : « سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ألا أعلمتنى أنك أنت أمير المؤمنين ؟! » قال : « لا بأس عليك يا أخى » .

وسلمه كتاب سعد إليه ، فقرأه على الناس : « أما بعد . فإن الله نصرنا على أهل فارس ، بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بِعُدّة لم ير الراءون مثلها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سُلِبُوه ، ونقله الله إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار ، والآجام ، وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين رجال من القراء لا يعلمهم إلا الله ، فإنه بهم عالم ، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جن

الليل عليهم كدوىّ النحل ، وهم آساد فى النهار لا تشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة ، إذ لم تكتب لهم » .

فلما فرغ عمر من القراءة ، والناس فى تكبير وتهليل فرحا بالنصر ، أمر مناديه أن يدعو الناس كافة إلى اجتماع داخل المسجد ، فنادى المنادى : « الصلاة جامعة » .

واجتمع الناس ، فصعد عمر المنبر ، ثم قال : « إنى حريص على ألا أرى حاجة إلا سددتُها ، ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تَأسيَّنا (أى تساوينا) فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف (الحد الأدنى للعيش) ، ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم ولست مُعَلِّمكم إلا بالعمل ، وإنى والله لست بملك فأستعبدكم ، ولكنى عبد الله عرض على الأمانة فإن أبيتُها ورددتُها عليكم واتّبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم سعدت بكم ، ففرحت قليلا وحزنت طويلا ! » .

* * *

كان فتح القادسية نصرا عظيما للمسلمين ، فقد كانت المعركة أضخم وأقسى ما خاضه الفرس والعرب جميعا من معارك . . وقد استمرت حرب القادسية أربعة أشهر ، وإن كانت معاركها لم تدر طاحنة حاسمة إلا أياما أربعة .

ذلك أن عمر أرسل سعدا إلى العراق ، فوجد بلاد العراق التى فتحها خالد والمُثَنىَّ ، وقد انْتَفضَت ، ونقضت المواثيق ، وانقَضّت على جيوش المسلمين ، واضطرتهم إلى الجلاء ، وادّعى أهل العراق أن الفرس هم الذين أجبروهم على نقض العهود ، وأخذوا منهم الخراج ! . . وكان الفرس قد دخلوا البلاد التى جلا عنها المسلمون ، فنهبوها ، واستباحوا نساءها ، وانطلقوا فيها يعربدون ، ويفسدون ولا يصلحون !

فلما حشد الفرس أقوى وأكثف جيش يمكنهم حشده ، وجعلوا عليه بطل أبطالهم رستم ، أرسل سعد بذلك إلى الفاروق ،. فكتب إليه عمر يأمره بالزحف إلى القادسية : « فالقادسية هى باب الفرس . . سُدّ عليهم الطرق والمسالك ،

وبادرهم بالضرب والشدة ، ولا يهولنّك كثرة عَددهم وعُددهم ، فإنهم أهل خداع ومكر ، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن ينصركم الله عليهم ، ثم لم يجتمع لهم شمل أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . . واكتب إلى بجميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوكم ، واجعلنى بكتبك إلىَّ كأنى أنظر إليكم . . . » .

فكتب إليه سعد يصف له المواقع ، ويشرح له التفاصيل التى طلبها ، ثم قال : « إن الفرس قد جردوا للحرب رستم وأمثاله ، فهم يطلبوننا ونحن نطلبهم . . . فنسأل الله خير القضاء ، وخير القدر فى عافية » .

فرد عليه عمر : « قد جاءنى كتابك وفهمته ، فإذا لقيت عدوك ومنحك الله أدبارهم ، فإنه قد ألقى فى روعى أنكم ستهزمونهم ، فلا تشكُنَّ فى ذلك ، فإذا هزمتهم فلا تنزع عنهم (أى لا تتركهم) حتى تقتحم عليهم المدائن (عاصمة الفرس) ، إن شاء الله » .

وزحف رستم بجيشه الكثيف من المدائن صوب القادسية ، فى بطء شديد ، حتى بلغ مشارف القادسية بعد نحو أربعة أشهر عسى أن ينفد ما حمله المسلمون من زاد ، فيمزقهم الجوع والضجر ، ويعودوا بلا قتال !

فلما أوشك طعام المسلمين على النفاد ، أرسل سعد سَرِيّةً تشترى أغناما وأبقارا ، فلم يجدوا أحدا يبيعهم ، وسألوا رجلا عن مكان يشترون منه غنما وبقرا ، فقال : « لا أدرى » . فسمعوا خوار ثور ، فقال قائد السرية للرجل : « كذبت يا عدو الله ! » فدخل الرجل أَجَمَةً ، فساق أغناما وأبقارا ، وأتى بها معسكر المسلمين ، فقسمها سعد ، ثم أرسل السرايا تُغِير على المدن والقرى من حولهم ، فاستاقوا قطعانا من الأغنام والأبقار ، وألوانا من الطعام ، ففزع أهل القرى إلى الملك ، وقالوا : « إما أن تدفع عنا العرب ، وإما أن نعطيهم ما بأيدينا طائعين » .

فأرسل الملك إلى رستم يستحثه ليهاجم العرب .

تلكأ رستم ، فقد كان يريد من الملك أن يرسل للعرب قائدا أدنى منه منزلة ، ويدّخره هو لما هو أشد خطرا ! . . فلما ألح عليه الملك أن يهاجم العرب ، أسرع فى مائة وعشرين ألف مقاتل ، يمدّهم ثمانون ألفا ، ومعه ثلاثة

وثلاثون فيلا ، فيهم الفيل الأبيض الذى قتل أبا عبيد الثقفى فى موقعة الجسر ، وهو فيل عظيم الهيئة ، مدرب على الحرب ، يلقى الرعب فى القلوب ، وتتبعه الأفيال جميعا !

فلما دنا جيش رستم ، أرسل سعدٌ طليحةَ بن خويلد ، فى جماعة من فرسان العرب ليأتيه بأخبار رستم وجنوده . وطليحة هذا هو الذى ادّعى النبوة عندما مرض الرسول ، وغلظت دعوته فى أول خلافة أبى بكر ، فأرسل إليه الصِّدِّيق جيشا هزمه ومن معه من أهل الرِّدَّة ، ثم تاب طليحة وعاد إلى الإسلام .

اقتربُ طُلَيْحَة وصحبه من معسكر رستم ، فلما وجدوا كثرة جنده قالوا لطليحة : « انصرف بنا » قال : « لا ، ولكنى ماضٍ حتى أدخل عسكرهم ، وأعلم علمهم . » قالوا : « ما نحسبك تريد إلا اللحاق بهم ، وما كان الله ليهديك بعد أن قتلت من قتلت من صحابة الرسول فى حرب الردة ! » قال : « بل ملأ الرعب قلوبكم ! » .

فانصرفوا عنه ، أما هو فقد أخذ يتربص بالمعسكر ، حتى أظلم عليه الليل ، فرأى عظماء الفرس يسكرون ويعربدون ، فلما ناموا ، مر بفارس عظيم منهم ـ يُعَدُّ بألف فارس ـ وهو نائم ، وفرسهُ مقيَّد ، ففكّ قيده ، وخرج به من المعسكر ، والفجر يضىء ما حوله ، فاستيقظ صاحب الفرس ، ونادى يستغيث أصحابه ، وجرى خلف طُلَيْحَة ، وتبارزا فقتله طليحة ، فأتاه فارس آخر ، فقتله ، وجاء ثالث فأسره طليحة ، وعاد إلى معسكر المسلمين به أسيرا ، وعلى رأسه وصدره تتلألأ الجواهر ، فكبر الناس .

فسأل سعدُ أسيرَ طليحة عن أخبار قومه الفرس ، فقال الأسير : « هم فى مائة وعشرين ألفا يتبعها مثلها ! » ثم أثنى الأسير على شجاعة آسره طليحة .

* * *

ولما أصبح رستم وسمع بما جرى ، تزايل فى أغوار نفسه ، وركبه من التشاؤم هَمٌّ عظيم : ها هم أولاء العرب الفقراء يتجاسرون على السادة الفرس !

وكان قد رأى من ليلته تلك فى منامه أن نَبِىّ العرب أخذ أسلحة الفرس جميعا ، فأهداها عمر بن الخطاب !

استدعى رستم خاصته ، وَقصَّ عليهم رؤياه ، وكان مشتغلا بالتنجيم ، عالما بتأويل الأحاديث ، ثم قال لخاصته : « إن الله يعظنا لو اتعظنا ! » .

ثم أرسل إلى سعد بن أبى وقاص : « أرسل إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا ! » .

فأرسل إليه رجلا من فرسان العرب ، شجاع القلب ، خشن الثوب !

فأقبل مبعوث سعد على فرسه ، فى هيئة تقتحمها عيون مُتْرَفِى الفرس ، وقد جعل سيفه فى خِرْقة ، فلما انتهى إلى بساط ثمين قالوا له : « انزل من على فرسك » . ولكنه لم ينزل ، وتقدم بالفرس على البساط الثمين الفاخر ، فقالوا له : « ضع سلاحك » قال : « لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم ! أنتم دعوتمونى » . فأخبروا رستم بخبره ، فقال لهم : « ائذنوا له » . فنزل من على فرسه ، وأدخلوه على رستم ، وقد أخذت زينته ، وجلس على سرير واسع من ذهب ، على رأسه تاج صغير تزينه لآلىء ، وصدره مرصَّع بالجواهر ، وأساور من ذهب تغطى معصميه ، ودرتان ثمينتان تخفقان من أذنيه ، وعلى صدره درع محلاة بالياقوت والزبرجد والمرجان والأحجار الكريمة الفريدة ، وتحت قدميه بساط فاخر ، عليه وسائد منسوجة بخيوط الذهب !

أقبل مبعوث سعد يتوكأ على رمحه ، فلم يدع شيئا من النفائس المتناثرة على البساط إلا اخترقه برمحه ، ثم جاوز البساط والنمارق ، حتى انتهى إلى الأرض ، فجلس عليها !

فسأله رستم : « ما حملك على ذلك ؟! » قال : « إنَّا لا نستحل القعود على زينتكم » . وكان بينهما ترجمان من الحيرة ، فسأله رستم : « ما جاء بكم ؟! » قال : « الله تعالى ! هو بعثنا لِنُخْرِجَ من نشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن الجور إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أباه قاتلناه حتى يقضى الله إما إلى الجنة أو إلى الظفر » .

قال رستم : « قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ » قال : « نعم ، وإنّ مما سَنَّ رسول الله ﷺ ألا نُمكِّن الأعداء أكثر من ثلاث . فنحن نُمهلكم ثلاثة أيام ، فانظر فى أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد

الأجل المضروب : إما الإسلام وَنَدعُكَ وأرضك ، أو الجزية فنكفّ عنك وإن احتجت إلينا نصرناك ، أو المُنابَذة (يعنى القتال) فى اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، وأنا كفيل بذلك عن أصحابى » .

قال رستم : « أسيد أصحابك أنت ؟! » قال : « لا ، ولكننا كالجسد الواحد ، بعضنا من بعض » .

وانصرف الرجل . فلما خلا رستم بخاصته من عظماء الفرس قال لهم : « هل رأيتم أو سمعتم كلاما قطَ أعزَّ وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ » قالوا فى صلف : « معاذ الله أن تميلَ إلى دين هذا الكلب ! أما ترى إلى ثيابه !؟ » قال : « ويحكم !. . لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة ، إن العرب تستخف بالثياب ، وتصون الأحساب ! ليسوا مثلكم ! » .

وفى اليوم التالى أرسل رستم إلى سعد أن يبعث إليه ذلك الرجل الذى بعثه بالأمس ، فأرسل إليه رجلا آخر ، فأقبل فى ثياب خشنة كصاحبه ، ولم ينزل عن فرسه حتى لقى رستم فى زينته وجواهره ، فقال له رستم : « انزل عن فرسك » . قال : « لا أفعل ! » قال : « ما جاء بك ولم يأت الأول ؟ » قال : « إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء ، وهذه نوبتى » . قال : « ما جاء بكم ؟ » فأجابه كما أجابه الرجل الأول . وانصرف !

فقال رستم لأصحابه : « ويحكم ! ألا تروى ما أرى ؟! جاءنا الأول بالأمس ، فحقر ما نعظم . . وجاء هذا اليوم وصنع بنا كصاحبه ! » . .

وسكتوا ، وتبادلوا النظرات ، فصرفهم عنه ، وجاءه منجم ، فحذَّره من الحرب .

ثم إنه أوى إلى فراشه ، فأصبح يبكى لرؤ يا رآها ، فقد رأى عمر فى عسكر فارس ومعه ملاك من السماء ، فأخذ الملاك سلاح الفرس ، وسلمه لعمر !

وتحامى رستم مصاولة العرب مرة أخرى . . . ورأى أن يُضجرهم بالانتظار ، وأن يناظرهم فيطيل المناظرة ، عسى أن يسأموا ، فيعودوا إلى ديارهم ، وتكفيه آلهته قتالهم ، فقد عرف أنهم يقاتلون بحرص على الموت أقوى من حرص الفرس على الحياة !!

ومرة ثالثة أرسل إلى سعد أن يبعث إليه من يناظره . . فأرسل إليه المغيرة بن شعبة ، فقال له رستم : « كنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم ، فنأمر لكم بشىء من التمر والشعير ، ثم نردّكم ، وقد علمتُ أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا القحط فى بلادكم ، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوِقْر (بكسر الواو أى حمل) من التمر ، ثم تنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى قتلكم » .

فقال المغيرة ساخرا : « إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم ، فقالوا : لا صبر لنا عنه ! » .

فقال رستم : « إذن تموتون دونه ! » .

فقال المغيرة : « يدخل من قُتِلَ منا الجنة ، ومن قُتل منكم النار ، ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم » .

وركب رستم غضب جائح ، فقال : « أقسم بالشمس أن أقتلكم جميعا صباح الغد » .

وفى الصباح رأى سعد أن يدعو رستم إلى السلم بدلا من الاقتتال ، فأرسل إليه ثلاثة من حكماء المسلمين فقالوا : « يا رستم ، إن أميرنا يدعوك لما هو خير لنا ولك ، والعافيةُ أن تقبل ما دعاك إليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك ، وداركم لكم وأمركم فيكم ، فاتقّ الله ولا يكوننّ هلاك قومك على يديك ، وليس بينك وبين أن تغتبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه ، وتطرد الشيطان عنك » .

لا شىء أحبّ إلى رستم من أن يتناظروا ، بدلا من أن يتقاتلوا ، ولكنهم يستخفون بالفرس ، وهم ساداتهم كما يزعم لنفسه !!

قال لهم رستم : « إن الأمثال أوضح من كثير من الكلام ، إنكم كنتم أهل فقر وقَشَف (مرض بالجلد) . . فلم نسىء جواركم ، وكنا نميركم (من الميرة أى نطعمكم) ونحسن إليكم ، فلما طعمتم طعامنا ، وشربتم شرابنا ، وصفتم لقومكم ذلك ، ووعدتموهم ثم أتيتمونا !! وإنما مَثَلكم ومَثَلنا كَمَثَل رجل كان له كَرْم ، فرأى فيه ثعلبا ، فقال : وما ثعلب ! فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم ، فلما اجتمعوا إليه سد صاحب الكرم المكان الذى كانت الثعالب تدخل

منه فقتلهن ! فقد علمت أن الذى حملكم إلينا إنما هو الحرص والفقر ، فارجعوا ونحن نطعمكم ، فإنى لا أشتهى قتلكم ! ومثلكم أيضا كالذباب يرى العسل فيقول : من يوصلنى وله درهمان ؟ فإذا دخله غرق ، فيقول : من يخرجنى وله أربعة دراهم ؟ فما دعاكم إلى ما صنعتم ، ولا أرى عددا ، ولا عُدَّة !؟ » .

فقال قائلهم : « أما ما ضربت لنا من الأمثال فليس كذلك . ولكن إنما مثلكم كمثل رجل غرس أرضا واختار لها الشجر ، وأجرى إليها الأنهار وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها فخلا الفلاحون فى القصور على ما لا يحب ، فأطال إمهالهم فلم يستجيبوا ، فدعا إليهم غيرهم وأخرجوهم منها ، فإن ذهبوا عنها يتخطّفهم الناس ، وإن أقاموا بها صاروا خَوَلاً (بفتح الخاء والواو أى خدما) لهؤلاء ، فيسومونهم الخسف أبدا ، والله لو لم يكن ما نقول حقا ولم يكن إلا الدنيا لما صبرنا عن الذى نحن فيه من لذيذ عيشكم ، ولقارعناكم عليه ! » .

* * *

لم يكن يفصل بين العرب والفرس إلا الماء ، قال رستم ، « أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم » . قال سعد : « بل اعبروا إلينا » .

وعبر الفرس بقيادة رستم ، وأخذ المسلمون مواقعهم . .

وكان سعد قد أصابته دمامل منعته من الركوب أو الجلوس ، فاستلقى على وجهه ، يشرف على الناس من سطح القصر ، وقد أسند صدره إلى وسادة ! وسمع من مكانه من يلومونه لأنه يرقد دونهم ، فنزل إلى الناس ، وأعتذر إليهم ، وأراهم ما به ، فعذروه .

وأمر سعد القراء بقراءة سورة القتال ـ وهي سورة الأنفال ـ فلما فرغوا منها ، قال سعد لعسكره : « الزموا مواقفكم حتى تُصلُّوا الظهر ، فإذا صَليتم فإنى مكُبِّر فكَبِّروا واستعدوا ، فإذا سمعتم الثانية فكَبِّروا وألبسوا عُدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، وليُنَشِّط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم . وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

فلما قال سعد للمرة الثالثة : « الله أكبر » ، برز للقتال أشجع فرسان المسلمين ، وخرج إليهم أكفاؤهم من الفرس ، والشمس تسطع على دروع الفرس ، وخوذهم الذهبية تخطف أبصار العرب أمامهم ! وتأهبت الصفوف ، وشحذت السيوف ، والخيل تصهل ، والأبواق تعزف .

وخرج عظيم من الفرس يتحدى فرسان العرب ، فبرز له عمرو بن معدى كرب ، فصرعه ، واستولى على سُوارَيْه الذهبيين ، ونازل أحد فرسان العرب مقاتلا فارسيا معه متاع على بغال ، فأسره الفارس العربى ، واستاق ما معه ، فإذا الرجل الفارسى هو طباخ الملك ، معه طعام الملك ، وفيه حلوى فارسية اسمها خبيصة . . استطابها العرب . .

وحث الفرس ما معهم من الفيلة ، وركضوها فى صفوف المسلمين ، فنفرت منها الخيل ، ولحق رجل من العرب بالفرس خوفا وطمعا . . فسألوه عن أخبار الجيش الإسلامى ، فأشار عليهم أن يكسروا قبيلة بجيلة فهى أخطر العرب عليهم ، فوجه الفرس أفيالهم إلى بجيلة ، فنفرت خيول بجيلة ، وشمست على الفرسان ، واضطربت صفوفها ، وكادت بجيلة أن تُهْزَم ، ويُباد جمعها ، وسعد يشرف على المعركة من سطح قصر الإمارة ، فأرسل إليهم طليحة فى فرسان قومه وقال لهم : « دافعوا عن بجيلة ومن معها » .

فانطلق طليحة بفرسان بنى أسد ، ولكن أفراسهم لم تثبت للفيلة ، فاستنفر طليحة قائد قوات الفيلة لكى ينزل عن فيله الأبيض ، ويبارزه ، وكلاهما على قدميه ، ونزل قائد الفيلة ، ومشى إلى طليحة فى دروعه المرصعة ، وثيابه الموشاة بالذهب ، وخوذته المتلألئة ، فانقض عليه طليحة فقتله ، فأهتز أتباعه من ركبان الفيلة ، ولكنهم دفعوا بأفيالهم ، فأفزعت خيل المسلمين !

والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد ليشدُّوا جميعا ، فلما هتف سعد للمرة الرابعة : « الله أكبر » زحف المسلمون على قلب رجل واحد . . .

وأرسل سعد إلى بنى تميم وكانوا أدنى قبائل العرب من دولة فارس ، وأعلم العرب بكيد الفرس وحيلهم فى الحرب والسلم ، قال سعد : « يا معشر بنى تميم ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟! » وردّ عليه قائدهم : « بلى والله » .

ونادى أمير بنى تميم فى قومه : « يا معشر الرماة من بنى تميم ، ارموا راكبى الفيلة بالسهام ، وأنتم أيها الرهط من بنى تميم خذوا بأذناب الفيلة ، فاقطعوا من كل فيل الحبل الذى يشد سرجه ، وادفعوا عن ظهور الفيلة من ركبوها » .

وفعلوا ! وتساقط راكبو الفيلة ، وفزعت الفيلة مِنْ شَدٍّ أذنابها ، فارتفع صياحها ، فاضطربت الخيل اضطرابا عنيفا ، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا . . !

وسعد على السطح يرى ، ويتململ إشفاقا على المسلمين ، وجاءته زوجته سلمى ، فشهدت ما ابتلى به المسلمون ، وكانت سلمى زوجة للمثنى ، فلما قتل عنها ، وأكملت العدة تزوجت سعدا ، وكانت امرأة ذات رأى وحكمة ونجدة ، فلما رأت اضطراب الصفوف ، وكثرة الفرس ، وما يصنعون بالمسلمين ، نَدّت منها صرخة : « وامُثنَّاه ! ولا مثنى للخيل اليوم ! » .

فلطمها سعد مغضبا ، فقالت : « أغيرةً وجُبْناً ؟! » .

فتألم سعد مما قالته ، وقال لها : « أنت تعلمين وترين ما بى ! والله لا يعذرنى أحد إن لم تعذرينى ! » .

وطالت المعركة حتى أقبل الليل ، فَكَفّ الجمعان عن القتال ، والتفوق للفرس على المسلمين . . وسعد راقد يتغيظ مما يعانى ، ومما يراه ، ويدعو الله !

حتى إذا أقبل الصباح ، أمر سعد بدفن القتلى حيث استشهدوا ، ووكل النساء بالجرحى يعالجنهم .

وإن سعدا لفى قلقه المضنى وآلامه ، وإنه لينتظر المدد الذى وعد به عمر ، إذا أقبلت النجدات ! . .

كان عمر قد أمر أبا عبيدة بعد أن فتح أكثر بلاد الشام ، أن يعيد إلى سعد جيش العراق ، فأرسلهم أبو عبيدة ، وجعل القعقاع على مقدمتهم . .

والقعقاع هو الذى قال عنه أبو بكر : « لا يهزم جيش فيه القعقاع » !!

وأخذ يحرض الجنود على القتال ، وقال لهم : « اصنعوا كما اصنع » . وتقدم يتحدى أن يخرج أعظم مبارزى الفرس ليبارزه ، فبرز إليه ذو الحاجب فى الحلى والجواهر والديباج ، وهو الذى أوقع بالمسلمين وأبى عبيد الثقفى فى موقعة الجسر ، فعرفه القعقاع ، فنادى : « يا لثارات أبى عبيد وأصحاب الجسر !! » .

وتبارزا ، فقتله القعقاع ، وفرح سعد ، وفرح المؤمنون ، وفَتَّ مقتل ذى الحاجب فى عزم الفرس ، وقوَّى من عزيمة المسلمين ، ونادى القعقاع : « يا معشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فإنما يُحصد الناس بها » . . . وتوالت النجدات من الشام ، مقبلة على الجمال ، فأمر القعقاع هذه القوات أن تحمل على خيل الفرس بالجمال ، وخيلهم لا عهد لها بالجمال . . فنفرت خيل الفرس من الجمال أكثر مما نفرت بالأمس خيل المسلمين من الأفيال !

وركب رستم من أمر هذه الإبل هم عظيم ! وعاد يتذكر ما طالعته به النجوم ، والرؤيا التى ما برح يراها ، وفيها نذير بالهزيمة . . إن شبح الهزيمة ليطارده فى النوم واليقظة ! ولكن ربما كان هذا وهم خَيَّله الشيطان !!

* * *

لم تشأ سلمى أن تصعد إلى سطح القصر تواسى زوجها سعدا كما فعلت بالأمس ، بل أخذت تتجول فى القصر ، وزوجها يشرف على المعركة ، من على سطح القصر . .

وسمعت سلمى وهى تتجول صوتا موجعا ينشد :

« كفى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا واترك مشدودا على وثاقيا
وقد كنتُ ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحدا لا أخا ليا
فلِلَّهِ دَرِّى يوم أترك مُوَثقا وتذهل عنى أسرتى ورجاليا ! »

فاتجهت سلمى إلى غرفة مغلقة ، ينطلق من ورائها الصريخ الموجع ، فوجدت رجلا فى عُدّته الحربية ، مُوثَقاً يتلَوّى ، يريد أن يطرح عنه وثاقه ، وسمعت أنينه يختلط بصلصلة القيد !

ففتحت الباب ، وسألته إن كانت له حاجة فتقضيها ، فأنبأها أنه الفارس الشاعر أبو مِحْجَن ، ثم قال لها : « ويحك ! أطلقينى ، ولك عهد الله إن سلّمنى الله أن أجىء حتى أضع رجلىّ فى القيد ، وإن قُتلت استرحتم منى ! » ففكت القيد ، فناشدها أن تُعيره البلقاء فرسة زوجها سعد ورمحه ، ليُجاهد بهما .

فأعطته رمح سعد وفرسته ، فاندفع نشطا حتى اقتحم صفوف الفرس فكبّر ، وفعل بالفرس الأفاعيل ، وفتح الصف بعد الصف ، يطيح برقاب عظماء الفرس عن اليمين وعن الشمال ، والمسلمون خلفه على خيولهم ، يتعجبون منه ، وقد اشتد به أزرهم ، وقال بعضهم : « لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا : إنه ملك » ، وقال آخرون : « لعله العبد الصالح الخضر الذى علّم نبى الله موسى ابن عمران عليه السلام » .

وسعد بن أبى وقاص يتابع بنظره المعركة من على سطح قصر الإمارة ، فيسره حسن بلاء المسلمين ، وظهورهم على الفرس من يومهم هذا ، ونظر إلى أبى محجن وهو يقاتل ، فلم يتبين وجهه ، ولكنه تعجب وقال : « الصبر صبر البلقاء ، والضرب ضرب أبى محجن ، ولكن أبا محجن فى القيد ! » .

فلما سجى الليل ، سكت القتال ، وأقبل أبو محجن فدخل القصر ، ووضع رجليه فى القيد ، كما وعد ! . . فقالت له سلمى : « فى أى شىء قَيَّدَكَ الأمير ؟ » قال : « والله ما فعل بى ما فعل بحرام أكلته ولا شربته ، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى ، فقلت مرتجلا فى ذلك أبياتا منها :

إذا مت فادفنىِّ إلى أصل كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنَنِّى بالفلاة فإننى ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فلذلك حبسنى ! » .

فلما أصبحت جاءت إلى زوجها سعد ، فاعتذرت إليه عما أغضبه عليها ، وأنبأته بما كان من أبى محجن ، فأمر بحل قيوده ، وقال له : « اذهب فما أنا بمؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله ! ووجهه إلى القتال » .

فلما أصبح اليوم الثالث ، تتابع المدد على جيش سعد ، فدعا سعد إليه الشعراء والخطباء وعلى رأسهم عمرو بن مَعْدِ يكَرِب ، فقال لهم : « إنكم خطباء وشعراء وفرسان العرب ، فدوروا فى القبائل والرايات وحرضوا الناس على القتال » .

فدارت المعركة طاحنة ، وحَصّنَ الفرس أفيالهم بجنود ليحموها ، وحملت الأفيال ، فلم تنفر الخيل منها كما نفرت من قبل ، فقد ألفتها !

ونظر سعد إلى ميدان الحرب ، فوجد الأفيال كلها تتبع الفيل الأبيض ، فأرسل إلى القعقاع يأمره بأن يعمد إلى الفيل الأبيض ، فيحتال حتى يصرعه ، فإن فعل ، سهلت السيطرة على بقية الأفيال .

فعمد القعقاع إلى رمحه ، وتقدم ومعه فارس آخر برمحه ، فطعنا الفيل الأبيض فى عينيه ، فصاح صيحة مروعة ، ونفض رأسه وبدنه بقوة فوقع من كان عليه ، وهو عظيم من الفرس ، فقتله القعقاع . . وثار الفيل الأبيض واقتحم ، فزجره المسلمون بالرماح ، فعاد إلى الفرس ، فَنَحُّوه ليتقدم ، فولَّى الفيل الأبيض ، فألقى بنفسه فى الماء ، فهلك ، وتبعته بقية الأفيال ، فهلكت جميعا . . !

واشتد القتال ، حتى حَلّ الظلام . . فانصرفوا جميعا .

وأقبل يوم جديد ، فاقتتل الفريقان طيلة الليل ، ولم يحسم أحد من الجمعين المعركة .

فأصبح الناس منهكين من التعب ، إذ لم ينم أحد ليلته تلك ، لا من العرب ، ولا من الفرس ! فسار القعقاع بين جند المسلمين ، وقال : « إن النصر مع الصبر ، فاصبروا ساعة واحملوا على الفرس ، والدائرة بعد ساعة لمن بدأ وصبر » .

وقام الخطباء ورؤساء القبائل ، كل يخطب فى معشره : « لا يكونن الفرس أجرأ على الموت منكم ، ولا أَجَدّ فى أمر الله منكم ! » .

وهجم العرب ، واقتتل الجمعان حتى الظهر ، وأصيب رستم بسهم أثبت رجله فى ركابه ، وإنه ليعالج قدمه لينزع منها السهم ، إذ انقض عليه فارس عربى ، فاقتتلا ، وخار رستم ، وشعر بأنها النهاية ، وأن هذا هو تأويل رؤياه . . !

وإن هى إلا ضربة ، فضربة ، حتى قَتَل الفارسُ العربىُّ رستمَ أعظم أبطال الفرس ، فصاح : « الله أكبر ! قتلت رستم ورب الكعبة ! » .

وإذ رأى الفرس رأس بطل أبطالهم تطير ، تخاذلوا ، وأثخن فيهم العرب ، فانهزم الفرس ، وفروا يلتمسون النجاة .

وغنم المسلمون كما لم يغنموا من قبل من النفائس والفرائد والأموال والسبى . .

وأرسل سعد إلى عمر بأنباء هذا النصر ، وأقام بالقادسية ينتظر جواب عمر ، فأمره بالزحف إلى المدائن عاصمة الفرس .

وقتل فى حرب القادسية عشرات الآلاف من الفرس ، أما المسلمون فقد استشهد منهم نحو ثمانية آلاف ، كان منهم أولاد الخنساء الشاعرة ، وكانوا أربعة رجال ، وكانت أمهم قد نفرت بهم إلى القادسية ، لما استنفر الفاروق أحياء العرب وعشائرهم إلى العراق ، ليجاهدوا تحت إمْرةِ سعد بن أبى وقاص . قالت لهم أمهم قبل معارك القادسية : « يا بَنِىّ ، إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لَبَنُو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم . . وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شَمّرَت عْن ساقيها ، فَتَيَمَّمُوا وَطِيسهَا ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة » .

فلما أصبحوا ، استَبَقُوا إلى مواقعهم فى الجيش ، وتقدم الأكبر فقاتل حتى قتل ، وتبعه الثانى ، فالثالث ، فالرابع ، فكلهم استشهد ، واحدا بعد الآخر .

فلما بلغ الخنساء نبأ استشهاد أبنائها الأربعة جميعا قالت : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته ! » .

وعلم عمر باستشهادهم ، فأمر بأن تعطى الخنساء عطاء أولادها الأربعة .

* * *

أمر سعد بعض أمراء جيوشه بأن يتبعوا الفرس الفارين ، وألا يمكنوهم من النجاة كيلا تكون لهم كَرَّة على المسلمين . .

فلحقوا بهم ، فوجدوا الفرس ممزقين من الذعر منذ رأوا العرب قد قهروا أفيالهم التى لا تُقهر ، وقتلوا رستم بطل الأبطال !!

لقد فزع الفرس من هذه الروح التى عاينوها ، والتى يكابدونها لأول مرة ، وعجبوا لهذا الدين الجديد الذى حول هؤلاء العرب الفقراء المهزولين المجهدين إلى طاقات خارقة معجزة !!

لقد شَلَّ الرعب عقول الفرس ، حتى لقد كان الشاب الصغير من العرب يسوق أمامه ستين أسيرا من فرسان الفرس ! وحتى لقد كان الفارسى حين يُوقَع به يقدِّم سلاحه للعربى ليقتله ! وربما أمر العربى فارسيا بقتل صاحبه الفارسى ، فذبحه !

انتظر سعد بالقادسية حتى استراحت الجيوش وشفى هو مما به ، فقادهم زحفا إلى المدائن ، وعَنَّ له أن يتخذ الأنبار مكانا يعد منه لفتح المدائن ، ولكن كثرة الذباب بها أضجرته وهو وجنوده فتركها متجها إلى المدائن عاصمة الدولة الفارسية ، وفى طريقه إلى المدائن ، فتح بابل وعدة مدن أخرى ، وقضى على فلول الفرس الذين تجمعوا مستقرين بمدد أرسله إليهم ملكهم . وغنم المسلمون من تلك البلاد مغانم عظيمة ، كما غنموا من القادسية ، وكانت مغانم القادسية من نفائس وأموال وسبايا أكثر من كل ما عرفته الجيوش الإسلامية فى كل الحروب من قبل ، وأرسل سعد خمس ما غنمه إلى الخليفة ، ووزع الباقى على المقاتلين . وأرسل يشاوره فى أهل العراق الذين كانوا قد عاهدوا خالدا والمثنى ، ثم نقضوا الميثاق ، وزعموا أن الفرس هم الذين أكرهوهم على ذلك .

فجمع عمر الناس فى المسجد فقال لهم : « إن من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه ، ومن يتبع السنة وينته إلى الشرائع ، ويلزم السبيل ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة ، أصاب أمره ، وظفر بحظه ، وذلك بأن الله عز وجل يقول : (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) » .

ثم شاورهم فى أمر أهل العراق الذين نقضوا الميثاق ، وزعموا أن الفرس قد أكرهوهم على ذلك . . فلما أجمع الناس على رأى كتب عمر إلى سعد : « من أقام على عهده من أهل السواد ، ولم يُعِنْ عليكم بشىء ، فلهم الذمة ، وعليهم الجزية ، وأما من أدّعىَ أنه مُسْتَكْرَه ، فلا تصدقوهم بما ادّعوا من ذلك إلا أن

تشاءوا ، فذلك أمر جعله الله لكم ، فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقوموا لكم فى أرضهم ، ولهم الذمة ، وعليهم الجزية ، وإن كرهوا ذلك ، فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم ، فأموالهم فىء لكم » (فَىْءٌ : غنيمة) .

ولكن كثيرا من أهل العراق دخلوا فى الإسلام طائعين ، لما رأوا ما فعله الإسلام ، وما منحه إخوانهم العرب الفاتحين من عزة وقوة ، ومنعة ، وخلق عظيم .

ورأى عمر إقبال الفاتحين على نساء أهل الكتاب من أهل العراق يتزوجوهن ! وخشى على النساء المسلمات أن يتضررن بضرائر ، أو أن يعزف عنهن الخطاب من العرب !

فأرسل عمر إلى رجل من الصحابة له قدره ، ليجعله أسوة . كتب إليه عمر : « إنه بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل العراق من أهل الكتاب ، فطلقها » . فكتب إليه الصحابى : « لا أفعل حتى تخبرنى : أحلال أم حرام ؟ وما أردت بذلك !؟ » . فكتب إليه : « لا بل حلال ، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة ، فإن أقبلتم عليهن فضلتموهن على نسائكم ، فآذيتموهن ! » فرد عليه الصحابى : « الآن أطلقها ! » .

* * *

كتب عمر إلى عتبة بن غزوان يخبره بانتصار المسلمين على الفرس ، وبفتح القادسية ، وانسياح المسلمين حتى بابل أرض هاروت وماروت ، واستنهضه لحماية المسلمين من الفرس ، ثم قال له فى ختام كتابه الذى حذر فيه من كَرَّةٍ للفرس بعد هزيمتهم : « لست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل فارس ، فإنى أريد أن أوجهك إلى أرض الهند ، لتمنع الفرس من إمداد إخوانهم على إخوانكم ، وتقاتلهم لعل الله أن يفتح عليكم ، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ، وأن يعينك عليها ، فسر على بركة الله ، واتق الله ما استطعت ، وأحكم بالعدل ، وصل الصلاة لوقتها . . ومن أجابك (أى إلى الإسلام) فأقبل منه ، ومن أبى فالجزية ، وإلا فالسيف ، واتق الله فيما وليت ، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كِبْر ما يفسد عليك إخوتك ، وأنت قد صحبت رسول الله ، ﷺ ، فعززت به بعد الذلة ،

وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميرا مسلطا وملكا مطاعا ، تقول فيُسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك ، فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على مَنْ دونك ! ثم خف النعمة خوفك المعصية ، ولهى أخوفهما عندى أن تستدرجك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله ونفسى من ذلك . إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رُفعت لهم الدنيا فأرادوها ! فأرِدْ الله ولا تُرِدْ الدنيا ، واتق مصارع الظالمين . انطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم فى أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا » .

وكانت البصرة على طريق سفن الهند ، فسميت أرض الهند ، وكلها حجارة خشنة ، وحولها قرى صغيرة ، وعلى مقربة منها مدينة الأُبُلّة ، وهى سوق تجارة رائجة ، ومرفأ السفن إلى الصين والهند .

أقبل عتبة فنزل البصرة ، وعسكر بها ، فخرج عسكر الأُبُلّةِ إليه ، ولكنهم خافوا أن يصنع بهم العرب الفاتحون كما صنعوا من قبل برستم وجنوده فى القادسية ، فتركوا المدينة بما فيها يلتمسون النجاة برقابهم ، فعلم عتبة بذلك ، فزحف إلى الأبلة بمقاتليه ، فغنموا مغانم عظيمة من متاع وأموال وسلاح وسبى .

وأرسل عتبة إلى عمر بنبأ الفتح ، فسأل رسول عتبة : « كيف المسلمون » . فقال : « انثالت عليهم الدنيا ، فهم يهيلون الذهب والفضة يا أمير المؤمنين » .

وتسامع الناس بذلك ، فتوافوا إلى البصرة ، فعمروها ، وبنوا بها مسجدا كبيرا ، ووليها عتبة ستة أشهر ، ثم خلفه عليها المغيرة بن شعبة .

* * *

وما برح عمر فى المدينة يقسو على نفسه ، ويتفقد أحوال الرعية ، ويقول للناس : « والذى بعث محمدا ﷺ بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنه » .

وهو ينظر فى أمر عماله وما يصنعون بالرعية ، ويجمعهم ذات يوم ويجمع معهم الناس ، فيصعد المنبر ويقول : « أيها الناس ، إنى ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلهم إليكم ليُعلّموكم دينكم

وسنتكم ، فمن فُعِلَ به شىء من ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأقُصَّنَّهُ منه ! » ويفزع عمرو بن العاص ، فيثب قائلا : « يا أمير المؤمنين . أإن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية ، فأدّب بعض رعيته بالضرب أإنك لتقُصّنّه منه ؟ » ، قال : « إى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت النبى ، ﷺ ، يقُصّ من نفسه !؟ (يقُص من القصاص) ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم ! » .

وما زال عمر يعنى بكل شىء ، حتى بإبل الصدقة ، فيعالجها ، ويصبر نفسه على هذا العناء . . !

دخل حظيرة إبل الصدقة ذات يوم حار ، ومعه على وعثمان ، فقام عمر فى الشمس يعد إبل الصدقة ، ويرصد ألوانها وأسنانها ، وعثمان فى الظل يكتب ، وعلىٌّ قائم على رأسه يمليه ما يقول عمر ، وبعد أن فرغوا ، قال علىٌّ لعثمان : « فى كتاب الله : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) . هذا هو القوى الأمين » . وأشار إلى عمر .

ولقد دفعه هذا الحس المرهف بالمسئولية إلى أن يطرق باب عبد الرحمن ابن عوف فى ساعة متأخرة ذات ليلة ، فقال له عبد الرحمن : « ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟! » قال : « رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سُرَّاق المدينة ، فانطلق لنحرسهم » . فلما وصلا إلى السوق ، جلسا على مرتفع من الأرض ، يحرسان هذه الجماعة من التجار ، ويتحدثان ، فرأى عمر ضوء مصباح فقال : « ألم أَنْهَ عن المصابيح بعد النوم ؟! » .

وذهبا إلى مكان المصباح ، فوجد قوما يسمرون على شراب ! قال عمر : « انطلق ، فقد عرفت صاحب الشراب » .

وفى الصباح دعاه إليه ، فقال : « كنت وأصحابك البارحة على شراب ! »
قال : « وما أدراك يا أمير المؤمنين ؟! » قال عمر : « أنا رأيتك بعينى رأسى ! »
قال : « أو لم ينهك الله عن التجسس ؟ » . فتجاوز عنه !

فما كان عمر ليفتش عن عيوب الناس ، أو يتجسس على عورات الرعية ،

بل كان على النقيض يسترها ، ويعالج الخاطئين بما يردّهم إلى الطريق المستقيم .

ركب يوما ومعه ابنه عبد الله ، وبعض الصحابة ، فرأى رجلا يسير نحوه ، فقال : « إن هذا الرجل يريدنا » . فوقف الركب ، ونزل عمر عن راحلته ينتظر الرجل ، فأتاه الرجل أشعث أغبر ، حليق الشعر ، مُلَطّخ الوجه بالسواد ، باكيا ، قال عمر : « ما شأنك ؟! » قال : « يا أمير المؤمنين ، إنى شربت الخمر ، فضربنى عاملك ، وسود وجهى ، وطاف بى ، ونهى الناس أن يجالسونى ، فهممت أن آخذ سيفى فأضرب به عاملك ، أو آتيك فتحولنى إلى بلد لا يعرفنى فيه أحد ، أو ألحق بأرض الشرك ! » .

فكتب عمر إلى عامله : « إن فلانا أتانى فذكر كيت وكيت ، فإذا أتاك كتابى هذا فَمُرْ الناس أن يجالسوه وأن يخالطوه . وإن تاب فاقبل شهادته » . ثم كساه ، وأمر له بمائتى درهم .

وكان رجل من أعيان الشام قد أسلم وحسن إسلامه ، وكان يكتب إلى عمر يستفتيه فيفتيه . وانقطعت أخباره عن عمر فسأل عنه ، فقيل له : « إنه قد أدمن الخمر » . فكتب إليه عمر : « سلام عليكم ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » . وأخذ عمر يدعو الله أن يتوب على الرجل ويغفر له . فلما قرأ الرجل ما كتبه إليه عمر ، ظل يقرأ الآية الكريمة ويعيد القراءة ، ويقول : « غافر الذنب ؟ قد وعدنى الله عز وجل أن يغفر لى ! وقابل التوب شديد العقاب ؟ قد حذرنى الله من عقابه ! ذى الطَّوْل ؟ إن الطَّوْل هو الخير الكثير فهو يعدنى ما عنده من خير كثير ! إليه المصير ؟ نعم إليه المصير ! » وجعل يرددها حتى بكى ! ثم تاب فأحسن التوبة . فلما بلغ عمر أنه كف عن الشراب قال : « هكذا فاصنعوا : إذا رأيتم أخا لكم زلّ فسددوه ووفقوه ، وادْعُوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه » .

* * *

أقبل عمر على المسجد فصلى الظهر بالناس ، ثم صعد المنبر ، فقال :

« الحمد لله الذى أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، ورحمنا بنبيه ﷺ ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشتات ، وألّفَ بين قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكّن لنا من البلاد ، وجعلنا إخوانا متحابين . فاحمدوا الله على هذه النعمة ، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها ، فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم ، وإياكم والعمل بالمعاصى ، وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط عليهم عدوهم .

« أيها الناس ، إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها وأظهر فَلْجَها (أى فوزها) ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمه ، وأشكروه على آلائه ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

« أيها الناس ، إنه قد أتى علىَّ زمانٌ وأنا أرى أن قوما يقرأون القرآن يريدون به الله عز وجل وما عنده ، فَخُيِّل إلىّ أن قوما قرءوه يريدون به الناس والدنيا ! ألا فأريدوا الله بأعمالكم . ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزل الوحى وإذ رسول الله بين أظهرنا ينبئنا أخباركم ، فقد انقطع الوحى ، وذهب النبى ، ومن رَأَيْنَا منه شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه . . سرائركم بينكم وبين ربكم . ألا وإنما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم . ألا من رابه من ذلك شيء فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفسى بيده لأُقَصّنّ منه .

« أيها الناس ، اتقوا الله فى سريرتكم وعلانيتكم ، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة ، فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه ، فنظر إليه أصحابه فمنعوه ، فقال : هو موضعى ولى أن أحكم فيه . فإن أخذوا على يده سلم وسلموا ، وإن تركوه هلك وهلكوا معه . وهذا مثل ضربته لكم . رحمنا الله وإياكم » .

فجاء إليه رجل ، وزعم أن أميره ضربه ، فقال له عمر : « كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دونى » ثم اقتص للمضروب من أميره .

ثم مضى كعادته كل نهار يطوف بالأسواق ، ويقرأ القرآن ، ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم ، وإن كان أحيانا ليقول لعلى بن أبى طالب : « اكفنى القضاء واقض بين الناس » . ويقول عنه : « على أقضانا » .

* * *

وإن الفاروق ليسير فى إحدى أسواق المدينة ذات يوم مع أصحابه ، فجابهه رجل : « ويل لك يا عمر من النار ! » فقال رجل : « يا أمير المؤمنين ، ألا ضربته ؟! » قال على : « ألا سألته !؟ » فسأل عمر الرجل : « لِمَ قلت ما قلته يا رجل ! » قال : « تستعمل علينا العامل وتشترط عليه شروطا ولا تنظر فى شروطك ! » قال : « وما ذاك ؟ » قال : « جعلت علينا أميرا ، واشترطت عليه شروطا ، فترك ما أمرته به ، وانتهك ما نهيته عنه » .

واستقصى عمر الأمر ، حتى عرف اسم الأمير الذى يشكو منه الرجل ، وكان قد استعمله على أحد البلاد المفتوحة الغنية ، فأرسل إليه عمر رجلين من الصحابة ، وقال لهما : « سلا عنه أهل البلد ، فإن كانت الشكوى كاذبة فأعلمانى ، وإن كانت صادقة فلا تملكاه من أمره شيئا حتى تأتيانى به » .

فانطلقا ، فسألا عنه أهل البلد ، فوجدا الشكوى صادقة ، فهو يغلق بابه دون حوائج الناس وما يصلحهم ، وهو يستأثر دونهم بالمركب الفاخر ، والملبس الناعم ، ولين العيش ، وقد نهى أمير المؤمنين أمراء الأمصار عن هذا كله ، وأمرهم ألا يغلقوا أبوابهم دون الناس ، وأن يكونوا فى مأكلهم وملبسهم ومركبهم كأواسط الناس ، لا أغناهم ولا أفقرهم !

وأراد مبعوثا عمر أن يقابلا ذلك الأمير ، فاستأذنا عليه ، فلم يأذن لهما حاجبه ، فقالا له : « لَيخرجنّ إلينا أو لَنحرقنّ عليه بابه ، كما أمرنا أمير المؤمنين » .

فلما أعلمه الحاجب بوعيدهما خرج إليهما ، فقالا له : « إنّا رسولا عمر لتأتيه » فقال : « أمهلانى حتى أعد زادى ، فلى حاجة بتزود » . فأبيا عليه ، واحتملاه من فورهما ، فأتيا به عمر .

فرآه عمر فى ثياب ثمينة ، وقد سمن ، وابيضّ وجهه ، واحمرّ ، وظهرت عليه النعمة ، وكان رجلا بدويا ، فلما عاش فى خضرة ذلك الريف ونعيمه ابيضّ واسمنّ واحمرّ .

قال له عمر : « استعملتك ، وشرطت عليك شروطا ، فتركت ما أمرتك به ، وانتهكت ما نهيتك عنه ، أما والله لأعاقبنك عقوبة أُبْلِغ إليك فيها ! » ثم قال لمن حوله : « ائتونى بقميص وعصا وثلثمائة شاة من شاء الصدقة » .

فلما أتوه بها ، قال لعامله : « البس هذا القميص ، وقد رأيت أباك وهذا خير من قميصه ، وهذه العصا خير من عصاه ! واذهب بهذه الشاء فارْعَها ، ولا تمنع السائل منها شيئا ، وأعلم أن آل عمر لا نصيب لهم من شاء الصدقة ولا من ألبانها أو لحومها شيئا » .. والوالى يسيل عرقه ، وكان اليوم شديد الحرارة ، فقال له عمر : « أفهمت ما قلت لك !؟ » فلم يرد ، فكرر عليه عمر السؤال مرة ومرة ، والرجل يعالج عرقه ولا يرد ، ثم وثب ، فرمى بنفسه على الأرض ، وقال من خلال نشيجه : « يا أمير المؤمنين ، ما أستطيع ! فإن شئت فاضرب عنقى ! » ورأى عمر لحمه يترجرج ، وهو يكاد يختنق ، فرثا له ، وأخذته عليه الشفقة ، فقال : « فإن رددتك إلى عملك فأى رجل تكون ؟ » . قال : « لا ترى منى إلا ما تحب » . فرده ، فكان من خيرة عماله حسن سيرة ، وقدوة ، وأسوة ، وقياما بما يصلح الرعية .

وولى عمر رجلا على أحد البلاد المفتوحة ، وجاء طفل لعمر ، فأقعده فى حجره ، فقال الرجل منكرا : « ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ والله ما أخذت ولدا لى فى حجرى قط » . قال عمر : « فما ذنبى إذا كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك ؟ إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

وعدل عمر عن توليته إمرة ذلك البلد !

وجاء إليه أحد عماله ، فبينما هما يتكلمان إذ دخل عليهما طفل لعمر ، فقبله ، فقال الأمير : « ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ أتقبل هذا ؟ فوالله ما قبلت ولدا لى قط » . فقال عمر : « فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة ! لا تعمل لى عملا أبدا » . فعزله عن عمله .

ولقد أطمع ما يفعله مع عماله بعض الرعية فيهم ، فساءوهم ، وجاء إليه بعض عماله فاشتكوا إليه ما تصنعه الرعية بهم ، كما اشتكت بعض الرعية من بعض الأمراء ، فدعاهم عمر جميعا إلى المسجد ، ثم صعد المنبر فقال : « أيتها الرعية ، إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيها الرعاة ، إن للرعية عليكم حقا ، أعلموا أنه لا حلم أحب إلى الله ولا أعم نفعا من حلم إمام ورفقه . وإنه ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعم ضررا من جهل إمام وخرقه . أعلموا أنه من يأخذ بالعافية ممن بين ظهرانيه يرزق العافية ممن هم دونه .. أيما عامل لى ظلم أحدا وبلغتنى مظلمته ولم أغيرها فأنا ظلمته » .

* * *

استجاش عمر مددا كثيفا أرسله إلى سعد بن أبى وقاص ، ليفتح المدائن عاصمة الدولة الفارسية . . ذلك أن الفرس لما انهزموا فى القادسية ، وقتِلَ رستم بطل أبطالهم ، وتوزعوا فى البلاد تتخطفهم قوات المسلمين التى تتبعهم ، رأى لهم ملكهم أن يعتصموا بالمدائن ، وأن يحشد فيها أكثف الجيوش ، ويزودوها بما لا يعرفه العرب من عدة . .

وكلما علم عمر باحتشاد الفرس ، أعد الإمداد لسعد .

فلما عقد عمر ألوية الجيش الذى سيمد به سعدا فى معركته الحاسمة الفاصلة . . قال يوصى الجند : « بسم الله وعلى عون الله . امضوا بتأييد الله . . قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ثم لا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تُمثِّلُوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور (النصر) ، ولا تتكلموا عند الجهاد ، ولا تقتلوا امرأة ، ولا شيخا هرما ، ولا وليدا . . . ولا تغُلّوا (بضم الغين واللام المشددة أى لا تخونوا) عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عَرَضِ الدنيا ، وأبشروا بالأرباح فى البيع الذى بايعتم ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وسار الجيش فى طريقه إلى المدائن ، وكان الوقت شتاء . والبرد شديدا ، وانتهى الجيش إلى نهر ليس عليه جسر ، فقال أمير الجيش لرجل من الجيش : « انزل فانظر لنا مخاضة نجوز منها (يعنى مكانا قليل الماء لنعبر منه) . فقال الرجل : « البرد شديد جدا ، وأخاف إن نزلت الماء أن أهلك » . فأكرهه القائد ، فلما دخل فى الماء ، صدمته برودته ، وأوشكت أطرافه أن تتجمد ، فصاح : « واعمراه ! واعمراه ! » ثم هلك !

وبلغ ذلك عمر ، فنزع قائد الجيش من قيادته ودعاه إليه ، وولّى غيره ، وقال للقائد المخلوع : « لولا أن تكون سنة بعدى لقتلتك به قصاصا ! لا تعمل لى عملا أبدا » . وألزمه دية القتيل !

ذلك أن الفاروق كان يسوس الناس بالحسم ، والرحمة ، وبالحزم ، وبالحكمة .

* * *

وصل المدد إلى سعد فزحف إلى المدائن ، فامتنعت عليه ، فقد قَوَّى الفرس حصونها ، وحشدوا كل قواتهم داخلها ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم !

وكان المسلمون قد عسكروا على شاطىء دجلة الذى يتدفق فيه الفيضان قويا ، والفرس معتصمون بعاصمتهم المدائن على الشاطىء الآخر . . وكان العرب يشفقون من عنفوان الماء المتدفق فى دجلة ، فما ألفوا ذلك فى بلادهم من قبل ، ولا فيما عرفوه من البلاد التى فتحوها .

وقام سعد فخطب الناس ، وقال : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، ويخلصون إليكم فى سفنهم إذا شاءوا . وليس وراءكم ما تخافونه ، فقد كفاكم الله أهل هذه البلاد . وقد رأيت أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا ، وقد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » . فقالوا جميعا : « عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل » .

وجاء رجل فدل سعدا على مخاضة يمكن أن تعبر منها الخيل .

وأشار الصحابى سلمان الفارسى على سعد أن يقدم إليه فرسانا على فرسات إناث ، فإناث الخيل أجرأ على الماء من الذكور ، فإذا خاضت الماء وسبحت ، تبعها الأفراس الذكور ! . . وتقدم سلمان الفارسى وقاد خيل المسلمين إلى غمرات اليم ، فأقحم إناث الخيل الماء فسبحت بفرسانها ، وتبعتها خيل أخرى ، والفرس على الشاطىء الآخر قد ناموا ، وأمنوا ، وأطمأنوا إلى أن العرب لن يعبروا دجلة أبدا . .

وكان سعد على فرسته البلقاء إلى جوار سلمان ، فقال سعد : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن وليه ، وليظَهرن دينه ، وليهزمن عدوه إن لم يكن فى الجيش بغى ولا ذنوب تغلب الحسنات » . فقال سلمان له : « الإسلام جديد » ثم قال للناس : « يا معشر المسلمين إن الله ذلل لكم البحر كما ذلل لكم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده لتخرجُنّ من الماء أفواجا سالمين كما دخلتم فيه ! » .

وعبروا دجلة سالمين ، لم يغرق أحد منهم ، إلا أن رجلا سقط من على ظهر فرسه ، فأخذ القعقاع بيده ، فنجاه .

وحمد سعد الله إلى سلمان الفارسى الصحابى الذى قال عنه الرسول : « سلمان منا آل البيت » .

وسلمان ذو علم نادر بفنون الحرب ، ومن ذلك أنه أشار على الرسول ﷺ ، فى غزوة الأحزاب أن يحفر خندقا واسعا عميقا ليحمى المدينة ، كما يفعل قومه الفرس ، فأخذ الرسول بمشورته ، فلم يستطع الأحزاب أن يبلغوا المدينة ، ورد الله كيدهم إلى نحورهم ، لم ينالوا خيرا . . . وها هو ذا الآن يقهر دجلة بإقحامه ماءه السابحات من إناث الخيل ، ليتبعها ذكور الخيل بمن تحمل من فرسان . .

وبوغت الفرس بالمسلمين أمامهم حيث يعسكرون على الشاطىء الآخر من دجلة ، فخرجوا مروعين هاربين من المدائن ، وتقدم المسلمون وراءهم والفرس يصرخون فى فزعهم : « جاء الشياطين ! » ولاح للمسلمين إيوان كسرى بكل ضخامته وعظمته وبهائه ، وبكل ما يرمز إليه من جبروت ، ودوت أصوات المسلمين : « الله أكبر ! هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله » .

* * *

هرب الفرس بما استطاعوا حمله ، وبمن أتيح لهم اصطحابه من النساء والأطفال ، وكان فى خزائنهم ثلاثة الآف ألف ألف ، أى ثلاثة مليارات قطعة ذهب ، وكان رستم قد أخذ نصفها إلى القادسية فغنمها المسلمون ، وها هم أولاء المسلمون اليوم يغنمون النصف الباقى فى المدائن ، غير الرياش والمتاع ، والآنية والجواهر النادرة .

أما من بقى فى المدائن ، فقد صالحهم سعد على الجزية ، ونزل فى قصر الملك .

ثم مضى سعد إلى إيوان كسرى ، فقرأ قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك أورثناها قوما آخرين) .

ثم صَلّى فى إيوان كسرى صلاة الفتح ثمانى ركعات .

وروى أحد الفاتحين : « لقد سمعت فى ذلك اليوم رجلا يحمل آنية حمراء ، وينادى : من يأخذ آنية حمراء بآنية بيضاء ، لآنية من ذهب خالص ، وهو لا يعلم ، إذ حسبها نحاسا !! » .

وأقبل على سعد بن أبى وقاص رجل فارسى من أهل المدائن ممن صالحهم المسلمون على الجزية ، وممن عانوا من حكم ملكهم الفارسى المستبد ، قال الرجل : « أنا أدلكم على طريق تدركون فيه القوم قبل أن يمعنوا فى السير » .

فقدمه سعد ، واتبعه بخيله ، فقطع الرجل بهم صحارى وأنهارا ، وجعل سعد على جيشه عمرو بن مالك ، فبلغوا موقعا تحصن فيه الفرس عند جلولاء ، ووقفوا ينتظرون الإمداد ، وتوافى عسكر كثير على الفرس فى جلولاء ، فقال العرب لقائدهم : « ما تنتظر بمناهضة القوم وهم كل يوم فى زيادة ؟ » فكتب إلى سعد يطلب منه مددا ، فأمده ، وأمره بالقتال . وخرج عمرو بن مالك بالمسلمين ، وجعل على ميمنته عدى ، وعلى المشاة طليحة ، وعلى الفرسان عمرو بن مَعْدِ يكَرِب . قال فارس منهم يصف المعركة : « ترامينا بالسهام حتى أنفدناها ، وتطاعنّا بالرماح حتى كسرناها ، ثم أفضينا إلى السيوف وعمد الحديد ، فاقتتلنا يومنا ذلك كله إلى الليل ، ولم يكن لنا صلاة إلا إيماء وتكبيرا ، حتى أنزل الله نصره ، فهزمنا العدو ، وأغنمنا الله معسكرهم » .

ولّى الفرس فرارا من المسلمين مرة أخرى فقد ملئوا منهم رعبا ! ، وتركوا كل ما فى المعسكر ومن فيه ، حتى نساءهم وأولادهم !!

قال أحد الفاتحين : « دخلت فى معسكرهم بجلولاء إلى فسطاط (مخيم) ، فإذا أنا بجارية على سرير فى جوف الفسطاط ، كأن وجهها القمر ، فلما نظرت إلىّ فزعت ، وبكت ، فأخذتها ، وأتيت الأمير عمرو بن مالك ، فاستوهبته إياها ، فوهبها لى ، فأخذتها أم ولد » .

وغنم رجل آخر فى فسطاط لأحد عظماء الفرس ناقة من ذهب موشحة باللؤلؤ ، والدر الفريد ، والياقوت ، عليها تمثال رجل من ذهب ، وكانت الناقة الذهبية فى حجم الغزالة ، فدفعها إلى المكلف بقبض الغنائم .

وأصاب المسلمون يوم جلولاء غنائم لم يغنموا مثلها قط ، وسبوا كثيرا من بنات أحرار فارس ، فلما علم عمر بذلك قال : « اللهم إنى أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات ! » .

كان ملوك الفرس قد غنموا من قبل فى حروبهم مع جيرانهم كنوز ملوك الهند والترك والروم وسيوفهم . . فغنم العرب هذا كله ، كما غنموا سيف هرقل

الذى كان الفرس من قبل قد غنموه خلال حربهم مع الروم . وقد طلب سعد من القعقاع أن يختار من السيوف التى غنموها سيفا ، فاختار سيف هرقل هذا . .

كما غنموا من المدائن قبابا مملوءة بآنية الذهب والفضة ، وما لا يحصى من الجواهر ، وفرائد الدر والياقوت والمرجان والحلى ، والزبرجد ، وتماثيل لحيوانات ولرجال من الذهب محلاة بالأحجار الثمينة ، وتيجانا فيها تاج كسرى ، غير الملايين من الأموال .

وكان مما غنمه المسلمون بساط طوله نحو ستين ذراعا وعرضه مثل ذلك ، (كانت الأكاسرة إذا جاء الشتاء وذبلت الرياحين ، شربوا عليه ، فكأنهم فى رياض ، ففيه وشى كالقصور ، وفصوص كالأنهار ، أرضه مذهبة ، وخلال ذلك فصوص الدر ، وفى حافته كالأرض المزروعة بالنبات والورق والبقول من الحرير على قضبان من الذهب ، وأزهاره الذهب والفضة ، وأثماره الجواهر وأشباه ذلك) .

وقد أرسل سعد خمس الغنائم من كل شىء ، وحاول أن يرسل خمس البساط ، فلم يستطع قسمته خمسة أخماس ، فقال للناس : « هل تطيب نفوسكم بأن نبعث به إلى أمير المؤمنين يضعه حيث يشاء ؟ » قالوا : « نعم » فبعث به إلى عمر ، مع خمس الغنائم من الفرائد والنفائس والأموال ، وجعل فيما بعثه تاج كسرى ليراه العرب جميعا . .

وكذلك غنائم جلولاء ، بعث سعد بخمسها إلى عمر ، وكان خمس مالها الذى غنمه المسلمون ستة آلاف ألف ، غير النفائس . .

وصلت غنائم المدائن وجلولاء إلى المدينة مساء ، فأمر عمر بأن تُغَطّى ، وأقام عليها عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانها فى المسجد .

فلما أصبح عمر ، واجتمع الناس فرحين بالنصر وبالغنائم والسبايا ، جاء عمر فكشف عن الغنائم ، والناس فى فرح عظيم ، ونظر عمر ما فى الغنائم من جواهر كثيرة نادرة ، ومن نفائس أخرى لا نظير لها ، فبكى !

فقال له عبد الرحمن بن عوف : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟! فوالله إن هذا لموطن شكر ! » قال عمر : « والله ما ذلك يبكينى ، وبالله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم ! » .

واستشار عمر المسلمين فى أمر هذا البساط العجيب ، فقال أحدهم : « هو لأمير المؤمنين » .

فضربه عمر بالدرة ، وقال : « والله ما أردت الله بقولك هذا ! إن أردت إلا هلاكى ! » .

فأجمع المسلمون على قطع البساط قطعا صغيرة بالقدر الممكن ، وتوزيعه على الناس .

فقطعه عمر بينهم ، فأصاب على بن أبى طالب قطعة منه ، لم تكن أجود من غيرها ، فباعها بعشرين ألفا ، تصدق بها !

فتح الفتوح

تعود الصحابة أن يستبقوا الخيرات ، وأن يتصدقوا بما يصيبون من مال المغانم أو العطاء ، وكان بعضهم يتاجر فى هذا المال فيكسب منه أضعافا مضاعفة ، وآلافا مؤلفة ، فيعيش عيشة طيبة ، ويتصدق ، ولكن منهم من كان يحرم نفسه من الطيبات ، ويعيش على الكفاف على الرغم من وفرة عطائه ، وضخامة نصيبه من المغانم !

وقد أراد عمر أن يمتحن بعض الأثيرين لديه من الصحابة ، ليطمئن قلبه إلى أن تدفق الأموال لم يغير ما فى أنفسهم ، فاختار لذلك رجلا من المهاجرين ، ورجلا من الأنصار .

ودفع عمر إلى غلامه بِصُرَّةٍ فيها أربعمائة درهم ، وأمر غلامه أن يذهب بها إلى فلان من المهاجرين . وقال عمر لغلامه : « قل له : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك » .

ثم أمر غلامه : « ثم تشاغل فى بيته ساعة حتى تنظر ما يصنع بها » .

فلما دفع الغلام إلى المهاجر بالصرة قال بعد أن شكر الغلام : « وَصَلَ الله أمير المؤمنين ورحمه » . ثم قال : « تعالى يا جارية ، أذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان » . وما زال يوزع ما فى الصرة حتى نفد كله .

فرجع الغلام إلى مولاه أمير المؤمنين ، فأخبره بما كان من أمر المهاجر ، فأعطاه صرة أخرى ، ووجّهه إلى فلان من الأنصار ، وأمره أن يقول له ما قاله للمهاجر .

فقال الغلام للأنصارى كما أمره أمير المؤمنين ، فصنع الأنصارى بالصرة كما صنع المهاجر . .

فجاءت امرأة الأنصارى ، فقالت له : « ونحن والله مساكين فأعطنا ! » . ولم يكن قد بقى فى الصرة غير دينارين ، فدفع بهما إليها . .

فلما رجع الغلام إلى عمر ، وروى له خبر الأنصارىّ ، تبسم عمر ، ثم قال : « إنهم إخوة بعضهم من بعض » .

أخذ عمر يتأمل ما غنمه المسلمون من الفرس ، وبهره ما يرى من ثياب كسرى ، وسيفه ، وتاجه !

فنظر إلى القوم من حوله ، فاختار أطول القوم ، وأشبههم بقامة كسرى وإذ هو أعرابى اسمه سراقة ، فقال له : « يا سراقة ، قم فالبس ملابس كسرى وتاجه ، وأرنا ننظر إليك » فقام سراقة فلبس . فقال له عمر : « أقبل » فأقبل ، ثم قال له : « أدبر » فأدبر .

فقال عمر : « بخٍ ! بخٍ ! (للاستحسان والتعجب) إعرابى عليه قباء كسرى ، وسراويله ، ومنطقته ، وخُفَّاه ، وتاجه !! » ثم قال عمر للأعرابى : « أنزع الثياب » . فنزعها .

وأغرورقت عينا عمر ، وتهدج صوته ، وقال : « اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ! ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ! ثم أعطيتنيه لتبلونى به ! » .

ثم بكى عمر حتى رحمه الذين كانوا معه ، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف : « أقسمتُ عليك بالله ألا بعتَه ، ثم قسمته » .

وجاءه عبد الله بن الأرقم بحلى وأوان من ذهب وفضة ، ونفائس من در وزبرجد وياقوت ومرجان ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، انظر ما تأمرنا فيها ؟ » فأمر أن يبسطوا له بساطا من الجلد . وقال له : « صب عليه ما عندك » .

فلما رآها ، وشاهد الناس يحملقون فيها ، وبريقها يكاد يخطف الأبصار ، قال : « اللهم إنك ذكرت هذا المال فقلت : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) . وقلت فى كتابك الكريم : (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) » .

وسكت عمر قليلا ثم أكمل : « اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت !

اللهم إنى أسألك أن تضعه فى حقه ، وأعوذ بك من شره » .

ثم جلس يقسم الغنائم والأموال ويوزعها ، فبدأ بأزواج النبى ﷺ ، ثم بأهل بدر ، ثم بإخوانهم من المهاجرين والأنصار ، وأعطى ابنه عبد الله وهو صحابى دون نظرائه !

فأتاه عاتبا : « يا أمير المؤمنين ، تضرب لى دون نظرائى ؟! » قال : « يا عبد الله بن عمر ، إن لك أسوة فى عمر ! لا يسألنى الله يوم القيامة أنت ملت إلى أحد ! »

وجعل عمر يتعجب وهو يقلب النفائس والأموال ، وتاج كسرى ، ثم قال لعلى : « يا أبا الحسن ، إن قوما أدُّوا هذا لأمناء » فقال على : « يا أمير المؤمنين ، إن القوم رأوك عففت فَعَفُّوا ، ولو رتعت لرتعوا ! » .

وبينما عمر يوزع على الناس ، إذ رفع رأسه فرأى غير بعيد رجلا فى وجهه أثر جرح غائر ، فسأله عن جرحه ، فقال له إنه من ضربة سيف أصابته فى غزوة مع المسلمين ، فدعاه عمر إليه ، وقال : « عدُّوا ألف درهم » . فأعطى الرجل الألف . قال عمر : « عدُّوا له ألفا ثانية » فأعطى ألفا ثانية ، فقال عمر : « عدوا له ألفا ثالثة » فأخذها الرجل ، فأمر عمر له بألف رابعة ، فاستحيا الرجل من كثرة ما يعطيه ، فخرج مسرعا ، وفوجىء به عمر قد اختفى ، فسأل عنه ، فقيل له : « إنا رأينا أنه استحيا من كثرة ما تعطيه فخرج ! » قال : « أَما والله لو أنه مكث ما زلت أعطيه ما بقى منها درهم ! » .

وكان عبد الله بن عمر وأخوه عبيد الله فى جيش العراق ، فلما أرادا أن يعودا إلى المدينة ، قال لهما عامل عمر على العراق : « لو أقدر على أمر أنفعكما به ! » .

وكان يرى فقرهما وتضييق أبيهما عليهما دون سائر الناس .

وأهتدى الرجل إلى ما يساعدهما به ، قال : « ها هنا مال من مال الله ، أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ، فأسلفكماه ، فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ، ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ، ويكون لكما الربح » . قالا : « وددنا ذلك ! » فأعطاهما المال ، وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين .

وأتيا المدينة ، فباعا وربحا ، ودفعا رأس المال إلى أبيهما ، فقال : « أكل الجيش أسلفه مالا ؟ » قالا : « لا يا أمير المؤمنين » . قال : « أسلفكما المال لأنكما أبنا أمير المؤمنين ! » أَدِّيَا إلىَّ المال وربحه ! » .

فسكت عبد الله ، ولكن عبيد الله قال : « ما ينبغى لك هذا يا أمير المؤمنين ! لو نقص هذا المال أو هلك كنا ضمناه » فقال عمر : « أَدِّيَاه » فسكت عبد الله ، وراجعه عبيد الله مرة أخرى . فقال أحد الجالسين : « يا أمير المؤمنين ، لو جعلته قِراضا ! » (القراض بكسر القاف أن يتاجر إنسان بمال آخر ، ويقتسمان الربح) .

فأخذ عمر رأس المال ، ونصف ربحه ، وأخذ عبد الله وأخوه عبيد الله نصف ربح المال .

* * *

ولقد أسعد عمرُ الناسَ جميعا بغنائم المدائن وجلولاء ، وحضهم عمر على تنمية أموالهم بالتجارة ، إلا ابنه عبد الله بن عمر ، فقد ضيق عليه ، ولم يسمح له بما حض عليه الآخرون .

قال عبد الله بن عمر : « شهدت معركة جَلُولَاء بفارس بعد معركة القادسية ، واشتريت من الغنائم بأربعين ألفا كما اشترى غيرى ، وربما كنت أقلَّهم ، فلما عدتُ إلى المدينة ، نادانى أمير المؤمنين وقال : يا عبد الله بن عمر ، لو أُلْقِىَ بعمر فى النار ، أكنتَ له مفتديا ؟ قلت : نعم ، بكل ما أملك من مال ومتاع . قال : فإنى بك مُخَاصَم (بفتح الصاد) ، وكأنى بالناس فى جَلُولَاء يقولون هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين ، وأن يرخصوا لك كذا وكذا درهما أحبُّ إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم ! فبع تجارتك وأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش .

« ثم تركنى سبعة أيام ، ثم استدعى التجار ، فباع إلى التجار بضاعتى بأربعمائة ألف درهم ، وأعطانى منها ثمانين ألفا ، وأرسل ثلثمائة وعشرين ألفا إلى سعد بن أبى وقاص ، وقال له : « اقْسِمْ هذا المال فيمن شهد الوقعة ، فمن كان منهم قد مات فابعث بنصيبه إلى ورثته » .

ثم إن عمر أبقى عبد الله معه فى المدينة مع من أبقى من كبار الصحابة ، عندما تدفقت الأموال من الفتوحات ، خشية أن تفتنه الأموال والسبايا ، وقال له حين استأذنه فى الخروج للجهاد : « اجلس حيث أنت ، فإنى أخاف عليك الفتنة » . قال عبد الله : « أوَعلى مثلى تتخوف ذلك ؟ » قال : « نعم ، تلقون العدو ، فيمنحكم الله أكتافهم ، فتقتلون المقاتلة ، وتسبون الذرية ، وتجمعون المتاع ! فتقام جارية حسناء فى المغنم ، فَيُنَادى عليها ، فتُساوِمُ بها (تعرض ثمنها لتصبح ملك يمينك) ، ويتراجع الناس عنك ، يقولون : ابن أمير المؤمنين يريدها ، ولله ورسوله وللمؤمنين فيها حق ! اجلس حيث أنت ! » .

* * *

ذات يوم جاء أحد وجوه قريش ممن أسلموا يوم فتح مكة إلى عمر ، فقال : « يا أمير المؤمنين لست آخذا من هذا المال أقل ممن هو دونى ! » قال عمر : « ثكلتك أمك ! إنما أعطى على السابقة فى الإسلام لا على الأحساب » .

وخرج عمر إلى الطريق يوما فوجد جملا يحمل ما فوق طاقته ، فنادى صاحبه ، فضربه بالدرة ، وقال له : « حملت جملك ما لا يطيق ! » .

ومضى إلى السوق يتفقد أحوال الناس كما تعود ، وكان إذا مشى أسرع ، فأتت امرأة شابة فأسرعت خلفه ، حتى لحقته ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، هلك زوجى ، وترك لى صبية صغارا ، وما لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت عليهم الجدب ، وأنا ابنة خفاف بن أيمن الغفارى ، وقد شهد أبى الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فوقف معها عمر ، ولم يمض إلى السوق ، ثم أتى بجمل من جمال الصدقة ، وحمل عليه غرارتين (كيسين كبيرين) ، ملأهما دقيقا ومتاعا وطعاما وثيابا ونفقة ، ثم ناولها زمام الجمل ، وقال لها : « اقتاديه ، فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير ! » فقال رجل : « يا أمير المؤمنين ، أكثرت لها ! » قال : « والله إنى رأيت أبا هذه وأخاها ، قد حاصرا حصنا بخيبر زمانا فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستفىء سهامنا فيه » (أى ينالون نصيبهم من مغانم خيبر) .

وإنه لفى طريقه إلى السوق بعد أن أرضى بنت الشهيد ، إذ بركب يقبلون عليه يحثون رواحلهم ، فلما نزلوا وجد ركائبهم مجهدة يتصبب منها العرق ، وتكاد

تترنح من الإعياء ، فقال : « أما اتقيتم الله فى ركائبكم هذه ؟ أما علمتم أن لها حقا ؟! ألا خلّيتم عنها ، فأكلت من نبت الأرض » . قال أميرهم : « يا أمير المؤمنين ، إنا قدمنا إليك بفتح عظيم ، فأحببنا الإسراع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرهم » .

إنهم قدموا بفتح عظيم حقا . . لقد فتحوا إنطاكية !

وكانت إنطاكية فى دولة الروم مثل القادسية والمدائن فى دولة الفرس ، وإن لم تكن هى العاصمة . . لكن الأباطرة كانوا يفضلونها على العاصمة القسطنطينية . . وقد عمروا إنطاكية بالمعابد والملاعب والحمامات ودور اللهو ، فكانت فى كل عهودها أثيرة لديهم : فى عهودها الوثنية ، وفى العهد المسيحى ، وكانت بحكم موقعها على البحر ، وعلى طرق القوافل إلى آسيا والعراق ، مركزا عظيما للتجارة . . وكانت فوق ذلك عاصمة دينية ، فالمسيحيون أتباع المذهب الذى اختاره هرقل من بين المذاهب المسيحية ، وفرضه على رعاياه قسرا وقهرا ، هؤلاء كانوا يزعمون أن الذى حمل المسيحية إلى إنطاكية ونشرها فيها هو أحد أعز حواريِّى المسيح عليه السلام : وهو القديس بطرس .

ولأنّ إنطاكية كانت عزيزة على أباطرة الروم ، فقد حصنوها بالأسوار العالية الشاهقة التى امتنعت دائما على الغزاة . . وكانت الجبال التى تطوق المدينة من بعض أقطارها تكوّن حصونا هيأتها لها الطبيعة ، وجعلتها أشد منعة .

وكان الروم كلما هزمهم العرب وأجلوهم عن بلد من بلاد الشام ، فرُّوا إلى إنطاكية ، حتى هرقل لاذ بها ، وعاش فيها ينتظر ، ورأى أن يحصنها من البحر ، وأن يمدها بقوى لا قبل للعرب بها ، فالعرب لا علم لهم بالبحر ، ولا سبيل لهم عليه . .

ولكن سمعة العرب سبقتهم إلى إنطاكية ، فقد كان رعايا هرقل يعانون من استبداده ، ومن قهرهم على اعتناق مذهبه المسيحى دون سائر المذاهب المسيحية ، وكانوا يئنون من فداحة الضرائب ، وعربدة المظالم عليهم ، وقد علموا أن العرب فى كل بلد فتحوه أحسنوا معاملة الناس ، وأقاموا العدل والإنصاف ، وبثوا مكارم الأخلاق . . حتى لقد قال بعض أهل البلاد التى فتحها

العرب لطائفة من الروم حاولت أن تغريهم بالثورة على الحكم الإسلامى : « إنا رأينا المسلمين خيرا لنا منكم » .

زحف أبو عبيدة بن الجراح بقواته إلى إنطاكية ، وفى طريقه حاصر حلب ، فلما استعصت عليه بحصونها الشاهقة ، تظاهر بالابتعاد عنها ، فأَمنَ أهلها وفتحوها ، وحفر خنادق وضع فيها جنده ، ثم باغت أهلها ، ودخلها ، فاستسلم أهلها !

استولى أبو عبيدة على حلب ، ثم صعد إلى إنطاكية ، فلم تثبت له طويلا على الرغم من حصونها المنيعة ، إذ هرب منها هرقل بجنده ، فقد خاف عليها الدمار بعد الهزائم المتتالية التى ابتلى بها الروم فى الشام !

وسلمت إنطاكية ، فصالحها أبو عبيدة على الجزية ، وأصبح أهلها فى الذمة : أى فى ضمان المسلمين ، وحمايتهم ، ولهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . . وأوصى أبو عبيدة جنده بحسن معاملتهم ، كما كان يوصيهم فى كل مرة بحسن رعاية أهل الذمة ، لأنهم فى ذمة الله ورسوله ، وما زال أمير المؤمنين فى المدينة يذكّر جنده بما قاله الرسول ﷺ وهو يأمر المسلمين أن يستوصوا بأهل الذمة خيرا : قال عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذميا فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ! » .

فأى مسلم يرضى له إيمانه أن يؤذى الله ورسوله !!؟ .

وهكذا ، لما قارن أهل الذمة بين حكم المسلمين وبين حكم هرقل ، ساعدوا المسلمين على الروم . . ودخل منهم فى الإسلام غير قليل .

وانهار هرقل ، فقد خسر الشام كله ، ولم يعد له موطأ قدم فى سوريا ، هو الذى استطاع منذ عشرة أعوام فحسب أن يهزم الفرس ، وأن يستخلص منهم الشام ومصر فى بضع سنين ، بعد أن غلبت الروم . .

وحقت النبوءة أنهم من بعد غَلَبهم سيغلبون !

أما اليوم فما حيلة الروم أمام هؤلاء العرب الذين يقبلون من الصحراء بعقيدة جديدة تدعو إلى المساواة ، وإلى الانتصار للضعيف على القوى ، وإلى العدل والإحسان ، وإلى فضائل جديدة ؟! أما اليوم فلا حيلة أمام هؤلاء المؤمنين . .

اليوم غُلِبْتَ الروم ، ولن يعود لهم سلطان آخر الدهر على أرض سطعت عليها تعاليم هذا الدين الجديد : الإسلام !

أدرك هرقل الذى انهارت قواه أنها نهاية دولته . . حقا . . حقا غلبت الروم !

وأسرع إلى القسطنطينية . . وعندما كانت مرائى سوريا تغيب عنه ، أشرف على مرتفع من الأرض ، ونظر إلى سوريا متخاذلا باكيا ، وقال من خلال الدمع : « سلام عليك يا سوريا ، سلام عليك لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومىٌّ أبدا إلا خائفا ! » .

* * *

ما عسى أن يصنع المسلمون بكل ما غنموه من أرض العراق والشام وفارس ؟!

أرسل سعد يسأل عمر عما يفعله بالأرض الشاسعة التى فتحها فى العراق وفارس ؟ أيوزعها كما وزع الرسول أرض خيبر . . وإذا وزع أربعة أخماسها على المجاهدين الذين فتحوها ، فما عساه يصنع بالخمس الذى هو سهم الأمة ؟!

إن المقاتلين يستحثون سعدا ليوزع عليهم الأرض الشاسعة ، ولكنه ينتظر فى ذلك أمر أمير المؤمنين ، فلم يسبق للمسلمين أن غنموا أرضا بهذه السعة وهذا الغنى .

خشى عمر أن يطمئن هؤلاء المجاهدون إلى الأرض ، ويستلينوا طيب العيش فيها ، ويُذْهبوا حسناتهم بنعيم الدنيا ، ويكرهوا الضرب فى الأرض جهادا فى سبيل الله ! ولكن ما حاجتهم إلى امتلاك الأرض ، وعطاؤهم من بيت المال يأتيهم ، وهو فوق الكفاية ؟!

ثم كيف يمكن أن يملك بضعة عشر ألف من المقاتلين هذه الأراضى المفتوحة ، ويورثوها لأبنائهم ، فيمتازوا على سائر الناس ، وتأتى من بعدهم أجيال لم يورثهم آباؤهم شيئا ؟! . . أعدل هذا ؟! إن الآية الكريمة فى سورة الأنفال نظمت توزيع الغنائم ، فقضت بأن توزع أربعة أخماسها على الغانمين ، ويوجه الخمس إلى بيت المال للإنفاق على المصالح العامة . هذا حق . . ولكن

الأحوال تغيرت ، فيجب ألا يطبق النص القرآنى بظاهره ، يجب تحرى المصلحة وهى أهم مقاصد الشريعة .

كان الفرس والروم إذا غزوا استولوا على الأراضى ، ولم يتركوا شيئا لأهل البلاد ، أو لزارعى الأرض أو العاملين فيها أو فالحيها ، من أجل ذلك كرهوهم ، وأعانوا عليهم المسلمين !

فهل يستوى الذى يظلمون ، والذين جاءوا بالهدى مبشرين ؟!

كيف يسمح الفاروق بأن تكون الفتوحات الإسلامية أداة لإنشاء طبقة من الناس فوق الناس ، وما شرع الله هذه الفتوحات ، وما جاء نصر الله والفتح ، إلا لنشر الدين ، وإلا ليشيع المؤمنون العدل والإحسان ، ويخرجوا بالناس من الظلمات إلى النور ، ويأخذوهم بمكارم الأخلاق ؟! .

ثم ما بال بيت المال الذى يقوم على مصالح المسلمين إن حُرِم مما عسى أن تعود به عليه هذه الأراضى المفتوحة من مال ، ليستأثر به بعض الناس دون كل الناس !؟ ومن يحمى الذمار ، ويسد الثغور ، ويصد الأعداء إن طمعوا فى أرض الإسلام ؟!

أرق عمر من كثرة ما ركبه من هم الأرض المفتوحة ، حتى إذا صلى الصبح بالناس ، صعد المنبر ، وقد غشيه من الجهد ما غشيه ، وحدثهم عن حكم تلك الأرض المفتوحة ، التى ما ينبغى أن يقفوا فيها عند ظاهر نص الآية الكريمة : (واعلموا إنما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . .) لقد تغير الزمان ، وجدت أمور . .

قال الفاروق : « كيف بمن يأتى من المسلمين ، فيجدون الأرض بعُلوجها (جمع عِلْج بكسر العين وسكون اللام وهو غير المسلم من غير العرب) قد اقتُسِمت ووَرِّثَتْ عن الآباء ؟! ما هذا برأى ! » .

وضج أقوام ، ووثب عبد الرحمن بن عوف فقال : « فما الرأى ؟ ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم » .

قال الفاروق : « ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لا يُفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نَيْل (أى ننال منه مالا) ، بل عسى أن يكون كَلاًّ :

(الكل : بفتح الكاف واللام المشددة هو العبء والثقل) ! فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فماذا تَسَدُّ به الثغور !؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟! » .

فأكثروا على عمر ، وكان أشدهم عليه عبد الرحمن بن عوف ، قالوا : « أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا (أى لم يغزوا) ، ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم وهم لم يحضروا ؟ ! » .

قال عمر : « هذا رأيى » .

فلما اشتدوا عليه جمع المهاجرين الأوائل : فاختلفوا ، فأكثرهم وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن عوف يرون أن تقسَّم أربعة أخماس الأرض على الغزاة ، فما الأرض إلا غنيمة من الغنائم ، يجب أن تكون قسمتها كما قضت الآية الكريمة فى سورة الأنفال .

ورأى عثمان وعلى وطلحة وعبد الله بن عمر رأى عمر ، ولم يرض أى الفريقين عن رأى الآخر ! والمدينة تحتدم ، والخلاف يوشك أن يمزقها ، بعضهم يتهمون عمر بأنه يظلمهم ، ويحرمهم حقوقهم وهو الذى ما حرص على شىء قدر حرصه على العدل !

واتهم بعضهم عمر بأنه يعدل عما قضى الله به لهم فى القرآن ، ليأخذ برأيه ورأى بعض الصحابة ! .

فجادلهم على ، وقال لهم إن عمر إنما يتحرى الأهداف العامة للشريعة ، وإنه إنما يعدل عن ظاهر نص إلى الأخذ بنص آخر ، ساق الله فيه الحكم وعِلَّته . . إنه يأخذ بما قال الله تعالى فى سورة الأنفال : « وأعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه والرسول . . » أى أن أربعة أخماسه للفاتحين ؛ لكنه تعالى قال فى سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذِى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ثم حددت الآيات مصارف أخرى لهذا المال ، فذكرت المهاجرين والأنصار ، والذين يجيئون من بعدهم . .

اتفق رأى عمر مع رأى على أن هذه الآيات استوعبت المسلمين عامة ،

فليس أحد منهم إلا له فيها حق ، كما أن الله قضى فى هذه الآيات أن يوزع المال على عامة المسلمين ، لكيلا يظل حكرا على الأغنياء ، يتداوله الأغنياء فحسب ! وقال عمر وهو يحاور بعض الذين اشتدوا عليه : « لئن عشت ليأتين الراعى فى أقصى الأرض نصيبه لم يعرق فيه . » .

وجعل على بن أبى طالب كرم الله وجهه يوضح للذين غاضبوا عمر رضى الله عنه ، ما اتفق عليه رأياهما فى حكم الأرض التى أفاءها الله للمسلمين ، وأكثرها فتحوها صلحا ، بعد أن ألقى الله الرعب منهم فى قلوب الأعداء ، وألح على بن أبى طالب عليهم أن يتدبروا ويتفكروا فى حكم الله الذى ورد فى تلك الآيات من سورة الحَشْر ، التى لم تترك أحدا من المسلمين إلا جعلت له فى الفىء حقا :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فَلِلَّه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تَبَوَّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .

أما الفاروق فأرسل إلى الأنصار أن يختاروا منهم عشرة من حكمائهم ، وأهل الرأى والفتوى والورع والعلم : خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، فلما اجتمعوا بين يديه قال لهم : « إنى لم أزعجكم إلا لتشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الرأى الذى هو هواى ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحق » .

قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين » .

قال : « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته لغيرهم لقد شقيت ، ولكنى رأيت أنه لم يبق شىء يُفتح بعد أرض كسرى ، وقد أغنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه (أى لا يزال فى يدى منه شىء وسأوجهه إلى من يستحقه) . وقد رأيت أن أحبس الأَرْضِينَ (أى الأراضى) بعلوجها ، وأضع عليهم الخراج (الضرائب) ، وفى رقابهم الجزية (أى يفرض الجزية على كل نسمة) ، يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة ، والذرية ، ولمن يأتى من بعدهم ؛ أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والبصرة وغيرها ، لابد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولابد من إدرار (إغداق) العطاء عليهم ، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضين والعلوج ؟! » .

فقالوا جميعا : « الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت يا أمير المؤمنين ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوُّون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم » .

قال : « قد بان لى الأمر » .

فلما اتفقوا على هذا الرأى اختار عمر رجلا من أهل البصر والحكمة والتجربة ، ليرى كم من الخراج ينبغى لكل أرض ، وأقر العلوج العاملين فى الأرض على أرضهم ، يفلحونها ، ويؤدون عنها الخراج .

بهذا الفهم العميق لمقاصد الإسلام العامة ، دون الوقوف على ظاهر النصوص الخاصة ، فهم عمر الأحكام ، فاستنبط ، وواجه ، واقتحم الغمرات ، يساعده على ذلك اجتهاد الفقهاء من كبار الصحابة ، وحسن التأتـى لما تطرحه الحياة الجديدة من مطالب وحاجات . وبهذا الفهم وضع حق الارتفاق على حق الملكية ، فلم يجعلها حقا مطلقا ! شق رجل مجرى ماء إلى نهر صغير ليروى أرضه ، وأراد أن يمر به على أرض لمحمد بن سلمة ، فمنعه ، فقال الرجل : « لم تمنعنى وهو لك منفعة تشرب به أولا وآخرا ، ولا يضرك ؟! » فأبى محمد ، فشكا الرجل إلى الفاروق ، فدعا محمدا ، وكان حبيبا إليه ، فقال له :

« يا محمد ، لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع تشرب منه أولا وآخرا ولا يضرك ؟ » قال محمد : « لا والله يا أمير المؤمنين » فقال عمر : « والله ليَمُرَنَّ ولو على بطنك ! » .

* * *

اطمأن عمر واطمأن أهل المدينة إلى إبقاء الأرض فى أيدى الفلاحين وفرض الخراج عليها ، فأرسل عمر إلى سعد بن أبى وقاص : « بلغنى كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائم ، وما أفاء الله عليهم ، فانظر ما جلبوا لك فى المعسكر من كراع (أى عدد حربية ومنقولات من أسلحة وخيل ومتاع ونحوه) أو مال ، فاقسمه بين من حضر من المسلمين (أى شهد الغزو) ، وأترك الأرض والأنهار لعمالها ، فإنّا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء » .

وعلى الرغم من ذلك فقد رأى جماعة من المسلمين أن يقسم الأرض على غزاة أرض الشام ، كما قسم الرسول أرض خيبر ، وكان أشدهم عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح ، وكان عمر يقول عن بلال : « سيدنا » . فأرسل عمر إلى فاتحى الشام : « إذن أترك من بعدكم المسلمين لا شىء لهم ! اللهم أكفنى بلالا وأصحابه ! » .

وقد نهى عمر المسلمين عن شراء الأرض التى أبقاها فى أيدى فلاحيها ، وضرب عليها الخراج ، قال : « لا تبتاعوا أرض أهل الذمة » .

أما البلاد التى فتحت صلحا ، فلم يضرب عمر خراجا على أرضها ، بل اكتفى بشروط الصلح ، وكان الصلح يفرض جزية على كل رأس ، فالجزية على الرءوس ، وليست على الأرض .

* * *

بدأت الجزية فى الإسلام بما سنه الرسول عليه الصلاة والسلام لما فتح اليمن : « من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية ، فمن أدى ذلك إلى رسلى فإن له ذمة الله ورسوله (أى حمايته ورعايته) ، ومن منعه منكم ، فإنه عدو الله ورسوله والمؤمنين » .

وإذن فالأرض التى فتحت صلحا هى لأهلها ، لأنهم منعوا بلادهم حتى صولحوا عليها ، وعلى كل فرد منهم الجزية بمقتضى الصلح ، أما الأرض التى فتحت عنوة أى بالحرب ، فهى فىء للمسلمين على نحو ما فعل عمر ، تبقى بأيدى عمالها ، ويضرب عليها الخراج ، أى تفرض عليها الضريبة .

ولقد أمر الرسول ﷺ المسلمين برعاية أهل الذمة الذين يؤدون الجزية ، ونهى عن ظلمهم . قال : « ألا من ظلم معاهدا (أى ذميا) أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه (أى مخاصمه) يوم القيامة » .

أتى عمال الخراج لعمر بمال كثير من الخراج ، فقال للجباة : « إنى لأظنكم أهلكتم الناس ! » قالوا : « لا والله ، ما أخذنا إلا عفوا صفوا » قال : « بلا سوط ولا نوط ؟ » (نوط على وزن سوط حلقة يعلق بها المرء ويضرب) . قالوا : « نعم » قال : « الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا بسلطانى » .

كان إذا جاءه الخراج لا يكتفى بشهادة عمال الخراج بأنهم لم يظلموا فيه أحدا ، أو يقهروه ، بل يطلب عشرة من أتقياء كل بلد ، ليشهدوا بالله أربع شهادات أن هذا الخراج طيب ، ما ظُلِمَ فيه أحد من أهل الذمة . .

* * *

دعا عمر صحابة رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إذا لم تعينونى ، فمن يعيننى ؟ » قالوا : « نحن نعينك » فأرسل بعضهم يجبون الضرائب ، فلما جاءوه بالمال الوفير ، حمد الله وقال : « ما رأيت مالا مجتمعا قط أكثر من هذا ، ولكنى أستحلفكم بالله : أفيه دعوة مظلوم ، أو مال يتيم أو أرملة ؟ فبئس والله الرجل أنا إن رضيت به ! » .

وما زال بهم حتى شهدوا أربع شهادات أنه لمال طيب .

ذلك أن عمر سار على السنة فى الحرص على الرعية وحقوقها ومصالحها ، سواء كانت الرعية من المسلمين أو الذميين .

من أجل ذلك أسقط الجزية عن مرضى وضعفاء أهل الذمة الذين لا يستطيعون أن يعملوا ويكسبوا ، بل فرض لهم معونات من بيت المال . . رأى

يهوديا شيخا يتسول ، فأمر أمير بلده أن يعينه بعطاء شهرى من بيت المال ، وكتب إلى الآفاق أن ينال فقراء أهل الذمة من النصارى واليهود وغيرهم ما يصلح شئونهم . كما أسقط الجزية عن الرهبان فى الأديرة والصوامع ، وما زال يوصى المسلمين بأن يدافعوا عن أهل الذمة ، وأن يقاتلوا دونهم ، وأن يفادوا أسراهم إذا وقعوا فى أيدى عدو المسلمين .

وهكذا غشيه هم عظيم من أمر أهل الذمة ، حتى لقد أوصى الخليفة بهم من بعده : « أوصى الخليفة من بعدى بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ خيرا ، أن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم » (أى أن يقاتل المسلمون عنهم دون أن يشهدوا هم الحرب) .

وكان عمر يعفى الذمى من الجزية إذا تطوع للقتال مع المسلمين . .

وفرض عمر ضرائب أخرى على التجارة ، تجارة أهل الذمة ، وتجارة أهل الحرب إذا مروا بأرض المسلمين ، أما عن تجارة المسلمين فعليها الزكاة المفروضة .

قال أحد عمال عمر بن الخطاب : « استعملنى عمر على العشر ، فأمرنى أن آخذ من تجار أهل الحرب العشر ، ومن تجار أهل الذمة نصف العشر ، ومن تجار المسلمين ربع العشر » .

وقال آخر : « كنت عاملا على سوق المدينة زمن عمر ، فكنا نأخذ من القبط العشر » .

وهذا الذى فرضه عمر على تجارة أهل الذمة لم يسنه الرسول ﷺ ، ولا فرضه أبو بكر ، ولكنه حكم اجتهد فيه عمر تحريا للمصلحة العامة ، بعد تغير الأحوال .

* * *

لقد أنفق عمر هذا المال الذى كان يتجمع له على مصالح المسلمين . . فكفل الأيتام ، وكفى الفقراء ، وقوّى الجيوش ، ودعم الحصون ، وفكّ الأسرى ، وأعتق الرقيق ، وكافأ منه السابقين ، وسد حاجة ذوى الحاجة ،

بل قضى منه ديون المدينين ، إتباعا للسنة الشريفة ، فقد وعى عمر قوله عليه الصلاة والسلام : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين ، فَعَلَىَّ قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » .

أطعم عمر رعيته أشهى الطعام ، وألبسهم أجمل الثياب ، وآثر هو خشونة العيش ، والثياب المرقعة !!

وإنه ليتأمل حكمة الله وقدره ، كلما جاء مال وفير . . أهو ابتلاء من الله ؟! أم ماذا ؟!

روى عبد الله بن عباس قال : « دعانى عمر ، فإذا حصير بين يديه عليه الذهب منثور نثر الحثا (هو التبن الدقيق) قال : هلم فاقسم بين قومك ، فالله أعلم حيث حبس هذا عن نبيه وعن أبى بكر وأعطانيه ، ألخير أراد بذلك أم أريد به الشر ؟! » قال ابن عباس : « فأكببت على المال أقسمه ، فسمعت البكاء ، فإذا هو عمر يبكى ، ويقول فى بكائه : كلا ، والذى بعثه بالحق ما حبس هذا عن نبيه وعن أبى بكر إرادة الشر بهما ، وأعطاه عمر إرادة الخير به ! » .

ولما اتخذ عمر بعض الصحابة عمالا على الخراج يجبون الضرائب ، أرسل إليه أبو عبيدة : « دنست أصحاب رسول الله ﷺ ! » (يريد أنه استعملهم على الخراج فاتصلوا بالمال وفتنته) ، وكانت لأبى عبيدة بن الجراح فى قلب عمر مكانة خاصة ، فقال له : « يا أبا عبيدة إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة دينى فبمن أستعين ؟ » قال : « أما إن فعلت يا أمير المؤمنين ، فأغنهم بالعمالة عن الخيانة » (أى أعطهم عطاء كبيرا كى يظلوا أمناء) .

* * *

وقد توقف عمر عند الحدود وهى العقوبات ، فنظر فى علتها ، وأجرى أحكامه وفق العلة ، فإن توافرت علة الحكم أجراه كما جاء فى النص ، وإن لم تتوافر ، أو كان تغير الزمان يفرض قضاء آخر جمع له فقهاء الصحابة ، فحاورهم وحاوروه ، حتى يطمئن القلب إلى الحكم .

من ذلك أن رقيقا لحاطب بن أبى بَلْتَعَة سرقوا ناقة لرجل ، فنحروها ،

وأكلوها . فأمر عمر بقطع أيديهم ، ثم أوقف القطع ، وبحث عن سبب السرقة ، أسرقوا الناقة وأكلوها بغيا منهم ، وعدوانا ، وفسادا فى الأرض ؟ ! أم لعلهم جياع ، اضطرهم الجوع إلى السرقة ! وظل يحقق ويستقصى عن سبب السرقة ، فوجد سيدهم يجيعهم !! فلما ثبت له أن الجوع هو الذى دفعهم إلى السرقة ، دعا سيدهم فقال له : « إنكم تستعملونهم وتجيعونهم ! والله لأغرمنك غرامة توجعك » . وفرض عليه ثمن الناقة ضعفين ، وأعفى السارقين من القطع ! . .

وعندما أصاب المدينة جدب ، لم يقطع يد سارق .

ثم أنه أمر بتأجيل الحدود فى الحرب ، وراعى فى ذلك ضرورات طارئة ، لدفع ضرر أكبر بضرر أقل ، فما إفلات مذنب بالقياس إلى هروب هذا المذنب إلى العدو ، ليعينه على المسلمين !؟ .

من أجل ذلك أرسل إلى أمراء جيوشه فى الفتوحات : « ألا تجلدوا أحدا حتى تطلعوا راجعين لكيلا تحمل الحدود أحدا على اللحوق بالكفار » .

ومن أجل ذلك نهى جنود الفتح عن حد أميرهم حين شكوا إليه أن أميرهم يشرب الخمر ، وأرادوا إقامة الحد عليه ثمانين جلدة ، فكتب عمر إليهم : « تحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعون فيكم !؟ » .

* * *

ولكنه حين وجد الأمور قد استقرت ، عاد يطبق الحدود مهما يكن من أمر المخالف : أميرا كان أو أحدا من الرعية ، لا يخاف فى ذلك لومة لائم ، ولا يخشى طمع العدو ، بعد أن استتبت الأمور . . من ذلك ما فعله مع المغيرة بن شعبة عامله على البصرة ، وهو من أكرم الناس عليه ، وآثرهم لديه ، وقد ولاه البصرة بعد نشأتها بأشهر . .

وما جرى بين الفاروق والمغيرة بن شعبة مشهور ، رواه كثير من الرواة ، منهم أنس ابن مالك ، وخلاصة القول فيه : أن المغيرة كانت بينه وبين رجل اسمه أبو بكرة خصومة ، وكان لأبى بكرة جارة حسناء تعيش وحدها بلا زوج ، وكانت امرأة برزة ، تبرز للرجال ، فتغشى مجالسهم ، وتدعوهم الى مجلسها ، وكان

بعض نساء العراق يفعلن هذا . وكانت تسمى أم جميل . وكان مسكن أم جميل تحت مسكن أبى بكرة يجاوره المسكن الخاص لمغيرة بن شعبة ، بعيدا عن دار الإمارة التى يتولى فيها مسئولية الحكم ، ويقيم فيها ساعات من نهار !

وكان المغيرة بن شعبة يخرج من دار الإمارة وسط النهار ، وكان أبو بكرة يلقاه فيقول له : « أين يذهب الأمير ؟ » فيقول : « آتى حاجة » فيقول أبو بكرة : « حاجة ماذا ؟! إن الأمير يُزار ولا يزور » .

فبينما أبو بكرة فى غرفة له مع ثلاثة نفر من صحبه ، إذ ضربت الريح باب حجرة نوم المغيرة ففتحته ، فإذا بالمغيرة مع أم جميل ، كزوج وزوجة ! فقال أبو بكرة لصحبه : « هذ بلية ابتليتم بها ، فانظروا » فنظروا !!

ونزل أبو بكرة ، فجلس حتى خرج إليه المغيرة ، فقال له : « أيها الأمير ، إنه قد كان من أمرك ما قد علمت فاعتزلنا ! » .

فلما ذهب المغيرة ليصلى بالناس الظهر فى مسجد البصرة ، وثب أبو بكرة ، فقال له : « والله ما تصلى بنا وقد فعلت ما فعلت ! » فقال الناس : « دعه فَلْيُصِلّ بنا فإنه الأمير » .

فكتب أبو بكرة وصحبه إلى الفاروق بما أطلعوا عليه من أمر المغيرة وأم جميل ، فكتب إلى المغيرة : « أما بعد ، فإنه بلغنى نبأ عظيم ، فبعثت إلى البصرة أبا موسى الأشعرى أميرا ، فسلم إليه ما فى يدك ، والعجل ! » .

أما أبو موسى الأشعرى ، فقد كتب إلى عمر : « أَعنِّى بعدة من أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم فى هذه الأمة كالملح » . فأعانه بتسع وعشرين صحابيا ، وأوصاه بلزوم السنة .

أما المغيرة بن شعبة ، فقد عجل إلى أمير المؤمنين كما أمره ، ومعه أبو بكرة والشهود الثلاثة ، فقال المغيرة : « يا أمير المؤمنين : سل هؤلاء الأَعْبُد (جمع عبد) كيف رأونى ، أمستقبلهم أم مستدبرهم ، وكيف رأوا المرأة فعرفوها ، فإن كانوا مستقبلىّ ، فكيف لم استتر ! ؟ وإن كانوا مستدبرىّ فبأى شىء استحلوا النظر فى منزلى ، وأنا مع امرأتى !؟ والله إنها لامرأتى ، وأم جميل تشبهها » .

فشهد أبو بكرة واثنان معه أنها كانت أم جميل ، أما الشاهد الرابع ، فسأله عمر : « هل تعرف المرأة ؟ » قال : « لا ، ولكنى أشبِّهها » ، ولم تأت شهادته موافقة للثلاثة ، فشك عمر . وإذ اختلف الشاهد الرابع عن الشهود الثلاثة ، رد عمر شهادتهم ، وأقام على أبى بكرة وصاحبيه حد القذف ، فأمر بجلدهم ثمانين جلدة ، فقال المغيرة متشفيا : « يا أمير المؤمنين ، اشفنى من الأَعْبُد » قال : « اسكت ، أسكت الله نأمتك ، (أى حركتك) أما والله لو تمت الشهادة الرابعة لرجمتك بأحجارك ! » .

* * *

فَرّق عمر بين الإمارة وبين القضاء ، فجعل أبا موسى الأشعرى أميرا على البصرة ينظر فى أمور الرعية ، ويقوم بهم ، ويعمل ما يصلحهم ، ويدعم الجيش ، ويوزع العطاء على مستحقيه ، أما القضاء فقد جعله الفاروق مستقلا ، وكان الأمير من قبل يتولى منصب القضاء ، فكان هذا هو أول استقلال للقضاء فى التاريخ . .

واختار الفاروق لقضاء البصرة كعب بن سور ، إذ توسم فيه مخايل الذكاء ، وعمق الفهم ، وحسن الاستنباط ، وتَحرِّى العدل ، والغوص على الحقيقة وراء ظواهر الأشياء . . ذلك أن كعبا كان جالسا عند الفاروق ، فجاءت امرأة شابة ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما رأيت رجلا قط أفضل من زوجى ، إنه ليبيت ليله قائما ، ونهاره صائما فى اليوم الحار ! » فقال لها عمر : « مثلك أثنى بالخير » فاستحيت المرأة وقامت .

فلما كان الغد عادت المرأة إلى عمر ، وعنده كعب بن سور ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، إن زوجى يصوم النهار ، ويقوم الليل » ورأى عمر فى لهجتها هذه المرة شيئا من عتاب ، فقال : « ما تريدين من أمير المؤمنين يا أمة الله !؟ أتريدين أن أنهاه عن صيام النهار ، وقيام الليل ؟! » .

فاستحيت هذه المرة كذلك ، وقامت راجعة .

ولكنها عادت إلى عمر بعد أيام ، فقالت مثل ذلك ، فأجابها بمثل ما أجاب

به من قبل ، فانصرفت ، فمال كعب على الفاروق ، وقال : « يا آمير المؤمنين : إنها امرأة تشتكى زوجها ! » فصاح عمر : « ردوا على المرأة ! » .

فلما ردوها إليه ، قال لها : « لا بأس بالحق أن تقوليه . إن هذا (يعنى كعبا) زعم أنك جئت تشتكين أن زوجك تجنب فراشك ! » قالت : « أجل ، إنى امرأة شابة ، وإنى أبتغى ما تبتغى النساء ! » .

فأرسل عمر إلى زوجها ، فلما جاء ، قال لكعب : « أقض بينهما » قال : « بل أمير المؤمنين أحق أن يقضى بينهما » . فقال عمر : « إنك فهمت من أمرها ما لم أفهم ، أما إذ فطنت لها فاحكم بينهما » قال كعب : « فإنى أرى أن لها يوما من أربعة أيام إن كان له أربع زوجات ، فإذا لم يكن له غيرها فإنى أقضى له بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ، ولها يوم وليلة » .

فقال له عمر : « اذهب فأنت قاضى البصرة » .

وسأل عمر الزوج عن عدد زوجاته فعلم أنه لم يتزوج إلا هذه المرأة ، فقال : « لك ثلاثة أيام ، ولامرأتك هذه يوم ، ولها من أربع ليال ليلة ، فلا تصلِّ فى ليلتها إلا الفريضة ! » .

ورأى عمر زوج المرأة زرى الهيئة ، فحثه على الاهتمام بمظهره ، لكيلا يؤذى زوجته . .

وسأله أحد الذين كانوا فى مجلسه : « يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهى المعصية ، ولا يعمل بها ، أفضل أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ » فأجابه عمر : « إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

وجاءه رجل يشكو له ابنته ، فهى فتاة صالحة جميلة ، اختار لها زوجا صالحا ، ولكنها لا تريده لأنه دميم ، فقال عمر للرجل ولمن حضر مجلسه : « لا تزوجوا المرأة الجميلة الرجل الدميم ، فإنهن يحببن لأنفسهن ما تحبون لأنفسكم » .

* * *

بعد هزيمة الفرس ، أقام سعد بالمدائن ، واتخذها عاصمة له بعد أن كانت عاصمة الدولة الفارسية ، ولكن العرب لم يطيقوها ، فهزلوا وضعفوا ، فكتب رجل منهم إلى الفاروق : « إن العرب قد رَقَّتْ بطونها ، وَجَّفتْ أعضاؤها ، وتَغَيَّرت ألوانها » . فكتب عمر إلى أمير الفتح سعد ابن أبى وقاص : « أخبرنى ما الذى غَيَّر ألوان العرب ولحومهم ؟! » فرد سعد : « يا أمير المؤمنين ، إن الذى غيرهم وخومة البلاد ، وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان » . فكتب إليه عمر : « ابعث رائدين فليرتادا نزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر » .

فبعثهما سعد ، أما أحدهما فسار فى غربى الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة ، وأما الآخر فسار فى شرقى الفرات لا يرضى مكانا حتى بلغ الكوفة ، فالتقيا فى ذلك الموضع ، والكوفة هى كل مكان اختلط فيه الرمل بالحصباء . . فلما أعجبهما الموقع نزلا فَصَلَّيا فيه ، ودعوا الله أن يجعلها للمسلمين نزلا ثابتا مستقرا . . فكتبا إلى سعد ، فترك المدائن وانطلق حتى قدم الكوفة ، فأعجبته ، وكتب إلى الفاروق : « إنى قد نزلت بالكوفة منزلا فيما بين الحيرة والفرات بريا وبحريا . . وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن ، فمن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمَسْلَحَة » (مسلحة : الحامية) .

فلما استقر العرب فى الكوفة ، استعادوا قوتهم وألوانهم ، ونشاطهم . . وأقاموا فى الكوفة مسجدا كبيرا ، وأسواقا ، وبنوا قصرا للإمارة أقام فيه أميرهم سعد بن أبى وقاص ، وبلغ عمر أن سعدا اتخذ قصرا عاليا ، وأغلق بابه دون الناس ، وأن الناس يسمون دار الإمارة « قصر سعد » ، فغضب الفاروق ، وأرسل إليه محمد بن مسلمة ، وأمره إن وجد ما زعموه صحيحا ، ووجد باب القصر مغلقا دون الناس ، أن يحرق هذا الباب على سعد !

فلما علم سعد بمقدم محمد بن مَسْلَمَة استدعاه ، ولكن محمدا أبى أن يدخل عليه ، فخرج إليه سعد ، وعرض عليه نفقة ، فردها ، وقرأ عليه كتاب عمر إليه : « بلغنى أنك اتخذت قصرا جعلته حصنا ، ويسمى قصر سعد ، وبينك وبين الناس باب ! فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ! انزل منه وأغلقه ، ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس من دخوله » .

وكان أهل الكوفة لما شكوا سعد إلى عمر زعموا أنه لما سمع أصوات الناس من الأسواق ، قال : « سكتوا عنى هذه الأصوات » فحلف له سعد ما فعل ولا قال ما زعموه عنه ، فلما رجع محمد وأبلغ عمر قولَ سعدٍ صَدَّقه .

* * *

كان الهرمزان أحد عظماء الفرس الذين انهزموا فى القادسية ، وهو من أقرباء الملك ، وعميد أحد البيوتات السبعة من أشراف فارس ، قد أخذ يناوش المسلمين ، فإذا أوشكوا أن ينالوا منه ويكسروه ، بادر إليهم فصالحهم ، ثم ينقض الميثاق ، وينتهز غِرّةً لينقض عليهم ، وبلغ عمر ما يصنعه الهرمزانَ فَتغَيَّظَ عليه ، ولكنه لم يأذن لهم أن ينساحوا فى أرض فارس ، وحَسْبهم ما فتحوه منها ! فقد خشى عمر عليهم الغوائل فى مجاهل أرض لا عهد للعرب بها !

حتى جاء إلى عمر وفد من ناحية البصرة وما يليها ، وعلى رأس الوفد الأحنف بن قيس ، فقال : « يا أمير المؤمنين . . قد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه إصلاح العامة . وإنما ينظر الوالى فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بآذانهم فإن اخواننا من أهل الكوفة نزلوا فى العيون العذاب والجنان الخصاب ، فتأتيهم ثمارهم . . وإننا معشر أهل البصرة نزلنا أرضا سبخة هشة . . وعددنا كثير ، وأشرافنا قليل ، وأهل البلاء فينا كثير . . وقد وَسَّع الله علينا ، وزادنا فى أرضنا ، فوسع علينا يا أمير المؤمنين . » .

فأحسن إليهم عمر ، وزادهم مما غنموه من أموال أهل كسرى ، وردهم مكرمين معززين إلى البصرة وما حولها ، وجهزهم ليصُدُّوا الفرس من ناحية حلوان ، إن هم كروا على المسلمين .

وفوجىء المسلمون بالهرمزان يطلب الصلح مرة أخرى ، فيَكفّ عنهم ، على أن يحموه من الأكراد الذين شنوا عليه غارات أوشكت أن تكسره .

فلما عاهدوه وحموه من الأكراد ، سار إلى مدينة قُمْ ليلقى ملكه يزدجرد ، حيث فر بحريمه وحشمه وأمواله وخزائنه ، وقد هامت الفرس بعد هزائمها المتكررة حتى انتهت إليه .

قال الهرمزان ليزدجرد : « أيها الملك ، إن العرب قد اقتحمت عليك من ناحية حلوان ، ولهم جمع بناحية الأهواز ، وليس فى وجوههم أحد يردهم ، ولا أحد يمنعهم من العبث والفساد ! » قال الملك : « فما الرأى ؟ » قال الهرمزان : « الرأى أن يوجهنى الملك إلى تلك الناحية ، فأجمع العجم كلهم علىّ ، وأكون رِدْءاً فى ذلك الوجه ، (رِدْءاً : عونا) وأجمع لك الأموال من فارس والأهواز ، وأحملها اليك لتتقَوّى على حرب أعدائك . » .

فَسُرّ الملك ، وَسُرِّىَ عنه ، وولّى الهرمزانَ على فارس والأهواز ، وَوَجّهَ معه جيشا عظيما !

ولما علم عمر بأمر جيش الهرمزان ، أمدَّ المسلمين ، وأمرهم أن يزحفوا فيصدوا الهرمزان ، ولا يمكنوه من استرداد شىء مما فتحه الله عليهم .

وانطلق المسلمون حتى بلغوا جسر الأهواز ، فوجدوا الهرمزان وجيشه الكثيف عَلىَ الجانب الآخر من الجسر ، فقالوا له : « إما أن تعبر الينا أو نعبر إليكم . » فقال : « اعبروا الينا » .

فعبروا الجسر إليه ، واقتتل الجيشان ، فظهر المسلمون على الهرمزان وجنوده ، وفتح المسلمون الأهواز ، وهرب الهرمزان متجها صوب مدينة تَسْتُر فطارده المسلمون ، واستولوا على ما يلى الأهواز ، وغنموا مغانم عظيمة ، ووضعوا الجزية ، وكتبوا بالفتح إلى عمر ، وأرسلوا له الأخماس مما غنموه . .

ولما رأى الهرمزان حرج موقفه ، أرسل يطلب الصلح ، فأجابه عمر على الصلح ، على أن يبقى فى أيدى المسلمين مافتحوه من بلاد . فوافق الهرمزان ، ولكنه نقض الصلح ، وزحف يريد أن يستدرج المسلمين ليوقع بهم ، فأمدّهم عمر بأبى موسى الأشعرى ، وجعله على أهل البصرة ، وأمدهم بمدد من أهل الكوفة . . وبعثوا يستطلعون أخبار الهرمزان وجيشه ، فوجدوه قد غادر المكان الذى عسكر فيه . .

وانطلق الهرمزان بالجيش حتى بلغ مدينة تَسْتُر وهى أعظم مدينة بخُوزِسْتان ، فأصلح حصنها ، وجمع فيها الزاد والتموين خشية أن يغشاه المسلمون بحصار يطول ، وأرسل يستنفر الفرس من حوله ، فوافاه جمع عظيم ، فأرسل أبو موسى الأشعرى إلى عمر يستمدُّه ، فأمدّه بعمار بن ياسر على رأس

جيش كثيف ، فزحف أبو موسى بجنده حتى وقف على أسوار المدينة الضخمة ، والتقى الجمعان أمام المدينة ، واحتدم القتال ، واشتد القتل فى الجمعين ، حتى كسر المسلمون الهرمزان وجنده ، فَفَرّ بهم إلى حصن المدينة ، حيث أعد من قبل من الميرة ما يكفى لحصار طويل . . وقتل فى المعركة البراء بن مالك أخو أنس بن مالك .

وطال الحصار ، فتسلل من داخل المدينة أحد أشرافها ، فوافى أبا موسى خفية فقال له : « تؤمِّنُنِى على نفسى وأهلى وولدى ومالى وضياعى حتى أعمل على أخذك المدينة عنوة ؟ » قال أبو موسى : « إن فعلت فلك ذلك . » قال الرجل : « ابعث معى رجلا من أصحابك . » فقال أبو موسى الأشعرى للناس : « مَنْ رجلٌ يشترى نفسه ، ويدخل مع هذا العجمى مدخلا لا آمن عليه فيه الهلاك ، ولعل الله أن يسلمه ؟ ! فإن يهلك فإلى الجنة ، وإن يسلم عَمَّتَ منفعته الناس » .

فاستبق الناس إلى المخاطرة ، فاختار أبو موسى الأشعرى واحدا منهم ، وقال له أبو موسى : « امض ، كَلأَكَ (أى حفظك) الله » .

فمضى الفارسى به حتى خاضا نهيرا صغيرا ، ثم أخرجه من سرب ، وألقى عليه طيلسانا (وهو عباءة سوداء من ملابس الفرس) ، وقال له : « امش ورائى كأنك من خدمى . » ففعل .

فجعل يمر به فى أرجاء المدينة حتى انتهى به إلى حرس المدينة ، ثم انطلق حتى مر به على الهرمزان ، وهو على باب قصره بين حاشيته !

ثم إن الفارسى أعاد العربى حتى جاء به إلى أبى موسى ، فأخبره بجميع ما رآه ، وقال : « أيها الأمير ، وَجِّهْ معى مائتى رجل من المؤمنين الشجعان حتى أقصد بهم الحرس ، فأقتلهم ، وأفتح لك باب المدينة ، وَوَافِنا أنت بجميع الناس » .

فقال أبو موسى للناس : « من يشترى نفسه لله ، فيمضى معه ؟ » فاستبق المؤمنون إلى المهمة ، فاختار أبو موسى مائتين ، فمضوا مع الرجل إلى دار الفارسى ، من طريق النهير والسرب ، ثم خرجوا من الدار يقودهم صاحبهم حتى قتلوا الحرس ، وتداعى الناس ، وساد الذعر ، فأسندوا ظهورهم إلى أسوار

المدينة ، وانطلق المسلمون ففتحوا الباب ، ودخل أبو موسى وجيشه ، وارتجت المدينة العظيمة بصيحات المسلمين : « الله أكبر ! الله أكبر ! »

وفتح أبو موسى المدينة ، وأقام بها ، وفَرّ الهرمزان ومَنْ معه من عظماء الفرس ، فامتنعوا فى الحصن ، وطال عليهم الأمد ، حتى فرغ الزاد الذى كان الهرمزان قد أعده من قبل لمواجهة الحصار الطويل . فسأل الهرمزان الأمان ، فقال له أبو موسى : « أُؤَمِّنُكَ على حكم أمير المؤمنين » .

وخرج الهرمزان ومن معه من أهله وأصحابه ، فأرسلهم أبو موسى إلى عمر ، فى حراسة ثلاثمائة فارس من المؤمنين يقودهم أنس بن مالك .

وانتهى أحد العرب الفاتحين إلى قصر الهرمزان ، فلما دخل القصر ، نظر إلى تمثال فى الحائط يمد أصبعه فى اتجاه الأرض ، فقال : « ما صوّبت إصبع هذا التمثال إلى هذا المكان إلا لأمر ! احفروا ها هنا . »

فحفروا حتى وجدوا إناء مغلقا ، مملوءا جواهر نادرة ، فأخذ الرجل منه فصا ، وأعطى الباقى لأميره أبى موسى الأشعرى ، واستوهبه الفص الذى أخذه ، فوهبه له . ووجه أبو موسى الجواهر إلى عمر ، فسأل عمرُ الهرمزانَ عن هذه الجواهر ، فقال بعد أن عَدّها : « أفقد منها فصا » قال عمر : « إن من عثر على الجواهر استوهبه أبا موسى فوهبه له » قال الهرمزان : « إن صاحبكم لبصير بالجوهر ! » .

* * *

على أن لقاء الهرمزان بأمير المؤمنين كان عجبا !

فقد أقبل الهرمزان إلى المدينة فى حاشيته ، يحرسه ثلاثمائة من المسلمين منهم أنس بن مالك ، والأحنف بن قيس .

وكان الهرمزان يلبس كسوة من الديباج مُوَشّاة بخيوط ذهبية ، وعلى رأسه تاجه المكلّل بالياقوت ونفائس الجواهر ، وقد رأى أنس والأحنف أن يصحباه إلى المدينة فى زينته تلك ليراه الفاروق والمسلمون !

فسألوا عن أمير المؤمنين ، فلم يجدوه ، إذ كان قد ذهب إلى المسجد ليستقبل وفدا من الكوفة ، وكان معه بُرْنُس لبسه للوفد ، وما رضى أن يلبسه حتى

ذكّره بعض الصحابة بيوم أقبلت الوفود على رسول الله ﷺ ، فأشار أبو بكر وعمر عليه بأن يلبس برنسا كان قد أهداه له أحد الأنصار ، ففعل ، وقال إن أبا بكر وعمر إذا اتفقا على شيء فهو الصواب .

ولكن وفد الكوفة ، كان قد رحل ، فلما ودّعه الفاروق ، خلع البرنس ، وطواه فجعله وسادة ، ونام ! وكان الحر شديدا . .

فجلس الهرمزان أمام عمر ، وهو نائم والدِّرَّة فى يده ، وسأل الهرمزان أنسَ بن مالك والمغيرةَ بن شعبة : « أين عمر ؟ » قالا : « هو ذا » : وأشارا إلى عمر وهو نائم ، فعجب الهرمزان ، وسأل : « أين حرسه وحُجّابه ؟ » قال المغيرة : « ليس له حارس ولا حاجب ! » قال : « فينبغى إذن أن يكون نبيا ! » فأجاب : « بل يعمل عمل الأنبياء . »

فلما سمع عمر جلبة الناس ، استيقظ ، وتمطى ، ونظر بعينين نصف مُغْلَقَتَيْن إلى الهرمزان فى زينته وتاجه وجواهره ، وسأله : « الهرمزان ؟ ! » قال : « نعـم » .

ثم استوى عمر جالسا ، وبرقت عيناه ، وقال : « الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ! »

ثم أمر بنزع ما على الهرمزان من ديباج ، ومن تاج ، فنزعوه ، وألبسوه ثوبا خشنا ثخينا ، فوقف الهرمزان فى ثيابه تلك ممتعضا مشمئزا ، فسأله الفاروق : « يا هرمزان ، كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله ؟ » قال : « يا عمر . إننا وإياكم فى الجاهلية ، كان الله قد خلّى بيننا فغلبناكم ، فلما كان الله الآن معكم فغلبتمونا ! » قال عمر : « ما حجتك وما عذرك فى انتقاضك مرة بعد أخرى ؟ ! » قال الهرمزان : « أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك ! » قال : « لا تخف ذلك . » .

وطلب الهرمزان ماء ليشرب ، فأتوه بماء فى قدح غليظ ، فقال : « لو متُّ عطشا لم أستطع أن أشرب من مثل هذا ! » فأمر عمر أن يقدموا له الماء فى إناء يرضاه ، فلما أتوه به قال : « إنى أخاف أن أُقْتَلَ وأنا أشرب . » فقال عمر : « لا بأس عليك حتى تشربه » فسكب الهرمزان الماء ، وقال : « لا حاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به ! » .

وتغيظ عليه عمر وقال له : « إنى لقاتلك ! » فقال : « لقد أمنتنى ! » قال

عمر : « كذبت . » قال أنس بن مالك : « صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته » قال عمر : « يا أنس بن مالك ، أأنا أؤمن قاتل البراء بن مالك ؟ ! والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك ! » .

قال أنس : « يا أمير المؤمنين ، أنت قلت له : لا بأس عليك حتى تخبرنى ، ولا بأس عليك حتى تشربه . » وشهد الناس بذلك ، فقال عمر للهرمزان : « خدعتنى ! والله لا أنخدع إلا أن تُسْلِم ! » .

فأسلم ، وفرض له عمر عطاء ، وكان يترجم بينهما المغيرة ، حتى وافاهما المترجم ، فأقام الهرمزان فى المدينة ، وفى قلبه على عمر حقد عظيم . .

ونظر عمر إلى وفد المسلمين ، الذى صحب الهرمزان ، قال لهم : « لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة فلهذا ينتقضون بكم ! » قالوا : « ما نعلم إلا وفاء . » قال : « فكيف هذا ؟ لماذا ينتقض عليكم أهل الذمة . » فلم يجبه أحد ، وكان الأحنف بن قيس فى الوفد ، فأقبل على عمر ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد ، وإن مَلِكَ فارس بين أظهرهم ، ولا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم . . فإن مَلِكَهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم ، حتى تأذن لنا فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم ، فهناك ينقطع رجاء أهل فارس . » فقال : « صدقتنى والله ! » .

وقبل أن يقوم عمر من مكانه أتاه كتاب من عمار بن ياسر ، بأمر اجتماع الفرس فى نَهاوَنْدْ ، فدعا عمر الناس إلى المسجد ، حتى إذا اجتمعوا ، صعد المنبر وبيده كتاب عمار ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا معشر العرب ، إن الله أيدكم بالإسلام ، وألّفَ بينكم بعد الفرقة ، وأغناكم بعد الفاقة ، وأظفركم فى كل موطن لقيتم فيه عدوكم ، فلم تَفُلُّوا (أى لم تنكسروا وتذلوا) ، ولم تُغلبوا ، وإن الشيطان قد جمع جموعا ليطفىء نور الله ، وهذا كتاب عمار بن ياسر يذكر أن أهل قومس وطبرستان ودنياوند وجرجان والرى واصبهان وقم وهمذان والماهين وما سبذان قد أجفلوا (أى أسرعوا) إلى مَلِكِهِمْ ، ليسيروا إلى أخوانكم بالكوفة والبصرة حتى يطردوهم من أرضهم ، ويغزوكم فى بلادكم ، فأشيروا علىّ » .

فوقف طلحة فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن الأمور قد حَنَّكَتْك ، وإن الدهور قد جربتك ، وأنت الوالى ، فمرنا نطع ، واستنهضنا فننهض . » .

ثم قال عثمان : « يا أمير المؤمنين ، أكتُبْ إلى أهل الشام ، فيسيروا من شامهم ، وإلى أهل اليمن ، فيسيروا من يَمَنِهم ، وإلى أهل البصرة ، فيسيروا من بصرتهم ، وسر أنت بأهل هذا الحرم حتى توافى الكوفة ، وقد وافاك المسلمون من أقطار أرضهم وآفاق بلادهم ، فإنك إن فعلت ذلك كنت أكثر منهم جمعا وأعز نفرا . » .

فقال المسلمون من كل ناحية : « صدق عثمان » فقال عمر لعلى : « ما تقول أنت يا أبا الحسن ؟ » فقام على فقال : « يا أمير المؤمنين إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن سَيَّرت أهل اليمن من يمنهم خلفت الحبشة على أرضهم ، وإن شخصت أنت من هذا الحرم انتقضت عليك الأرض من أقطارها ، حتى تكون ما تدع وراءك أهم إليك مما قُدَّامك ! وإن العجم إذا رأوك عيانا قالوا هذا ملك العرب كلها ، فكان هذا أشد لقتالهم ! وإنا لم نقاتل الناس على عهد نبينا ﷺ ولا بعده بالكثرة ، بل اكتب إلى أهل الشام أن يقيم منهم بشامهم الثلثان ، ويشخص الثلث ، وكذلك إلى سائر الأمصار . » .

فقال عمر : « هو الرأى الذى كنتُ رأيتهُ ، ولكنى أحببت أن تتابعونى عليه . »

فكتب بذلك إلى الأمصار ، وولّى على الجيش رجلا شجاعا هو النعمان المزنى ، فإن قُتل خَلَفه حذيفةُ ، وسمى بعد ذلك سبعةَ أمراء آخرهم المغيرة بن شعبة .

ثم كتب إلى أمير الجيش : « إن معك رجلين هما فارسا العرب : عمرو بن معدى كرب ، وطليحة بن خويلد ، فشاورهما فى الحرب ، ولا تولِّهما شيئا من الأمر . » .

وجعل على المغانم السائب بن الأفرع ، وقال له : « إن أظفر الله المسلمين فتولّ أمر المغنم ، ولا ترفع إلىّ باطلا ، وإن يهلك ذلك الجيش فاذهب ، فلا أَرَيَنَّك ! » .

* * *

تجمع للفرس فى نهاوند نحو مائة وخمسين ألف مقاتل ، وزحف المسلمون فى ثلاثين ألفا ، ووقف النعمان المزنى أمير جيش المسلمين يحرض رجاله على القتال . وقال : « إنى مكبر ثلاثا ، فإذا كبرت الثالثة فاحملوا فإنى حامل ، فإن قُتلت فالأمير بعدى حذيفة فإن قُتل ففلان . » وعد سبعة آخرين حسبما سماهم عمر ، آخرهم المغيرة بن شعبة . ثم قال : « اللهم أنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، واقبضنى شهيدا . » فبكى الناس ! . .

ثم كَبّر ، وحمل ، وحمل المسلمون على العجم واستعر القتال ، وصبر المسلمون صبرا عظيما ، ورأى النعمان الفتح فقَرَّت عينه ، وهو يرى الفرس ينهزمون .

ولكنه رُمِىَ بَسهم فسقط ، فلما أيقن أخوه أنه أستشهد ، وكان بجانبه ، أخذ الراية ، فناولها حذيفة .

فقال المغيرة : « اكتموا مصاب أميركم لئلا يَهِنَ الناس » .

وكان ملك الفرس قد أمر بأن يربط كل سبعة من رجاله فى سلسلة ، لكيلا يهربوا إذا اشتد عليهم العرب ، ولكى يثبتوا ، ويعلموا أنه ليس أمامهم إلا النصر أو الموت ! !

وقد أشتد المسلمون على الفرس ، ودفعوهم إلى حافة واد سحيق وحملوا عليهم ، فكان الفارسى إذا سقط من على حافة الجبل ، جَرّ معه ستة هم الموثقون معه فى سلسلة واحدة ، فيقع بعضهم على بعض فيضربهم الحديد ، حتى يهلكوا جميعا !

وهكذا هلك منهم نحو مائة ألف فى الوادى السحيق الذى يشبه الهاوية ، وهلك منهم فى المعركة نحو ثلاثين ألفا ، فلم يبق غير عشرين ألفا ، فروا إلى همذان ، فاتبعهم القعقاع بجند ، فلما أيقن الفرس بالهزيمة استأمنوا المسلمين ، فصالحوهم على الجزية ، واستولى المسلمون على همذان ، وعادوا فانضموا إلى زملائهم الذين دخلوا نهاوند ، فلما ألقت الحرب أوزارها سألوا عن قائدهم النعمان ، فقال لهم أخوه معقل : « قد أقر الله عينه بالفتح ، وختم له بالشهادة ، فاتبعوا حذيفة . » .

وغنم المسلمون من نهاوند مغانم كثيرة ، وكانت مدينة عظيمة ، وجمعوا كثيرا من السبى ، فدفعوا الأموال والأثاث والنفائس التى غنموها إلى الموكَّل بالمغانم وهو السائب بن الأفرع ، فجاء رجل من أشراف تلك البلاد إلى السائب بن الأفرع ، فقال له : « أتصالحنى على ضياعى ، وتؤمننى على أموالى ، حتى أدلك على كنز لا يُدْرىَ ما قدره ، فيكون خالصا لأميركم الأعظم (أى عمر) لأنه شىء لم يؤخذ فى الغنيمة ؟ » .

وكان صاحب هذا الكنز هو صاحب بيت النار ، أى المعبد الأكبر للفرس ، وكان من عظماء الفرس ، وكانت زوجته من أكمل النساء جمالا ، وكانت تزور كسرى خلسة ، فلما بلغ ذلك زوجها ، خاصمها ، فدخل يوما مع العظماء والأشراف على كسرى ، فقال له : « بلغنى أن لك عينا عذبة الماء ، وأنك لا تشرب منها ! » قال : « أيها الملك ، بلغنى أن الأسد ينتاب تلك العين ، فاجتنبتها مخافة الأسد ! »

فأعجب كسرى بفطنته ، وحسن جوابه ، فدخل دار نسائه ، وكانت لكسرى ثلاثة آلاف امرأة ، فجمعهن وأخذ ما كان عليهن من حلى ، فدفعه إلى صاحبته فاختارت منه ما تشاء ، ودعا بالصاغة فصنعوا لزوجها تاجا من الذهب الخالص مكللا بأثمن الجواهر ، فلما وقعت حرب القادسية ، ومن قوادها ذلك الزوج ، فر من بعد الهزيمة مع من فر من عظماء الفرس ، فجاء إلى بيت النار ، فاقتلع الكانون (الموقد) ووضع التاج والحلى تحته ، ثم أعاده إلى مكانه .

فقال له السائب : « إن كنت صادقا فأنت آمن على أولادك وضياعك وأهلك وولدك . »

فانطلق الرجل بالسائب حتى استخرج صندوقين فى أحدهما التاج ، وفى الثانى الحلى .

فلما أُرْسِلاَ إلى عمر بن الخطاب مع خمس الغنائم ، ردهما ليباعا ، ويوضع ثمنهما فى بيت المال ، فوضعا فى مسجد الكوفة ، فاشتراهما عمرو بن حريث المخزومى بألفى ألف درهم (مليونى درهم) ، ثم خرج بهما إلى أرض الفرس ، فباعهما بأربعة آلاف ألف درهم (أربعة ملايين) ، فأصبح أعظم أهل الكوفة ثراء .

ولمـا قدم سبى نهاوند المدينة ، جعل أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لا يلقى منهم صغيرا إلا مسح رأسه وبكى ، وقال : « أكل عمر كبدى ! » وكان أبو لؤلؤة من نهاوند ، فأسرته الروم ، فلما هزم المسلمون الروم أسروه ، واشتراه المغيرة ، وجاء به إلى المدينة ، على الرغم من أن عمر كان لا يحب أن يرى فى المدينة غير العرب . . ولكن ها هم أولاء العلوُج فيها ، وفيهم من يحترق قلبه حقدا على عمر : كالهرمزان ، وأبى لؤلؤة ! !

وكانت الأنباء التى وردت إلى عمر لم تحدثه إلا عن الفتح ، وكان عمر قد أمضه انتظار أنباء نهاوند أكثر مما أقلقه انتظار أخبار القادسية . . ذلك أن عمر كان يعلم علم اليقين أن نهاوند هى المعركة الفاصلة ، فلن تقوم بعدها للفرس قائمة إن خسروها . .

وعاشت المدينة المنَوّرَة فى أفراح النصر ، والبهجة بالغنائم ، حتى جاء عمر من يخبره بتفاصيل لم يكن يعرفها الذين حملوا اليه بشارة النصر أول الأمر .

فعلم عمر أن النعمان قد استشهد ، فحزن حزنا شديدا ، وأخذ يقول : « إنا لله وإنا اليه راجعون . . » .

ثم سأل عمر عن الشهداء الآخرين ، فذكروا له أسماء أعيان الناس وأشرافهم ، وعمر يسترجع ، حتى قالوا : « وآخرون من عامة الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين ! »

فجعل عمر يبكى ويقول : « وما ضَرَّهم ألا يعرفهم أمير المؤمنين ! ؟ وما يصنعون بمعرفة عمر ، وقد عرفهم الله ورسوله ، وأكرمهم الله بالشهادة ؟ ! » .

وأطلق المسلمون على فتح نهاوند « فتح الفتوح » لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع . . إذ انساح المسلمون شرقا فملكوا بلاد الفرس إلى أن قضى الله أمرا كان مفعولا ! !

كان حقا هو فتح الفتوح جميعا . .

هموم الخليفة..!

لم يعرف تاريخ الغزوات والفتوحات رعبا كهذا العرب الذى ألقاه الله فى قلوب الفرس من المسلمين ، حتى حسبوا كل صيحة عليهم . ! ولم يكره رؤساؤهم أحدا كما كرهوا عمر ، فهو الذى قصم ظهورهم ، وثل عروشهم . .

احتشدوا يوما للوثوب عى المسلمين ، لاسترداد ملكهم ، وجمعوا للمسلمين أضعاف أضعاف جندهم ، ثم فوجىء المسلمون بالفرس يفرون من أمامهم ! . . ذلك أن الفرس شاهدوا غبارا كثيفا ورايات تخفق بألوانها المختلفة ، فحسبوا أن مددا ضخما توافد إلى المسلمين ، وإذ بالغبار الكثيف ينجلى عن نساء مسلمات ، جئن لخدمة المحاربين ، وعلاج جرحاهم ، فاتخذن من خمرهن رايات خفاقة تعددت ألوانها ، فحسبها الفرس أعلام قبائل العرب المختلفة ، وحسبوا أن عمر سَيَّرَ كل رجال القبائل مددا لجيشه ! .

لكم يتمنون الخلاص من عمر ! !

ولم يكد المسلمون يطمئنون فى الأرض التى فتحوها ، حتى فكر عمر فى وضع نظام شامل يسلك هذه البلاد المفتوحة جميعا : فى العراق وفارس والشام ، فى وحدة قوية متماسكة مع شبه الجزيرة العربية ، ليكونوا كلهم أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، ويعبدون إلها واحدا لا شريك له ، ويكون لهم لسان واحد : لسان عربى مبين ! .

فأرسل عمر عددا من الصحابة يُعَلِّمون ويُفقِّهون الذين أسلموا ، حتى يحسن إسلامهم ، ويسيروا فيما بينهم بما أمر به الإسلام من التراحم ، والتآخى ، ومكارم الأخلاق .

ولكن هذا وحده لم يكن هو قوام الدولة . . فقد صمم الفاروق على توفير

عناصر الوحدة جميعا ، وأهمها اللغة . . من أجل ذلك فتح مكاتب لتعليم الصغار ، ومدارس للكبار ، وجعل فيها معلمين أجرى عليهم الأرزاق رواتب شهرية . . واهتم اهتماما خاصا بوحدة اللغة ، فحض على تعلم اللغة العربية ، وأفتى الذين أسلموا من أهل تلك البلاد بأنه لن يحسن إسلامهم ، حتى يعرفوا اللغة التى نزل بها القرآن ، وحتى يحفظوا هذا القرآن بلغته ، وحتى يفقهوا السنة ، وفى الكتاب والسنة أصول التشريع . . كان يقول : « عليكم بالتفقه في الدين ، وحسن العبادة ، والتفهم بالعربية » ، ويقول : « تعلموا العربية فانها تُثَبِّتُ القلوب ، وتزيد فى المروءة » .

ثم إنه ضرب الناس على اللحن ، وكان أول لحن قد ظهر فى العراق ، فقال رجل : « هذه عصاتى » . يريد عصاه !

وكان مما أثر فى اللغة تأثيرا ضارا كثرة السبايا الحسان من الفارسيات والروميات ، وكُنّ لا يعرفن اللغة العربية ، فهن يتحدثن بالفارسية أو اللاتينية ، فلما تعلمن العربية ، نطقنها بلكنة ، ولَحَنّ فيها ، فاستملح الرجال اللحن والأخطاء فى اللغة من الإماء الحسان ! . . وشعر الفاروق أنه مسئول عن حماية لغة القرآن ، من لحن غير العرب ، وبصفة خاصة الإماء من السبايا اللاتى يصبحن أمهات أولاد عرب ، فيتأثر الطفل بلغة الأمهات من الإماء ، ويشب غير متقن للعربية .

كما اهتم الفاروق بإقامة أساس مالى وطيد يقوم عليه اقتصاد الدولة ، وتتوطد به أركانها ، ويستعلى ويستحكم بنيانها .

ذلك أنه عمل على أن يجعل لبيت المال موارد مستقرة تمكنه من إصلاح شئون الرعية ، وتوفير الحياة الكريمة لكل من تظله راية الإسلام من المسلمين وأهل الذمة على السواء . .

من أجل ذلك أبقى عمر الأرض للفلاحين العاملين فيها ، فمن دخل منهم فى الإسلام فرضت عليه الزكاة كغيره من المسلمين ، ومن احتفظ بدينه ضُرِبَ عليه الخراج ، وفُرِضَتْ عليه الجزية ، وأصبح من أهل الذمة . . أما أراضى الأشراف والأغنياء ، فقد جعلها مِلْكا للدولة ، يعمل فيها فلاحوها بأجر معلوم ، وكانوا من قبل يُسَخرَّون ، ويعملون بما لا يكاد يشبعهم من جوع ، أما ما تنتجه تلك الأرض فيملكه بيت المال أى الدولة . . وأما المنافع العامة كالطرق والأنهار

والجداول فهى ملك عام ينتفع به الجميع . . وفى الحق أن الأرض المملوكة لبيت المال أو المملوكة للفلاحين ، كانت تؤدى ضريبة أو خراجا محددا ، والباقى مما تنتجه ينعم به زارعوها . .

وكان هَمُّ عمر أن يقيم العدل ، بعد أن عانى أهل البلاد المفتوحة طويلا من مظالم مستغليهم من الفرس والروم . . من أجل ذلك رحب أكثر الناس بالفتوح الإسلامية ، وتنفسوا الصعداء منذ خلصهم الحكم الإسلامى من مظالم الفرس والرومان . .

* * *

على أن الحياة لم تجر سهلة يسيرة كما تمناها عمر ، وأهل الورع من كبار الصحابة ، فقد أقبلت الدنيا على الناس فتنافسوها ، كما خشى عليهم عمر من قبل ، فجعل بعضهم يكيد لبعض ، وأصبح بأسهم بينهم شديدا ، ولم يَنْج كبار الصحابة من هذه المكايد . . حتى الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة . . !

من ذلك ما حدث لسعد بن أبى وقاص ، أمير الكوفة ، وقائد جيوش الفتح الإسلامى فى دولة الفرس ، وأول من رمى بسهم فى سبيل الله . وأول من أراق دما فى الإسلام ، وأول من فدّاه النبى عليه الصلاة والسلام ، بأبيه وأمه ، يومد أُحُد حين أخذ سعد يصوّب سهامه إلى المشركين لما أحاطوا بالرسول ، فقال له : « ارْمِ سعد ارْمِ ، فداك أبى وأمى ! » ورمى سعد يوم أُحُد ألف سهم !

ولقد نزل فى سعد قوله تعالى : (وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) . قال هو عن سبب نزول هذه الآية : « كنت رجلا بَرًّا بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعَنَّ دينك هذا أو فإنى لا آكل ولا أشرب حتى أموت فَتُعَيَّرَ بى . قلت : لا تفعلى يا أمى ، فإنى لا أدع دينى . فمكَثَتْ يوما وليلة لا تأكل ، فأصبَحتْ وقد جهدتْ ، فقلت : والله يا أمى لو كانت لك ألف نفس ، فخرجت نفسا نفسا ، ما تركت دينى هذا لشىء ! فلما رأت ذلك أكلتْ وشربْت ، فأنزل الله هذه الآية . »

وسعد بن أبى وقاص هو رابع من أسلم من الذكور . . روى قصة إسلامه ، قال : « رأيت فى المنام ، قبل أن أسْلِمَ ، كأنى فى ظلمة لا أبصر شيئا إذ أضاء لى قمر ، فاتبعته ، فكأنى أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر ، فأنظر إلى زيد بن حارثة ، وإلى على بن أبى طالب ، وإلى أبى بكر ، وكأنى أسألهم : متى انتهيتم إلى ها هنا ؟ قالوا : الساعة ، وبلغنى أن رسول ﷺ يدعو إلى الإسلام مستخفيا . فلقيته فى شعب من شعاب مكة بعد العصر فأسلمت ، فما تقدمنى أحد إلا هم . » .

وقد أشجى سعدا أن مسلمين من أهل الكوفة اتهموه فى دينه ـ وما تعلموا الدين إلا منه ، وبفضله ! ـ فزعموا أنه لا يحسن الصلاة ، وهو الذى علمهم الصلاة ، فلما شكوه إلى عمر ، امتعض ، واحتدم سعد ألما ، وقال : « لقد خِبْتُ اذن وضل عملى ! » . . وتذكر عمر الحديث الشريف عن سعد : « أقبل سعد ، فقال رسول الله ﷺ ، هذا خالى فليُرِنى امرؤ خاله » وسعد هو ابن عم آمنة أم الرسول . .

وعجب عمر لأهل الكوفة ، ما ينفكون عن سعد ! . . بالأمس شكوه ، وزعموا أنه بنى قصرا عاليا ، وأغلق بابه دون الناس ، وتبين لعمر أنهم كذبوا على سعد ! . . وعلى الرغم من أن الفاروق تَلَظَّى على أهل الكوفة لافترائهم على سعد ، لم يهمل شكواهم ، فما يريد أن يهمل شكوى الرعية من أحد الرعاة مهما يكن قدره . . فسأل عمر عن خبر سعد فى الرعية ، فقال عمرو بن معد يكرب : « متواضع فى خبائه ، يعدل فى القضية ، ويقسم بالسَّوِيَّةِ (المساواة) ويبعد فى السَّرِيّة ، ويعطف علينا عطف الأم البَرّة ، وينقل الينا حقنا . . »

فأرسل عمر من يتحرى اتهام أهل الكوفة لسعد بأنه لا يحسن الصلاة ! . . فجاءه الرد من كبار الصحابة : « . . إنه يصلى بالناس صلاة رسول الله » فقال عمر : « ذلك هو ظنى بك ياأبا اسحق ! » (أبو اسحق كنية سعد بن أبى وقاص) .

لقد علم الفاروق أن سعد بن أبى وقاص خير من كل الذين اتهموه ، وأنه من أفقه الصحابة ومن أعلمهم بالكتاب والسُّنَّة . . روى الصحابى عبد الله بن عمر قال : « رأيت سعد بن أبى وقاص بالعراق يمسح على الخفّين حين يتوضأ (بدلا

من غسل القدمين) ، فأنكرت ذلك عليه فلما اجتمعنا عند عمر بن الخطاب ، قال سعد لى : سَلْ أباك عما أنكرتَ علىَّ من المسح على الخفّين . فذكرت ذلك له ، فقال : إذا حدثك سعد بشىء فلا تردّ عليه ، فإن رسول الله ﷺ كان يمسح على الخفّين » .

وعلى الرغم من إدراك عمر لمكانة سعد ، فقد ظل يحقق فى كل ما يدّعيه أهل الكوفة على سعد ، عسى أن يرضوا به أميرا عليهم ، ويكفوا عنه . . !

ولكن أهل الكوفة لم يكفوا عن سعد ! . . فقد عادوا يشكون سعدا ، ويكيدون له كيدا ، وشغلوا بالإيقاع به إذ ملك الفرس قد جمع فى أقصى شرقى مملكته عظماء دولته بعد توالى هزائمهم ، وبعد أسر الهرمزان ، ليحرضهم على الهجوم على الكوفة ، والبصرة ، ليقتلعوا المسلمين منهما اقتلاعا !

قال ملك الفرس لعظماء قومه مستنفرا : « إن محمدا الذى جاء العرب بهذا الدين لم يتعرض لبلادنا ، وجاء أبو بكر من بعده فلم يتعرض لنا فى دار ملكنا ، ولم يَثُر بنا إلا فيما يلى بلاد العرب من السواد (السواد العراق) ، وهذا عمر بن الخطاب لما طال ملكه انتهك حرمتنا ، وأخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلك حتى غزانا فى عقر دارنا ، فأخذ بيت المملكة . . وهو آتيكم إن لم تأتوه ، وليس بمُنْتَهٍ حتى تُخْرِجوا مَنْ فى بلادكم من جنده ، وتقلعوا هذين المصرين ، البصرة والكوفة ، ثم تشغلوه فى بلاده وقراره . » . . ! . . لكم يحقد هؤلاء الفرس على عمر !

ها هم أولاء الفرس يكيدون للمسلمين ليحتلوا البصرة والكوفة ، إذ أهل الكوفة يكيد بعضهم لبعض ، ويكيدون لأميرهم ومعلمهم سعد بن أبى وقاص ، ويؤلِّبون عليه الناس . . ! ها هو ذا الذى خافه الفاروق عمر على المسلمين يتحقق ! ويصح ما خافه عليهم من قبل أبو بكر الصديق . .

أقبلت عليهم الدنيا فتنافسوها ، حتى لقد كاد بأسهم أن يصبح بينهم شديدا . .

اشتد عمر على خصوم سعد ، وقال لهم وقد فار فائره : « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى الأمر وقد استعد لقتالكم من استعد ! »

وجاءت الرسل من أبى عبيدة فى الشام تستغيث عمر وتَسْتَمِدّه ، فقد فاجأ هرقل المسلمين ، وحاصر حمص ، وبداخلها أبو عبيدة وجنده !

ورأى عمرِ ألا يغاضب أهل الكوفة فى هذا الوقت الحرج ، فأجابهم إلى ما طلبوه من عزل سعد ، وأذاع فى المدينة مِنْ على منبر الرسول : « لم أعزل سعدا عن عجز أوِخيانة . » وأرسل بذلك إلى الآفاق . . وأرسل إلى أهل الكوفة عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، وكتب إليهم : « إنى قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، واسمعوا من قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى » .

والهرمزان فى المدينة يبدى الولاء لعمر ، فيتقبله عمر منه ، على الرغم من أنه يعلم ما يحمله الفرس له من ضغينة ، وما يكنون له فى القلوب من سخيمة !

ويسأل عمرُ الهرمزانَ عن رأيه فى توجيه جيوش الفتح الإسلامى للتخلص من تهديد ملك الفرس : أتبدأ زحفها للقضاء على ملك الفرس بأذربيجان ، أم بأصفهان ، أم بإقليم فارس ؟ . . وأحس الهرمزان أن عمر يمتحن ولاءه وصدقه . . ولم يكن أمام الهرمزان إلا أن يصْدُق الفاروق النصيحة . قال : « يا أمير المؤمنين ، إن فارس وأذربيجان الجناحان ، وأصبهان (أصفهان) الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس ! »

فوجه عمر جنود الفتح إلى أصفهان ، ففتحوها وفتحوا همذان ، فَسَيّرهم عمر شمالا إلى الرِّىّ ، فلما فتحوها وهى من أمنع مدن الفرس ، تسرع أهل المناطق المجاورة فصالحوا المسلمين ، ونهض بعضهم فانضم إلى المسلمين فى زحفهم إلى الشمال حتى بحر قزوين ، فوضع عمر الجزية عمن انضموا من أهل الذمة إلى المسلمين ، ففتحوا البلاد المجاورة لأذربيجان ، وقد أمدّهم عمر بجند البصرة بقيادة أبى موسى الأشعرى ، ولكن الفرس حشدوا حشودا عظيمة ، ووضعوا خطة ماكرة للإيقاع بجيوش المسلمين . . فرأى عمر فيما يرى النائم أن المسلمين فى واد وأن الفُرْس على جبل ، فان أقاموا فى الوادى أوقع بهم الفرس ، وإن صعدوا إلى الجبل خَلْفَ الفرس تمكنوا منهم وهزموهم . . وكان يقود المسلمين فى ذلك الوادى سارية بن زنيم . .

فلما أصبح الصباح ، وصلّى عمر بالناس ، صعد المنبر فخطب الناس ، ثم

خطرت رؤياه التى رآها من ليلته على قلبه ، فترك كلامه وصاح صيحة عظيمة : « يا سارية ! الجبلَ » (أى ألزم الجبل) . .

فلم يدر الناس ما يقول عمر ، فلما انتهت الصلاة فزع الناس إلى على ابن أبى طالب ، لما يعرفونه من حسن فهمه لعمر ، فقالوا لعلى : « أما سمعت عمر يقول : يا سارية الجبل ، وهو يخطب على المنبر ؟ ! » قال : « ويحكم ! دعوا عمر ، فإنه ما دخل فى شىء إلا خرج منه ، وإن السكينة (الإلهام) لتنطق على قلبه ولسانه . »

فلما قدم سارية المدينة على الفاروق فى جمع من الناس قال : « يا أمير المؤمنين ، كنا فى منخفض من الأرض والعدو فى حصن عال ، وكنا نقيم الأيام لا يخرج علينا منهم أحد ، فسمعتُ مناديا ينادى : ياسارية الجبل ! فعلوتُ بأصحابى الجبل ، فما كانت إلا ساعة حتى فتح الله علينا » .

وزحف المسلمون حتى فتحوا خراسان وهى كنز المملكة ، فاضمحلت دولة الفرس ، وزال ملك الأكاسرة إلى آخر الزمان .

* * *

بين العراق والشام تقع منطقة الجزيرة ، وسكانها عرب ، قد توزعهم الولاء للدولة الفارسية ولدولة الروم ، فلما انهزم قيصر ، واعتصم بعاصمة ملكه القسطنطينية ، جعلوا ولاءهم ليزدجرد ملك الفرس ، ولكنهم وجدوه يفر أمام المسلمين إلى أقصى الأرض ، حيث لاذ بملك الصين ، فاتجهوا إلى هرقل ، فكتبوا اليه يغرونه بإرسال جند من البحر ، ينزل شواطىء الشام ، فيقاتل المسلمين ، وسيعاونونه من البر ، فيطوقون المسلمين من ظهورهم ، حتى يصبحوا بين جنود الروم وجنود الجزيرة ، وبهذا يعيدون إليه مُلْكَ الشام ! وتعاهد الطرفان ، على أن يحمى كل طرف منهما الآخر ، من غزوات المسلمين . . فلم يردّ عليهم هرقل ، أول الأمر ، ولكنهم ظلوا يكتبون إليه ، ويُغرونه بالمسلمين ، ويُهوّنون عليه الأمر ، ويقولون له إنهم عرب كالمسلمين القادمين من جزيرة العرب ، والعرب أدرى بالعرب ، وإن أساطيله ما زالت سيدة البحار ، ويزعمون له أن المسلمين عرب يخافون البحر ! . . فأجابهم هرقل آخر الأمر ! . فأمر أسطوله أن يتحرك من الاسكندرية إلى إنطاكية . . فلما بلغ الاسطول إنطاكية وجد أهلها

قد وثبوا على المسلمين ، وفتحوا للروم أبواب المدينة . . وهاجم حلفاؤهم العرب حِمْصَ التى اتخذها أبو عبيدة بن الجراح عاصمة الشام ، فأمر عمر أن يزحف من الشام جيش بقيادة القعقاع إلى حمص : « فإن أبا عبيدة قد أحيط به » . . وأمر الفاروق جيشا آخر من الكوفة أن يزحف إلى حمص ليعين أبا عبيدة . . ورأى الفاروق أن الروم إن هم نجحوا فى استرداد حمص ، وإن استقروا فى إنطاكية ، لقضوا على الدولة الناشئة ، ولأطمعوا الفرس فَلَمُّوا شتاتهم ووثبوا عليها ! فحشد عمر جيشا كثيفا من أحياء العرب جميعا ، وسار هو بنفسه على رأسه إلى الشام ، فلما علم الذين حالفوا الروم بأمر هذا الجيش ، خافوا على أنفسهم ، فتفرقوا عن هرقل ، وعادوا إلى بلادهم فيما بين دولة الفرس ودولة الروم !

وقاد أبو عبيدة حامية حمص ، واشتبك مع جيش الروم الذى تطاول بقيادة ابن هرقل ، فلما رأى الروم انصراف حلفائهم العرب عنهم ، وعلموا بأمر النجدة القادمة من الكوفة ، وبأمر الجيش القادم من المدينة يقوده أمير المؤمنين بنفسه ، فروا يلتمسون النجاة ، قبل أن يبلغ أى من الجيشين حمص !

فعاد عمر بجيشه إلى المدينة ، أما القعقاع فتقدم بجند الكوفة يُلْقِى الرعب فى قلوب الذين يحاولون نقض الميثاق ، أو الانتقاض على المسلمين . .

انتصر المسلمون ، واستردوا ما استولى عليه الروم ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، فأرسل عمر إلى أبى عبيدة : يأمره بأن يشرك أهل الكوفة فى الغنائم ، وأن يجزل لهم العطاء ، وإن لم يشتركوا فى القتال ، فمقدمهم هو الذى أثار خوف الروم ، واضطرهم إلى الفرار ، وقال عمر فى آخر كتابه : « جزى الله أهل الكوفة خيرا ، يحمون حوزتهم ، ويمدون أهل الأمصار » . ولعله بكلماته هذه استرضاهم ، بعد أن كان قد جافاهم أيام خلافهم مع سعد .

ثم إن إحدى قبائل العرب ، ارتحلت إلى أرض الروم لتعيش فى كنف هرقل ، فكتب عمر إليه : « إنه بلغنى أن حَيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتُخْرِجُنّه أو لَنُخرجَن إليك النصارى » (وهو تهديد بأن يسيّر إليه جيشا من النصارى) . .

فأسرع هرقل بإعادة تلك القبيلة إلى أرضها ، تحت حكم المسلمين .

ورأى أبو عُبَيْدَةُ بن الجراح أن يطارد فلول جيوش الروم داخل أرض الروم ، لكيلا تقوم للروم فى الشام قائمة بعد ، ولكيلا يثبوا عليه من جديد ، أو يُغْروا حيا من أحياء عرب الشام بنقض الميثاق .

فكتب إلى عمر يستشيره فى غزو أرض الروم للقضاء على عدوه .

فكتب إليه عمر : « أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة العدو ، وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابا فابعث اليهم بالسرايا ، وادخل معهم بلادهم ، وضيق عليهم مسالكهم وإن طلبوا منك الصلح فصالحهم . »

إلا أن قبيلة بنى تغلب من عرب الشام ، لم تشأ أن تدخل فى الإسلام ، فأبى عامل عمر أن يقبل منها إلا الإسلام ، فاحتكموا إلى عمر ، فكتب اليه : « إنما ذلك لجزيرة العرب وحدها لا يُقبل من أحد فيها إلا الإسلام ، فدعهم على ألا يمنعوا أحدا من الإسلام » .

فلما أتاهم قضاء عمر فيهم ، سُرّوا به ، ودخل بعضهم فى الإسلام طائعا ، وأبى الآخرون . . وكان فى بنى تغلب أنفة وصلف ، فقال الذين أسلموا منهم للفاروق : « يا أمير المؤمنين ، لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن ضاعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم (أى الزكاة) فيكون جزاء (أى جزية) ، فإنهم يغضبون من ذكر الجزية ، على ألا يُنَصِّروا المواليد إذا أسلم آباؤهم . » ولكن عمر أبى هذا عليهم ، وأصر على أن يؤدوا الجزية وعلى أن يكون اسمها جزية لا صدقة ، وأن يؤدوها عن يد وهم صاغرون .

فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء (أى الجزية) لندخلن أرض الروم ! » قال عمر : « لئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم إلى هرقل وليردنكم ولأسبينكم ! » . . فقد كره عمر أن يهدده أحد بالهروب إلى أرض الروم ، ولئن سمح بهذا التهديد لما توطدت أركان النظام الجديد !

واشتد الحوار بين عمر وبينهم ، وعلى بن أبى طالب جالس ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، ألم يضعف عليهم أميرهم الصدقة ؟ » قال عمر : « بلى ، ورضى منهم الصدقة بدل الجزاء (الجزية) . » قال على : « فهو ذاك ! » فلم يقبل عمر ، فحاوره علىٌّ طويلا . . وما زال على بالفاروق حتى قبل منهم الجزية

مضاعفة ، باسم الصدقة كما أرادوا ، ذلك أنهم عرب مثلهم ، وما ينبغى له أن يرغمهم ، ومن الخير أن يحافظ على عزتهم !

وقد أكسبه هذا قلوبهم ، فتحول كثير منهم إلى الإسلام ، وحتى الذين بقوا على دينهم ، ناصروا المسلمين على عدوهم . . ثم إنهم شكوا إليه عَامِلَه عليهم ، لأنه لا يرعى لهم وقارا ، فعزله ، وولّى عليهم أميرا آخر يكرمهم .

* * *

لم يبق فى مِلْكِ الروم من الامبراطورية إلا إيلياء (بيت المقدس) ، وغزة ، وبعض مدن صغيرة فى فلسطين ، ثم مصر ، وما يليها من الغرب . .

رأى أبو عبيدة أنه لن يستطيع أن يفتح إيلياء إلا إذا قطع عن الروم الإمدادات من البحر ، فما بقيت غزة فى أيدى الروم ، سيتمكنون من إرسال أسطولهم بالجنود والعتاد والميرة للدفاع عن بيت المقدس ! . . من أجل ذلك آثر أبو عبيدة أن يبدأ بفتح غزة . . فأرسل إليها عمرو بن العاص ، وأمره بأن يفتحها ، ويستولى على ما حولها من البلاد التى تُمِدّ إيلياء . وكان عمرو من أهل الدهاء وسعة الحيلة .

وكانت قوات الروم التى ما زالت بفلسطين تحت قيادة الرجل الثانى فى الامبراطورية بعد هرقل ، ويسميه الروم أطربون ويسميه العرب أرطبون ، وكان أدهى الروم وأوسعهم حيلة ، وقد وزع قواته على غزة ، وما حولها من مدن ، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب عن أطربون وسعة حيلته ، فقال عمر : « قد رمينا أطربون الروم بأطربون العرب ، فانظروا عَمَّ تنفرج ! »

بعث عمر المدد إلى عمرو ، فوزع بعض قواته على بيت المقدس (إيلياء) ، واللد ، والرملة ، ونابلس ، لتمنع جيوش الروم من التحرك لتساعد غزة ، ثم زحف عمرو إلى غزة ، ليقطع على الروم طريق الإمداد من البحر .

وأرسل عمرو بن العاص إلى أطربون مبعوثين ، ليزعموا له أنهم سيفاوضونه على الصلح ، وأوصاهم بأن يتحسسوا من العدو مواقع الضعف ، ولكنهم لم يأتوا ابن العاص بما يريد ، فذهب بنفسه إلى أطربون ، وادعى أنه رسول عمرو بن العاص إليه ، وتعرف عمرو على ما يريد من الروم . . وبلغ أطربونَ فتلطف اليه ، واستأنس به ، فلما تحاورا شك أطربون فيه ، وقال فى نفسه : « إن هذا لعمرو بن

العاص أميرهم نفسه ، أو الذى يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ! »

ثم دعا رجلا فاتكا من خاصته ، وهمس إليه بأن يتربص بعمرو بن العاص على طريق عودته ، فيقتله .

وشعر عمرو بما يدبره له أطربون ، فقال له وهو ينهض : « قد سمعت منى وسمعت منك ، فأما ما قلته فقد وقع منى موقعا حسنا ، وأما أنا إلا واحد من عشرة بعثهم عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، لنكاتفه ، ويشهدنا أموره ، فلأرجع فآتيك بهم الآن ، فإن رأوا فى الذى عرضتَ علىَّ مثل الذى أرى فقد رآه العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتّهم إلى مأمنهم ، وكنتَ على رأس أمرك . » .

فقال له أطربون : « انطلق ، لأصحابك » .

ودعا أطربون الرجل الفاتك الذى كان قد أمره باغتيال عمرو ، فنهاه عن ذلك .

وانطلق عمرو إلى عسكره ، وقد عرف مواطن الضعف فى حصون العدو وجيشه ، فباغتهم بهجوم خاطف عنيف ، فقال أطربون : « لقد كان هو عمرو ! خدعنى الرجل ! هذا أدهى الخلق ! » . وبلغ الفاروق ما حدث ، فضحك ، وقال : « غلبه دهاء عمرو ! لله درُّ عمرو ! »

ونشب القتال ، واستمر طويلا ، حتى سقطت غزة ، وأسرع ما حولها من المدن فى طلب الصلح ، وأبو عبيدة مازال يحاصر بيت المقدس (إيلياء) .

وقدر أطربون أن إيلياء لن تصمد ، وستنهار كغيرها ، فآثر أن ينسحب بجيشه سليما إلى مصر ، آخر معاقل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فيستعد للكر على جيوش الإسلام ! فأرسل عمرو يستأذن الفاروق فى فتح مصر والقضاء على دولة الروم بها ، فلم يرحب عمر ، وآثر أن ينتظر حتى يفرغ من أمر بيت المقدس . . لقد فرّ منها أطربون ولم يعد فيها من يقوم بأمورها ، ويقضى فى مصيرها ، إلا بَطْرِيقُها ، وهو شيخ كبير ورع . .

وتحصنت حامية إيلياء وراء أسوارها الشامخة المنيعة ، ولكن البطريق فاوض أبا عبيدة على الصلح ، على أن يسلمها لعمر بن الخطاب نفسه ، لا لأحد غيره . .

وكتب أبو عبيدة إلى عمر ، فجمع عمر الناس بالمسجد ، ليشاورهم فى الأمر : أيخرج إلى بيت المقدس أم يبقى فى المدينة المنورة ؟ فأشار عثمان عليه ألا يبرح المدينة ، وقال : « فأنت إن أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستعد ، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا . . ويعطوا الجزية . »

ولكن على بن أبى طالب أشار على الفاروق بالخروج ، قال : « لقد أصاب المسلمين جهدٌ عظيم من البرد والقتال وطول المقام ، فاذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين العافية والصلاح والفتح . ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ، ويمسكوا حصنهم ، ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم ، ولا سيما وبيت المقدس معظم عندهم ، وإليه يحجون » .

أخذ عمر برأى على ، وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بمدينة الجابية ، على هضبة الجولان ، بسوريا ، فى يوم حدده لهم ، ثم سار فى عدد من كبار الصحابة إلا عليا ، فقد استخلفه على المدينة مكانه ، فلما أتى الجابية جاءه أمراء الأجناد على خيولهم المُطَهَّمة ، ورآهم فى زينتهم ، فأنكر ثيابهم الفاخرة ، وأخذ حصوات من الأرض ، فرماهم بها ، وقال : « إياى تستقبلون فى هذا الزى ! إنما شبعتم منذ سنتين ! سرعان ما ندّت بكم البطنة ! فوالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم ! » فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، إنما هى يلامقة (جمع يلمق فارسى معرب : الجبة) وإن علينا للسلاح . » قال : « فنعم إذن ! » .

وأقبل عليه رجل من اليهود فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إنك لا ترجع بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء (بيت المقدس) » .

وبينما كان عمر فى الجابية ، رأى جماعة من فرسان الروم قادمين من بعيد ، ففزع المسلمون إلى سلاحهم وخيلهم ، فقال لهم عمر : « لا تراعوا ! » وإذا وفد أهل بيت المقدس قد أتوا عمر ، يدعونه إلى الصلح ، وإلى دخول مدينتهم . . واستعد عمر للسفر إلى بيت المقدس ، فأخذ يهيىء بعيره بنفسه للسفر . . ورأى أبو عبيدة أمير المؤمنين فى ثوب مرقع ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، لو ركبت بدل بعيرك جوادا ، وليست ثيابا بيضاء ، لكان هذا أعظم فى عيون الروم ! » فقال : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلا . » .

ولكن أبا عبيدة وبعض كبار الصحابة مازالوا بعمر حتى رضى بأن يغير مرقعته ، وبعيره ، فأتوا له بثوب أبيض من كتان ، فقال : « ما هذا ؟! » قالوا : « كتان » قال : « وما الكتان ؟ ! » فأخبروه .. .

وكان الفاروق وغلامه يتناوبان الركوب ، فيركب هو مرحلة من الطريق ، وغلامه مرحلة أخرى ، حتى إذا دخلا بيت المقدس ، كان الغلام راكبا ، وأمير المؤمنين يمشى فى الطريق الموحل ، وأهل بيت المقدس لا يصدقون أنفسهم من الدهشة ، وهم ينظرون ! . . أى الرجلين هو أمير المؤمنين : أهو الراكب ، أم هو هذا الذى يمشى تحت المطر . . . ؟ !

وصالح عمر أهل بيت المقدس على الجزية ، فقد ثبتوا على دينهم . . وجاءت معاهدة الصلح محققة لمصالح الطرفين ، وآية من احترام حرية العقيدة ، والرأى ، ورعاية حقوق الإنسان ، وهذا هو نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (بيت المقدس) من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسائر ملتهم ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود (وكانت هذه هى رغبة أهل البلد) ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يُخْرِجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم (كنائسهم) وصلُبهم (جمع صليب) حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعدوا ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا ما عليهم من الجزية » .

* * *

فرح أهل بيت المقدس بهذه المعاهدة فرحا عظيما ، فها هو ذا أمير المؤمنين عمر يكفل لهم حرية العقيدة ، بعد أن كان قيصر الروم هرقل يقهرهم على اعتناق مذهبه ، فمن خالف منهم عذبه عذابا أليما ، واستولى على أمواله وأرضه ، وهدم بيته ، على الرغم من أنه مسيحى مثلهم ! . . أين هذا مما يوفره لهم عهد أمير المؤمنين !

سار عمر إلى بيت المقدس ، حتى إذا بلغ الصخرة المقدسة ، التى تخفق لها قلوب اليهود والنصارى والمسلمين على السواء أزاح عنها بيده التراب المتراكم عليها ، وأمر المسلمين : « ابنوا عليها مسجدا » .

ثم قصد محراب داود ، فصلى فيه بالناس ، وسهر ، وسهر الناس معه يتعبدون حتى مطلع الفجر ، فصلى الصبح بالناس ، وقرأ فى أول ركعة سورة (ص) ، وفى الركعة الثانية سورة الإسراء .

وصحب بطريقُ بيت المقدس أمير المؤمنين ، وطاف به على آثار المدينة ، فزار هيكل سليمان ، وكنيسة القيامة ، وحانت صلاة الظهر ، وعمر والبطريق فى كنيسة القيامة ، فدعاه البطريق إلى الصلاة ، داخل الكنيسة ، فأبى عمر كى لا تكون سنة للمسلمين من بعده ، فيُخرجوا النصارى من كنائسهم ، فمدُّوا له بساطا على باب كنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة ، ليصلى ، فأبى ، كى لا يصلى المسلمون من بعده على عتبات الكنائس ، وأعطى للمسيحيين عهدا بألا يصلى أحد من المسلمين على عتبة كنيسة أبدا !

وانطلق عمر إلى المكان الذى أمر المسلمين بأن يقيموا عليه مسجدا ، عند الصخرة المباركة ، فصلى بالناس .

* * *

أراد عمر أن يسجل عظمة الإسلام الذى حقق هذه الفتوحات الباهرة جميعا ، لكى تحفظها الأجيال ، وتدوى بها الآفاق ، وتخلد إلى آخر الزمان . . فوجد أن الشعر هو ديوان العرب ، وأنه ما من أداة من أدوات التعبير الإنسانى المعروفة للعرب أبقى ، ولاأفعل ، أو أنفع من الشعر ، وعلم أن أكثر الشعراء قد

غزوا ، وشاركوا فى الفتوحات ، فكتب إلى عماله كتابا واحدا أن : « استنشد مَنْ قِبَلك (بكسر القاف وفتح الباء : يعنى من عندك) من شعراء قومك ما قالوا فى الإسلام » .

فكتب إليه شاعر اسمه الأغلب العجلى :

لقد سألت هينا موجودا   أَرَجَزاً تريد أم قصيدا ؟

أما الشاعر لُبَيْدٌ فقال لأميره : « إن شئت مما عفا الله عنه - يعنى الجاهلية - فعلت » قال أميره : « لا ، أنشدنى ما قلت فى الإسلام » ، فانطلق لُبَيْدٌ فكتب سورة البقرة ، ثم دفع بها إلى أميره وقال : « أبدلنى الله عز وجل بهذا فى الإسلام بدل الشعر » .

فلما بلغ الفاروق ذلك ، أمر عامله أن ينقص من عطاء الأغلب خمسمائة ، ليزيدها من عطاء لبيد . .

فركب الأغلب إلى الفاروق ، فلما رآه قال : « هيه ، أنت القائل :

أرجزا تريد أم قصيدا ؟   لقد سألت هينا موجودا . . ؟!

فقال له : « يا أمير المؤمنين : لقد أطعتك ! أتنقص عطائى أن أطعتك ؟ ! »

فكتب عمر إلى عامله : « اردد على أغلب الخمسمائة ، وأَقِرّ الخمسمائة للبيد . » .

* * *

ومضى عمر يتفقد الرعية ، ويرى ما صنعت الفتوحات بأهل المدينة المنورة . . لقد كثر المال ، وامتلأت المدينة بالسبايا الروميات والفارسيات ، وكثر فيها العلوج ، وكان هذا يزعجه ، فلم يكن يريد أن يخلط غير العرب بعرب المدينة ، ولكن بعض كبار المسلمين ألحوا عليه فى أن يسمح لهؤلاء العلوج بالبقاء فى المدينة ، فأكثرهم هم أهل صنائع وحرف لا يتقنها العرب ، وإن أبرعهم فى هذا لأبو لؤلؤة غلام المغيرة ، فهو حداد ونجار وصانع رحى ! ولكنه كان إلى

تفوقه فى الصنائع وتفرده بإتقان أكثر من حرفة يُكِنُّ حقدا هائلا لعمر الذى مزق دولة قومه الفرس ، فاحتلتها عساكره ، وأصبح بنات ساداتها إماء لرجاله ، وولدانها غلمانا لهم !

وتعود عمر أن يذهب إلى دور أرامل الشهداء ، ليطمئن بنفسه على راحتهن ، وراحة أولادهن ، ويقول : « أنا عائل من لا عائل له ! »

إنه ليشعر بأنه مسئول عمن ترك المجاهدون الشهداء .

خرج جُنْدُب إلى الشام غازيا ، ولم يكن له غير بنت واحدة ، فخلفها عند عمر وقال : « ياأمير المؤمنين ، إن وجدتَ لها كفئا فزوجه بها . . وإلا فأمسكها حتى تلحقها بدار قومها . »

وكان جندب من سراة قبيلة فى البادية ، فلما استشهد فى الغزو ، أقامت ابنته عند عمر ، فرباها حتى أصبحت تدعوه أباها ، ويدعوها ابنته . . وإنه لعلى المنبر يوما يكلم الناس ، إذ خطر ذكرها على قلبه ، فقال : « من له فى الجميلة الحسيبة بنت جندب بن عمرو ، وليعلم امرؤ من هو ! » فقام عثمان فقال : « أنا ياأمير المؤمنين . » قال عمر : « أنت لَعَمْرُ الله ! » فسأله عن مهرها ، فذكر له ما يرضيه ، فقال : « قد زوجتكما ، فَعَجِّلْ بمهرها فإنها مُعَدَّة » ونزل عن المنبر .

فجاء عثمان بمهرها ، فأخذه عمر فى كمه ، وعاد به إلى داره ، فناداها ، فلما أقبلت عليه قال : « يا بُنَيَّة ، مُدِّى حجرك . » فلما فتحت حجرها ، ألقى فيه المال ، وقال : « يا بنية ، قولى اللهم بارك فيه . » فقالت : « اللهم بارك فيه ، لكن ما هذا يا أبتاه ؟ ! » قال : « مهرك » فردته اليه ، وقالت : « واسواتاه » فقال : « احتبسى منه لنفسك ، ووسعى منه لأهلك . » .

ثم قال لحفصة : « يا بنتاه ، أصلحى من شأنها » ففعلت .

ثم أرسل بها مع نسوة إلى عثمان ، فلما انطلقن بها ، قال لنفسه : « إنها أمانة فى عنقى أخشى أن تضيع بينى وبين عثمان ! »

فانطلق إلى عثمان فقال : « أهلك بارك الله فيهم ! » وظل يوصيه بها خيرا ، فأكرمها عثمان ، وأحسن مثواها ، وأنجبت له .

* * *

وكان عمر وهو يتفقد أحوال الرعية ينظر فيما أحدثته الحروب فى الناس . . وقد اتصلت بهم الحروب منذ تولى أبو بكر ، ثم اتسعت الغزوات والفتوحات من بعد . .

وحرص على أن يأسو ما خلفته الحرب من جراحات ، وعلى أن يْطِبّ لما صنعته من أدواء ، وعلى أن يقضى على ما استحدثته من بدع . .

فمما أسى من جراحات حرصه على ألا يغيب الأزواج عن زوجاتهن الشابات ، أكثر من أربعة أشهر ، وكذلك حرصه على رد الأبناء إلى آبائهم الشيوخ ، إن لم يكن لهم أبناء غيرهم . .

كان شاب يدعى كِلَاب بن أمية قد أسلم حديثا فهاجر إلى المدينة ، ولقى طلحة والزبير ابن العوام ، فسألهما : « أى الأعمال أفضل فى الإسلام ؟ » فقالا : « الجهاد » ، فانطلق الشاب إلى عمر ، فسأله أن يضمه إلى أحد جيوش الفتح ، فَسَيّره إلى العراق ، وطالت غيبة كلاب فى الغزو ، ومس أباه أمية المرض ، وكان قد بلغ من الكِبَرِ عتيا ، فقال شعرا فى الشوق إلى ابنه كلاب ، جاء فيه :

« تركتَ أباك مرعشة يداه وأمك ما تسيغ لها شرابا
فإنك والتماس الأجر بعدى كباغى الماء يتبع السرابا »

ولكن عمر لم يستطع أن يستدعى كلابا ، فقد انساح فى أرض الفرس مع جيش الفتح الذى انضم اليه .

فلما طالت غيبة كلاب ، وأرمض الشوق أباه ، أتى الفاروقَ وهو فى مسجد الرسول ، قد جلس لأمور الناس ، فى بعض فقهاء الصحابة من كبار المهاجرين والأنصار ، فأنشد :

أعاذل قد عذلتِ بغير قدر ولا تدرين عاذل ما ألاقى
فإما كنت عاذلتى فردى كلابا إذ توجه للعراق
ولم أقض اللُّبانة من كلاب غداة غد وأذَّنَ بالفراق
فتى الفتيان فى عسر ويسر شديد الركن فى يوم التلاقى

وظل الرجل ينشد الفاروق إلى أن قال :

سأستعدى على الفاروق ربا له دفع الحجيج إلى بُساق

(بضم الباء : موضع من شعائر الحج)

فَرَقَّ عمر للأب الذى أضناه الشوق إلى ابنه ، وكتب بِرَدّ كلاب إلى المدينة . فلما دخل عليه سأله : « ما بلغ من برك بأبيك ؟ » قال : « ياأمير المؤمنين ، كنت أوثره وأكفيه أمره ، فاذا أردت أن أحلب له لبنا أعتمد أغزر ناقة فى إبله وأسمنها ، فأريحها ، وأتركها حتى تستقر ، ثم أحتلب له فأسقيه . »

فاستدعى عمر أبا كلاب ، فأقبل يترنح من الإعياء ، وقد انحنى ظهره ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ! فقال عمر : « كيف أنت يا أبا كلاب ؟ » قال : « كما ترانى يا أمير المؤمنين ! » قال : « فهل لك من حاجة ؟ » قال : « نعم ، أشتهى أن أرى كلابا فأشمه شمة ، وأضمه ضمة قبل أن أموت ! » قال : « ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى . » .

وأمر كلابا أن يحلب لأبيه ناقة ، ويبعث إليه بلبنها ، فلما أتى كلاب بإناء اللبن ، ناوله عمر أبا كلاب وقال : « دونك هذا يا أبا كلاب . » فلما وضع الإناء على فمه ليشرب قال : « والله يا أمير المؤمنين إنى لأشم رائحة يدى ابنى فى هذا الإناء . » قال عمر : « هذا ابنك عندك حاضرا قد جئناك به . » فوثب إليه ابنه فضمه وقبله ، وتعانقا طويلا ، فبكى عمر ، وأبكى من معه ، وقال لكلاب : « الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا فى الدنيا ، ثم شأنَك بنفسك بعدهما ، وسيأتيك عطاؤك . » .

وجاء من البادية شيخ كبير من بنى هُذَيْل ، فشكا إلى عمر شوقه إلى ابنه الذى خرج غازيا مع المسلمين ، فأوغل فى أرض العدو ، وطال غيابه ، ثم بث الشيخ حزنه ، فهو وحيد ، قد قتل إخوته ، وانقرضت أسرته .

فأمر عمر بعودة الابن من الغزو ، ليكون جهاده فى سبيل الله هو رعايته لأبيه ، وبِرَّه به ، ثم أمر بألا يغزو من له أب شيخ ، إلا بعد إذنه . كما أمر بأن يبعث إلى الجهاد غير المتزوجين ، قبل المتزوجين ، والأزواج الذين ليس لهم أبناء قبل الذين لهم أبناء صغار ، ذلك أنه أحس بتضرر الزوجات والأبناء الصغار .

* * *

وكان عمر إذا تفقد أحوال الرعية حرص على أن يلزمهم مكارم الأخلاق التى

أمر بها الإسلام ، وكان عمر لا ينفك يردد الحديث الشريف : « إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق » .

قدم عبد الله بن أبى ربيعة من البحرين ، فنزل على الزبرقان ، وهو من سادة العرب ، بماء له ، فلم يحسن الزبرقان استقباله ، بل رده ردا منكرا ، وأبى أن يُضَيِّفَه ، وكان عبد الله مجهدا من بعد السفر ، فأخذ يلتمس ماء وظلا . . فنزل على بنى أنف الناقة بمائهم ، فأكرموه ، وذبحوا له شاة ، وقالوا له : « لو كانت إبلنا قريبة لنحرنا لك ناقة ! » .

فأنشد عبد الله فى الزبرقان :

وما الزبرقان يوم يمنع ماءه بمحتسب التقوى ولا متوكل

فجاء الزبرقان إلى عمر ، فقال له : « إن عبد الله بن أبى ربيعة هجانى يا أمير المؤمنين . » فسأل عمر فى ذلك عبد الله ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنى نزلت على مائه فمنعنى منه » قال عمر : « يا زبرقان ، أتمنع ماءك من ابن السبيل ؟ ! » قال : « يا أمير المؤمنين ، ألا أمنع ماءً حفر آبائى مجاريه ومستقره ، وحفرته أنا بيدى ؟ ! » قال : « يا زبرقان ، والذى نفسى بيده ، لئن بلغنى أنك منعت ماءك أبناء السبيل ، لا ساكنتنى بأرض أبدا ! »

وعجب الفاروق : ما بال المروءة والنجدة والكرم ؟ ! أمن الحق أن ما أصابه الناس من ثراء قد غرس فى الأنفس الشح ؟ ! فمن يوقى شح نفسه ، ليفلح ؟ !

أحس عمر بأن تدفق الأموال قد غَيَّر الناس أو بعض الناس . . كان الناس على عهد رسول الله ﷺ ، وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه يشغلهم العمل والعلم والجهاد ، ولا تدور أحاديثهم إذا خلا بعضهم إلى بعض ، أو تناجوا ، إلا حول هذه الأمور العظام ، حتى إذا تدفقت أموال الفتوحات ، وأغدق عمر رضى الله عنه عليهم ، أصابهم بعض ما يصيب المترفين ، فجعلوا يتحدثون عن المال ، وأصبح فيهم من يُقوِّم الرجال بالمال ، لا بصالح الأعمال . . !

ورأى الفاروق أن يقاوم هذا كله ، فشمر له . . سمع قوما يقولون : « إن فلانا قد جمع مالا » ، فقال : « فهل جمع له أياما ؟! »

ثم قال للناس : « إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تُفتح الدنيا على

أمة الا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ! » .

وأخذ يعظ الرجال أن جاه الدنيا هو المال ، أما جاه الآخرة ـ وهى خير وأبقى ـ فصوالح الأعمال .

خرج يوما يستقبل أموال خراج العراق ، ومعه صاحب له ، فجعل عمر يعد الإبل المحملة بالخيرات ، فاذا هى أكثر مما توقع ، فقال : « الحمد لله ، الحمد لله » قال صاحبه : « هذا من فضل الله ورحمته يا أمير المؤمنين » قال عمر : « كذبت ! ليس هذا الذى يقول الله تعالى فيه : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير لكم مما يجمعون) » .

إنه لَيُعَلِّم الناس أن الثراء فى الدنيا ليس من فضل الله ورحمته ، بل مما يجمعون فى الدنيا ، فأما فضل الله ورحمته ، فهى لأهل التقوى فى الآخرة . .

وقال للناس : « إنى لو شئت كنت ألينكم طعاما وأرقكم عيشا ولكنى سمعت الله تعالى يقول : (أذهبتم طيباتكم فى الحياة الدنيا واستمتعتم بها . .) ، ولقد نظرت فى هذا الأمر فوجدت أنى إن أردت الدنيا أضر بالآخرة ، وأن أردت الآخرة أضر بالدنيا ، فإن كان الأمر هكذا فأضر بالفانية ! فوالله لولا تنقص حسناتى لخالطتكم فى لين عيشكم ! » .

ولقد أعجبه ما أخذ فيه علىٌّ كرم الله وجهه من حَضّ الناس على الزهد ، وترغيبهم فى ثواب الآخرة ، بدلا من تداعيهم على شهوات الدنيا . وضرب الفاروق لعماله مثلا فى الزهد ، فلبس المرقعات ، وقسا على نفسه فى معيشته .

ذاق عامله على أذربيجان طعاما فارسيا حلوا ، فقال : « والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا ! » فملأ منه إنائين كبيرين ، ثم حَمَّلَهما على بعير أرسله مع رجلين إلى الفاروق ، فلما أتياه ، قال : « أى شىء هذا ؟ » قالا : « خبيص أرسله اليك عاملك على أذربيجان يا أمير المؤمنين . » فذاقه فاذا شىء حلو ، فقال : « أكل المسلمين تشبع من هذا الخبيص ؟ » قالا : « لا » قال : «لا ؟ ! فأعيداه ! » ثم كتب إلى عامله : « أنه ليس من كَدِّك ولا كَدِّ أمك ! أشبع المسلمين مم تشبع منه » .

فلما أغلظ على الناس حين استحبوا الطيبات ، وزُيِّنَ لهم حب الشهوات ، جاء إليه عبد الرحمن بن عوف فقال : « يا أمير المؤمنين ، لِنْ للناس ، فإنه يقدم القادم عليك ، فتمنعه هيبتك أن يتكلم في حاجته ، حتى يرجع ولم يكلمك ! » قال : « يا عبد الرحمن ، والله لقد لِنْتُ للناس حتى خشيت الله فى اللين ، ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة ! فأين المخرج ؟ » .

* * *

وما زال عمر يرعى كل أسرة غاب عائلها فى الغزو ، وعلم عمر أن أحد الرجال يدخل على نساء غاب عنهن الأزواج ، فلما تيقن عمر من ذلك ، جلد الرجل مائة جلدة ، ونهاه عن أن يدخل على امرأة فى غيبة زوجها .

وشكا عمر وجعا فى بطنه من طعام غليظ أكله ، فقال له أحد جلسائه : « يا أمير المؤمنين ، إن أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس لين لأَنَت » فرفع عمر جريدة معه ، فضرب بها رأس الرجل ، وقال : « أما والله ما أراك أردت إلا مقاربتى (التقرب منى) ... هل تدرى ما مَثلى ومَثَلُ هؤلاء ؟ » قال : « وما مثلك ومثلهم يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « مثل قوم سافروا ، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم ، فقالوا له : « أنفق علينا ، فهل يحل له أن يستأثر منها بشىء ؟ » قال : « لا يا أمير المؤمنين » قال : « فكذلك مثلى ومثلهم . » .

ثم قال للناس : « إن الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم ! والرعية مؤدِّية للإمام ما أدّى الإمام إلى الله ، فاذا رتع رتعوا . »

وجاءه عماله يشكون قلة العطاء ، وهم فى بلاد تواجه الأعداء ، وتفرض عليهم حسن المظهر ، وكثرة الإنفاق ، فخشى أن يكون ما بهم هو طموح الأبصار إلى الملذات بعد أن كثرت الأموال ، فقال لهم : « يا معشر الأمراء ، أما ترضون لأنفسكم ماأرضاه لنفسى ؟ » قالوا : « ياأمير المؤمنين ، إن المدينة العيش بها شديد ، ولا نرى طعامك يؤكل ! وإنَّا بأرض ذات ريف ، وإن طعامنا يجب أن يؤكل . » فنكت فى الأرض ساعة يفكر ويتدبر ، ثم رفع رأسه ، فأمر لكل واحد منهم بشاتين للغداء وشاة للعشاء ليطعموا أصحابهم ، وزاد من عطائهم ، ثم قال لهم : « يا معشر الأمراء ، ألا وأشبعوا الناس فى بيوتهم ، وأطعموا عيالهم ، فإن تضييقكم على الناس لا يحسن أخلاقهم ، ولا يشبع جائعهم » .

وكان عمر قد أنشأ دارا للدقيق وجعل فيها التمر والزبيب ، وما يعين عابر السبيل ، والضيف ، كما وضع فى الطريق بين مكة والمدينة ما ينفع أبناء السبيل والمسافرين من زاد وماء ، وانشأ بيوتا يستريح فيها المسافرون من الحجاج ، والمعتمرين ، وزوار مسجد الرسول خلال الرحلة بين المكتين . .

ولكن الذى آلم قلب الفاروق حقا ، وعال من صبره هو هذا التغير الذى طرأ على المرأة المسلمة بعد شيوع الترف ! فبينما هو يعس بالمدينة المنورة ذات ليلة ، إذا امرأة تنشد :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم من سبيل إلى نصر بن حجاج ؟ !

فلما أصبح الفاروق سأل عن نصر بن حجاج هذا ، فجاءوه به ، فاذا هو من أحسن الناس شَعْرا وأصبحهم وجها ، فأمر عمر بقص شعره ، فلما قصه بانت جبهته ، فازداد وجهه صباحة ، فأمره عمر أن يضع على رأسه عمامة ، فلما وضعها ازداد حسنا . فضاق به عمر ، وقال : « لا والذى نفسى بيده ، لا تساكننى بأرض أبدا ! » فأرسله إلى البصرة يقيم ويعمل فيها ، وأمر له بمال يعوضه ، ويصلحه .

وفى الليلة التالية خرج يعس كعادته كل ليلة ، فلم يسمع صاحبة نصر بن حجاج ، ولكنه سمع غير بعيد من دارها نسوة يتحدثن ويتساءلن : « أى فتى من أهل المدينة أصبحُ وجها ؟ ! » قالت إحداهن : أبو ذئب . » .

وعجب عمر . . ما بال نساء المدينة ؟ ! ما خطبهن ؟ ! ما دهاهن ؟ ! وكيف ينقذهن مما أفسده منهن الترف والفراغ ؟ !

وفى الصباح جلس الفاروق مع علىٍّ ، وروى له ما قاله نسوة فى المدينة . . ثم أرسل إلى أبى ذئب هذا ، فاذا هو حقا من أهل الوجوه الصباح ، بل لعله أصبح فتيان المدينة وجها ! فلما رآه علىٌّ قال ضاحكا : « أنت والله ذئبهن ! » . . أما عمر فقال له : « والذى نفسى بيده لا تسكن بأرض أنا بها ! » قال أبو ذئب : « فإن كنتَ لابد أن تسيّرنى يا أمير المؤمنين ، فسيرنى حيث سيرت ابن عمى نصر بن حجاج بالأمس » فبعثه إلى البصرة ، ومنحه مالا يصلحه ، ويعوضه .

وجعل عمر يتحرى عما بين نصر بن حجاج وتلك المرأة ، فخافت عمرَ على نفسها ، وأرسلت اليه :

قل للإمام الذى تُخشى بوادره ... مالى وللخمر أو نصر بن حجاج !

فلما لم يعلم عمر عليها من سوء ، بعث إليها : « قد بلغنى عنك خير ، وإنى لم أُخرج نصر بن حجاج من أجلك ! ولكن بلغنى أنه يدخل على النساء ، فلست آمنهن ! والحمد لله الذى قيد الهوى ! »

ثم إن عامله على البصرة أرسل مناديه ينادى فى أهل البصرة : « ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج إلى أمير المؤمنين ، فمن كانت له حاجة ، فليكتب . » فكتب نصر بن حجاج :

لعمرى لئن سيرتنى أو فضحتنى ... وما نلته منى عليك حرام
فأصبحت منفيا على غير ريبة ... وقد كان لى بالمكتين مقام
ظننت بى الظن الذى ليس بعده ... بقاء فما لى فى النّدِىِّ مقام
ويمنعنى مما تظن تكرمى ... وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تظن صلاتها ... وحال لها فى قومها وصيام
إمام الهدى لا تَبْتَلِ الطرد مسلما ... له حرمة معروفة وذمام

فقال عمر : « أَمَا ولِى سلطان ، فلا ! »

ثم ما بال بعض الرجال أيضا ؟ ! هل فسد الزمان حقا ؟ !

فها هو ذا أبو مِحْجَن الذى أبلى بلاء حسنا فى الفتوحات ، قد أترف بعد أن زاد عطاؤه ، وغنم مما أفاءه الله على المقاتلين من مغانم ، وها هو ذا قد أصبح يقضى فى المدينة أياما باهرة من الترف والبطالة والغزل ! ها هو ذا يعشق امرأة تسمى الشّموس وهى امرأة رجل جليل من الأنصار ، فيحتال لكى يلقاها ويحدثها !

رأى عاملا يعمل فى بستان إلى جانب منزلها ، فأغراه بالمال ، حتى ترك له العامل مكانه ، فانتحل هو صفة البستانى فأشرف على منزلها من البستان ، فمتع عينيه منها ، ثم أنشأ يقول :

ولقد نظرت إلى الشّموس ودونها ... حرج من الرحمن غير قليل

وشكاه زوجها إلى الفاروق ، فنفاه من المدينة ، وكان أبو محجن لما حارب فى القادسية ، وفعل بالفُرْس الأفاعيل ، قد عاد إلى محبسه كما وعد

زوجة سعد بن أبى وقاص حين أطلقته ، فرأته امرأة مسلمة فحسبته قد انهزم ، فهو يفر من المعركة ، فقالت تعيّره بفراره :

مَنْ فارسٌ كره الطعان يُعيِرنى   رمحا إذا نزلوا بمرج الصُّفَّر

(والصُّفَّر بضم الصاد وفتح الفاء المشددتين : مكان)

فقال لها أبو محجن :

إن الكرام على الجياد مبيتهم   فدعى الرماح لأهلها ، وتعطرى !

* * *

بلغ من شيوع الترف ، وبلوغه ما بلغ من إفْسَاده بعض الناس ، أن جماعة من الذين تدفقت اليهم الأموال والغنائم شربوا خمرا حتى سكروا ، وفيهم أبو محجن الشاعر الفارسى ، فلما علم بذلك عمر استدعاهم ، فَأُتِىَ بهم إليه ومعه بعض الصحابة ، وسألهم عمر : « أشربتم الخمر بعد أن حرمها الله ورسوله ؟ » فقالوا : « ما حرمها الله ولا رسوله ، إن الله تعالى يقول : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات .) »

فقال عمر لمن معه من الصحابة : « ما ترون فيهم ؟ » فاختلفوا فيهم ، فبعث إلى على بن أبى طالب ، وكان يحب أن يشاوره فى المعضلات ، فشاوره فى أمرهم ، وأطلعه على ردهم فقال على : « إن كانت هذه الآية كما يقولون فينبغى أن يستحلُّوا الدم ولحم الخنزير ! » فسكتوا . فقال عمر رضى الله عنه لعلى كرم الله وجهه : « ما ترى فيهم يا أبا الحسن ؟ » وكان يحب أن يناديه بكنيته تكريما له ، قال : « ياأمير المؤمنين ، أرى إن كانوا شربوها مستحلين لها أن يُقتلوا فقد حللوا ما حرم الله ، وإن كانوا شربوها وهم يؤمنون أنها حرام أن يُحَدُّوا » فقالوا : « والله ما شككنا فى أنها حرام ، ولكنا قدَّرنا أن لنا نجاة فيما قلناه . » .

ولم يكن حَدُّ الخمر قد ورد فى القرآن ولا السنة ، وكان عمر قد سأل عليا من قبل عن رأيه فى حَدِّ الخمر ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، أليس إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى ؟ » قال عمر : « بلى » فقال على : « فحد الخمر هو حد القذف والافتراء ، ثمانون جلدة » فأمر عمر باقامة الحد على أبى محجن وصحبه ،

فجلدوهم رجلا رجلا ، وهم يخرجون كاسفى البال محسورين ، فلما جلدوا أبا محجن أنشد :

ألم تَرَأَنّ الدهر يعثر بالفتى ولا يستطيع المرء صرف المقادر

إلى أن قال :

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى ولست عن الصهباء يوما بصابر .

فقال عمر مغضبا : « لقد ابديتَ ما فى نفسك ، ولأزيدنّك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر ! » فقال له عَلِيّ : « ما ذلك لك يا أمير المؤمنين ، وما يجوز أن تعاقب رجلا قال : لأفعلن وهو لم يفعل ، وقد قال الله فى الشعراء : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) » فقال عمر : « قد استثنى الله منهم قوما فقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) » فقال على : « أفهؤلاء عندك منهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : لا يشرب العبد الخمر حين يشربها وهو مؤمن ؟ » . فقال عمر : « لا أحيانى الله بأرض ليس فيها أبو الحسن ! » .

وكان عمر يحب أن يستفتى عليا حتى فى أخص شئونه . . من ذلك أنه أراد أن يتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت كما وصفها عارفوها : « امرأة لها جمال وكمال وتمام فى عقلها ومنظرها وجزالة فى رأيها » ، وكانت زوجة لعبد الله بن أبى بكر ، فغلبته على رأيه ، إذ فتن بها حتى لم يعد يخرج للتجارة كما تعود ، فمر عليه أبو بكر رضى الله عنه وهو على سطح بيته يداعبها يوم جمعة ، فتوجه أبو بكر إلى الصلاة ، وعاد ، فوجد ابنه ما زال يناغى عاتكة ، فسأله إن كان قد صلى الجمعة ، فقال عبد الله : « أَوَ صَلّى الناس ؟ ! » فقال له : « يا بنى ، قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة ، وقد اَلْهَتْكَ عن فرائض الله تعالى ! طلقها . » فطلقها تطليقة واحدة ، فتحولت عنه إلى ناحية من الدار بعيدا منه ، فلم يطق البعد عنها ، وشَقّه هجرها ، فبينما أبوه يصلى ليلا على داره ، إذ سمعه ينشد قصيدة يتوجع فيها ، أنهاها بقوله :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها فى غير شىء تطلق

فلما انتهى أبو بكر من صلاته ، قال له مشفقا عليه : « يا بنى ، راجع عاتكة » . فقال : « أشهدك أنى راجعتها . » ثم دعا غلاما له فقال : « يا أيمن أنت

حر لوجه الله ! » . . وأسرع إليها فرحا ، فأخبرها برأى أبيه ، ثم أنشدها :

ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة وأنك قد تمت عليك المحاسن
فـإنـك ممن زين الله وجهـه وليس لـوجـه زانـه الله شـائن

فلما عادت إليه ، زاد تعلقه بها ، فوهب لها حديقة على ألا تتزوج بعده . . فلما استشهد ، وبقيت مدة وحيدة بلا زوج ، خطبها عمر ، فقالت له : « إن عبد الله بن أبى بكر قد كان أعطانى حديقة على ألا أتزوج بعده ؟ » فتحير عمر : بِمَ يفتيها . ثم قال لها : « أستفتى على بن أبى طالب » ، فقال لها على : « ردى الحديقة على أهل عبد الله وتزوجى عمر . » ففعلت .

* * *

كان عمر يأنس ببعض الرجال فيستفتيهم .

جلس مرة فى جماعة من الصحابة ، وفيهم سلمان الفارسى ، وكان يحب سلمان لمكانته من رسول الله ﷺ ، فسأله : « يا سلمان ، أملك أنا أم خليفة ؟ فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم ! » فقال له سلمان : « يا أمير المؤمنين ، إن بينهما فرقا » قال : « ما هو ؟ » قال : « الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق ، فأنت بحمد الله كذلك ، فإن أنت جَبَيْتَ من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثم وضعته فى غير حقه ، فأنت مَلِكٌ غير خليفة ! »

وكان الفاروق يحرص على إسعاد كل من يمت لرسول الله ﷺ بسبب . . من أجل ذلك ساوى عطاء كلا من سلمان وأبى ذر بعطاء بدر ، لمكانتهما من رسول الله ﷺ . . ومن أجل ذلك ما ذاق فاكهة مرة إلا أهدى منها لأزواج النبى ، وكان هو الذى يخرج بهن إلى الحج . . ومن أجل ذلك جعل للعباس عم النبى مكانا عَلِيًّا ، وقدمه فى العطاء على الناس ، جميعا . . ومن أجل ذلك جعل عطاء الحسن والحسين كعطاء أهل بدر ، وروى للناس : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

ولقد دعا إليه الحسين يوما ، وكان يحب أن يحاوره ، فجاء إليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر ، فسأله : « من أين جئت ؟ » قال : « استأذنت على أمير

المؤمنين فلم يأذن لى » فرجع الحسين . فلما لقيه عمر بعد ذلك عاتبه قائلا : « ما منعك يا حسين أن تأتينى » قال : « ياأمير المؤمنين ، قد أتيتك ولكن أخبرنى عبد الله بن عمر أنه لم يُؤْذَنْ له عليك ، فرجعت » قال عمر : « أوَ أنت عندى مثله ؟! أأنت عندى مثله ؟ ! وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم يا آل البيت ؟ »

إلى هذا المدى كان يحب آل البيت . .

* * *

ولم تكن حياة عمر كلها جفافا وهموما . . فقد كان يسمر أحيانا ، ويستخبر بعض من يصطفيهم عن الأحوال والنوادر . . جلس يوما مع عمرو بن معدى كرب ، فسأله عن سعد بن أبى وقاص ، وكان عمرو من قُوَّاد جيش سعد ، فأثنى عمرو على سعد أطيب الثناء ، فسأله عن قومه مذحج ، فوصفهم أحسن وصف ، فجعل عمر يسأله عن قبائل العرب وفرسانهم ، وهو يجيبه اجابة خبير ، ثم سأله عن الحرب ، فقال : « سألت عنها خبيرا ، هى والله ياأمير المؤمنين مرة المذاق ، إذا شمرت عن ساق ، من صبر فيها ظفر ، ومن ضعف فيها تلف ، ولقد أحسن واصفها فأجاد :

الحرب أول ما تكون فتية تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حَمِيَتْ وَشبّ ضرامها عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جَزَّتْ رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل »

فسأله عمر عن الحروب فى الجاهلية ، وكان عمرو بن معدى كرب من أشجع فرسانها ، فحدثه بما أشبعه . فقال له : « يا عمرو ، هل انصرفت عن فارس قط فى الجاهلية هيبة له ؟ » فقال : « نعم يا أمير المؤمنين . »

فعجب له عمر . ذلك أن فارسا فى بطولة عمرو لا يمكن أن يفر من أحد ، ولئن فعلها لا يذكرها !

فلما رأى عمرو تعجب الفاروق منه قال : « ياأمير المؤمنين ، والله ما كنت أستحل الكذب فى الجاهلية فكيف أستحله فى الإسلام ؟ ! لأُحَدّثّنك حديثا لم أُحَدِّث به أحدا قبلك : خرجت فى خيل أريد الغارة ، فأتينا قوما سراة . . »

فقاطعه عمر : « وكيف عرفت أنهم سراة ؟ ! » قال : « رأيت يا أمير المؤمنين أنعاما كثيرة وشاء (جمع شاة) ، وقبابا كبيرة ، فأهويت إلى أعظم قبة ، بعدما غنمنا ما غنمناه ، فاذا تحت هذه القبة العظيمة امرأة بادية الجمال ، على فرش لها ، فلما نظرت إلىّ وإلى الخيل استعبرت ، فقلت : ما يبكيك ؟ ! قالت : والله ما أبكى على نفسى ، ولكنى أبكى حسدا لبنات عمى : يسلمن وأُبْتَلَى أنا من بينهن ! فظننت أنها والله صادقة ، فقلت : وأين هن ؟ قالت : فى هذا الوادى ، فقلت لأصحابى : لا تُحْدِثُوا شيئا حتى آتيكم .

« ثم همزت فرسى حتى علوت كِثَيباً (أى تلا) ، فاذا أنا بغلام أصهب الشعر يخصف نعله وسيفه بين يديه وفرسه عنده ، فلما نظر إلىّ رمى النعل من يده ، ثم قام غير مكترث ، فأخذ سلاحه ، فلما نظر إلى الخيل محيطة ببيته أقبل نحوى ، فحملت عليه بفرسى ، فاذا هو أروغ من هِرّ (أى قط) ، فراغ عَنِّى ، ثم حمل علىّ فضربنى بسيفه ضربة جرحتنى ، فلما أفقت من ضربته حملت عليه ، فراغ والله ، ثم حمل علىّ ، ثم صرعنى ، ثم استاق ما فى أيدينا ، ثم استويت على فرسى ، فلما رآنى أقبل علىّ ، فحملت عليه ، فراغ والله عنى ، ثم حمل عَلَىّ فضربنى ضربة أخرى ، ثم صرخ صرخة ، ورأيت الموت والله ياأمير المؤمنين ليس دونه شىء ، وخفته خوفا لم أخف قط أحدا مثله ، وقلت له : من أنت ثكلتك أمك ؟ ! فوالله ما أجترأ علىّ أحد قط فمن أنت ؟ ! قال : بل من أنت ؟ أخبرنى وإلا قتلتك ! قلت : أنا عمرو بن معدى كرب ، قال : وأنا ربيعة بن مكدم » .

« قلت : اختر منى إحدى ثلاث خصال : إن شئت اجتلدنا بسَيْفَيْنا حتى يموت الأعجز منا ، وإن شئت اصطرعنا ، وإن شئت السلم ، وأنت يا ابن أخى حَدَثٌ وبقومك إليك حاجة . قال : بل هى إليك ، فاختر لنفسك ، فاخترت السلم . قال لى : فانزل عن فرسك . قلت : يا ابن أخى ، قد جرحتنى جراحتين ولا نزول لى ! »

« فوالله ما كَفَّ عنى حتى نزلت عن فرسى ، فأخذ بعنانه ، ثم أخذ بيدى وانصرفنا إلى الحى ، وأنا أجرّ رجلى ، فلما رأونى غمزوا خيولهم إلىّ فناديتهم : إليكم ، فمضى إليهم والله كأنه ليث حتى شق صفوفهم ، ثم أقبل عَلَىَّ وقال : لعل أصحابك يريدون غير الذى تريد ! فَصَمَتَ والله أصحابى ما فيهم أحد ينطق ،

وآعظموا ما رأوا منه ، فقلت : يا ربيعة بن مكدم لا يريدون إلا خيرا ، وإنما سميته ليعرفه أصحابى ، فقال لهم : ما تريدون ؟ فقالوا : وما تريد ؟ قد جرحت فارس العرب ، وأخذت سيفه وفرسه ! ومضى ومضينا معه حتى نزل ، فقامت اليه صاحبته ، وهى ضاحكة ، تمسح وجهه ، ثم أمر بإبل فنُحِرَت ، وضُرِبَتْ علينا قباب ، فلما أمسينا جاءت الرِّعاء (الرعاة) ومعهم أفراس ، لم أر مثلها قط ، فلما رأى نظرى إليها قال : كيف ترى هذه الخيول ! ؟ قلت : لم أر مثلها قط ! قال : أما تتمنى لو كان عندك مثلها ! ؟ فضحكت وما ينطق أحد من أصحابى ، فأقمنا عنده يومين مكرمين ، ثم انصرفنا » .

* * *

لما رأى عمر الزهو قد دخل بعض القلوب بعد الفتوحات الباهرة ، جعل يردهم إلى التواضع . . رأى مرة رجلا يزهو ويتكبر ، فقال له : « إن يكن لك دين فلك كرم ، وإن يكن لك عقل فلك مروءة ، وإن يكن لك مال فلك شرف ، وإلا فأنت والحمار سَوَاء ! »

« فلما رأى إسراف الناس فى المتاع ، قام فى الناس ، فقال : « أيها الناس ، لا تكثروا الدخول على أهل الدنيا ، فانها مسخطة للرزق ! أيها الناس إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجسد ، مورثة للسقم . . وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فإنه أدنى من الصلاح ، وأبعد عن السرف ، وأقوى على عبادة الله عز وجل » .

وقال يعظ الناس : « لن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه . . واعلموا أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن المرء إذا يئس من شىء استغنى عنه . . أيها الناس . . جالسوا التوابين فانهم أَرَقُّ أفئدة . . إنى لأعلم مَنْ أجود الناس وأحلم الناس : أجود الناس مَنْ أعطى مَنْ حَرَمه ، وأحلم الناس من عفا عمن ظلمه . . الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن . . تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تُعلِّمون ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم . . ياأهل القرآن ، لا تأخذوا للعلم والقرآن ثمنا فتسبقكم الدناءة إلى الجنة . . » .

وحضر بعض مجالس على بن أبى طالب بالمسجد ، وحيا فيه حرصه على أن يُبصّر الناس بحقائق الدين ، وعلى أن يُزِهّدهم فى عَرضَ الحياة الدنيا ، ويقمع فيهم ما زُينَ لهم من حب الشهوات .

ولما تقدمت السن بعمر ، وتقدم العمر بنسائه ، شعر بالحاجة إلى زوجة جديدة شابة ، فتقدم إلى عائشة يخطب منها أختها الصغرى أم كلثوم ، وَحَّدثَت عائشة أختها فردت عليها : « لا حاجة لى فى ذلك ! » فقالت لها : « أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ » قالت : « نعم إنه خشن العيش شديد على النساء ! » فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته ، ليرى لها مخرجا بما عرف عنه من الدهاء وسعة الحيلة ، فقال : « يا أم المؤمنين ، لا تُراعى ، أنا أكفيك هذا الأمر » .

ثم مضى إلى عمر فقال : « يا أمير المؤمنين ، بلغنى خبر أعيذك بالله منه ! » قال : « ما هو؟ » قال : « خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ » قال : « نعم ، أفرغبتَ بى عنها ، أم رغبت بها عنى ؟! » قال : « لا هذا ولا ذاك ، ولكنها حَدَثَةٌ نشأت فى كَنَف أم المؤمنين عائشة فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك ، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق لك » .

قال عمر : « فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ » قال : « أنا أكفيك عائشة يا أمير المؤمنين ، وأدلُّك على خير من أم كلثوم بنت أبى بكر ، أدلك على أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وبنت فاطمة ، فتعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فذهب عمر إلى علىٍّ يخطب ابنته أم كلثوم ، فقال علىٌّ : « يا أمير المؤمنين ، إنها صبية ! » فغضب عمر ، وقال : « إنك والله ما بك ذلك ، ولكنا قد علمنا ما بك ! » (أى أنك ترفضنى) !

فأمر علىٌّ ابنته أم كلثوم أن تمضى إلى عمر بثوب قد طواه ، وأوصاها أن تقدم إليه الثوب المطوى ، وتقول له : « أبى يقرئك السلام ، ويقول لك إن رضيت الثوب فأمسكه ، وإن سخطته فرده » فلما قالت ذلك لعمر ، قال : « بارك الله فيك ، وفى أبيك ، قد رضيناه . » فرجعت إلى أبيها فقالت : « ما نشر الثوب ، ولا نظر إلا إلىّ ! » فزوجها الفاروقَ ، فقال يوم زواجهما : « سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى . وكان لى به السبب والنسب بحفصة ، فأردت أن أجمع إليه الصهر . »

فعاشت عنده معززة مكرمة ، وأنجبت له ولدا وبنتا ، فلما شكت يوما شظف العيش قال لها مواسيا : « أما يكفيك أن يقال عنك بنت على وزوجة أمير المؤمنين عمر ! » .

وقد تبادلت الهدايا مع زوجة ملك الروم ، ذلك أنه كاتب عمر ، وتقرب إليه ، فبعثت أم كلثوم إلى ملكة الروم مع البريد بطيب ، وكيزان للشرب من فخار مدهون ، ومتاع للبيت من خوص وجلد ، فجمعت امرأة قيصر نساءها ، وقالت : « هذه هدية من امرأة ملك العرب وبنت نبيهم » . . فكاتبتها امرأة القيصر ، وأهدت إليها ردا على هديتها ، وكان فيما أهدته إليها عقد نادر ، فلما جاء البريد إلى الفاروق ، أمر مناديه فنادى فى الناس : « الصلاة جامعة » .

فلما اجتمعوا بالمسجد ، صلى عمر ركعتين ، ثم وقف يخطب ، فقال : « لا خير فى أمر أُبْرِمَ من غير شورى ! قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب لامرأة ملك الروم ، فأهدت ملكة الروم هدية ثمينة » فقال قوم : « هى لأم كلثوم بالذى أهدتها . فليست امرأة الملك من أهل الذمة لنا فتصانع بالهدية ! ولا تحت يدك فتخشاك ! » وقال آخرون : « لقد كنا فى عهد رسول الله ﷺ نهدى الثياب ، فَيُرَدّ علينا بأكثر ، ونبعث بها لتباع ، ونصيب من ورائها شيئا ! » .

فقال عمر : « ولكن البريد الذى حمل الهدية وجاء بالرد عليها بريد المسلمين ، والرسول رسولهم ، والمسلمون هم الذين عظّموا أم كلثوم فى صدر الملكة فأهدتها العقد الثمين ! » ثم أمر رضى الله عنه ، بأن يباع العقد ، ويوضع ثمنه فى بيت المال ، وأن تُعْطَى أم كلثوم بقدر ما أنفقت من مالها فى هديتها !

هكذا كان رضى الله عنه متحرجا فى سيرته مع نفسه ، ومع أهله ! . . كان كما وصفه ابن عباس رضى الله عنهما : « كالطير الحذر كأن أمامه فى كل خطوة شركا ! » .

غنم أحد قواده حليا ، فلما قسم المغانم على جنده ، قال لهم عن الحلى : « إن هذا لا يبلغ فيكم شيئا ، فهل تطيب أنفسكم بأن نبعث به إلى أمير

المؤمنين ؟ » قالوا : « نعم ، قد طابت أنفسنا » فأرسل القائد رجلا بالحلى إلى الفاروق ، فلما رآها ، ونظر إلى فصوصها الثمينة ، وثب مغضبا ، ثم جعل يده فى خاصرته ، وقال : « لا أشبع الله إذن بطن عمر ! اذهب بما جئت به ، والله لئن تفرق جندكم فى مشاتيهم قبل أن يُوَزَّع هذا فيهم ، لأفعلن بك وبصاحبك وأفعلن . . » فعاد الرجل مسرعا إلى قائده ، فقال له : « ما بارك الله فيما بعثتنى به ! أقْسِمْ هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك داهية ! » فباع القائد الحلى ، وقسم ثمنها فى المقاتلين .

وأرسل اليه أحد قواد الفتح حللا نسائية فاخرة مما غنموها ، فقسمها عمر ، فبقيت منها حلة ، فقال له أصحابه : « أعط هذا ابنة رسول الله التى عندك . » (يقصدون أم كلثوم بنت على وفاطمة الزهراء) ، فقال الفاروق : « أم سليط الأنصارية أحق ! فانها ممن بايع رسول الله ﷺ يوم العَقَبَة ، وكانت تحمل القِرَبَ يوم أحد تسقى الناس . »

وأرسل اليه أحد عماله فاكهة نادرة فى الحجاز ، وقال لمن بعثه بالفاكهة : « إنها هدية لزوجات أمير المؤمنين . عسى أن يسرهن بها ! » فأرسل عمر الفاكهة لأزواج النبى ، ورد على عامله مؤنبا : « ثكلتك أمك ! ما الذى جعلك تهدى لأزواج عمر دون أزواج النبى ؟ ! »

وقدم عليه مسك وعنبر من البحرين ، فقال : « والله لوددت أن أجد امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب ، حتى أفرقه بين الناس ! » فقالت له امرأته عاتكة : « أنا جيدة الوزن ، سَأَزِنُ لك » قال عمر : « لا » قالت : « ولم ؟ » قال : « أخشى أن تأخذيه هكذا ، فتجعليه هكذا (وأدخل أصبعيه فى صدغيه) وتمسحين به عنقك ، فأصيب فَضْلاً (أى زيادة) على المسلمين ! »

وكان يحب العطر حتى لقد قال : « لو كنت تاجرا ما اخترت على العطر شيئا ، إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه . »

إن همّ عمر بالرعية لا يفارقه فى ليل ولا نهار . . فهو يرى نفسه مسئولا أمام الله عن راحتهم ، وإسعادهم ، ودينهم ، ودنياهم . .

روى أنس بن مالك : قال : « بينما عمر يعس بالمدينة إذ مر برحبة من رحابها ، فإذا ببيت من شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه فسمع أنين امرأة ، ورأى

رجلا قاعدا ، فدنا منه فسلم عليه ، ثم قال : من الرجل ؟ قال : رجل من البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله . قال عمر : ما هذا الصوت الذى أسمع فى البيت ؟ قال الرجل : انطلق رحمك الله لحاجتك ! قال عمر : ما هو هذا الصوت ؟ قال الرجل : امرأة تمخض (أى جاءها المخاض) قال عمر : هل عندها أحد ؟ قال الرجل : لا . .

« فانطلق عمر حتى أتى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة غريبة تلد ، ليس عندها أحد . قالت : نعم ، إن شئت . قال : فخذى معك ما يُصْلح المرأةَ حين ولادتها من الخِرقَ والدهن ، وجيئى ببُرْمة (بضم الباء : قدر من الفخار) ، وشحم ، وحبوب ، فجاءت به فقال لها : انطلقى . وحمل البرمة ، ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت . فقال عمر لزوجته : ادخلى إلى المرأة . وجاء هو حتى قعد إلى الرجل ، فقال له : أوقد لى نارا . فأوقد النار ، وظل عمر ينفخ فى النار حتى أنضج البرمة والدخان يتخلل لحيته .

« وولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين ، بَشِّرْ صاحبك بغلام .

« فلما سمع الرجل اسم أمير المؤمنين كأنه هابه ، فجعل يتنحى عنه ، فقال له عمر : مكانك ! كما أنت . فحمل هو البرمة فوضعها على الباب ثم قال لزوجته أم كلثوم : أشبعيها . ففعلت ، ثم أخرجت البرمة ، فوضعتها على الباب ، فأخذها عمر فوضعها بين يدى الرجل ، فقال : كل ، ويحك ، فإنك قد سهرت الليل . ففعل ثم قال عمر لامرأته : اخرجى . وقال للرجل : إذا كان فى الغد فَأْتِناَ نأمر لك بما يصلحك . ففعل الرجل ، فأجازه واعطاه . »

* * *

على الرغم مما كان يقلق عمر من إقبال بعض الناس على المتاع ، كانت الحياة ما زالت عامرة بالمتقين الذين يعظون من تخلبهم الطيبات التى أتاحتها الفتوحات .

وكما كان عمر يعظ هؤلاء المفتونين ، كان يحب أن يذاكر المتقين الصالحين ، وكانوا يلتقون فى الليل . . كانوا كالنجوم يضيئون ما حولهم ، ويهتدى بهم الناس ويفيدون . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم . . وهو حق فوق الزكاة ، التى وصفها الله تعالى : بأنها حق معلوم .

كان عمر يستيقظ فى ساعة من الليل ، فكان إذا استيقظ قرأ الآية الكريمة : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) .

قام ليصلى ذات ليلة فغشيه هم عظيم ، فقال لصاحبين له : « قوما فصليًّا ، فوالله ما أستطيع أن أصلى ، ولا أستطيع أن أرقد ! وانى لأفتح السورة فما أدرى أفى أولها أنا أم فى آخرها ! » قالا : « ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ ! » قال : « من هَمِّى بالناس . »

وكان رضى الله عنه شأن فقهاء الصحابة ، قد حفظ القرآن فى أناة وصبر ، لا يشرع فى حفظ آية حتى يكون قد فقه الآية التى قبلها ، حتى لقد حفظ سورة البقرة فى عشر سنين ، فنحر بعيرا أطعم به الناس .

دفعه همه بالناس ، وحذره من أن يكون قد قصر فى مسئوليته عن رعيته ، دفعه هذا الحرص على القيام بشئون الرعية إلى سؤال أصدقائه عن رأيهم فى أدائه ! وفى ليلة من الليالى الطوال التى كان يؤرقه فيها همه بالرعية ، وتتوزعه شئونها ، مضى إلى حذيفة ، فقال له : « نشدتك الله ، وبحق الولاية عليك ، كيف ترانى ؟ » قال : « ما علمتُ إلا خيرا يا أمير المؤمنين » . فنشده مرة أخرى أن يخبره بما يراه من أمره ، قال : « يا أمير المؤمنين ، إن أخذت مال الله فقسمته فى ذات الله ، فأنت أنت ، وإلا فلا ! » قال عمر : « إن الله ليعلم ما آخذ إلا حصتى ، ولا آكل إلا وجبتى ، ولا ألبس إلا حلتى ! » .

وذهب إلى أبى الدرداء يتذاكران أمور الدين والدنيا ، فقال له أبو الدرداء : « يأأمير المؤمنين ، أتذكر حديثا حَدّثناه رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : « أى حديث ؟ » قال أبو الدرداء : « قال ﷺ : ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب . » قال عمر : « نعم » قال أبو الدرداء : « فماذا فعلنا بعده يا عمر !؟ »

وبكى أبو الدرداء ، فبكى عمر . . وظلا يتباكيان ويتواجدان حتى أذن لصلاة الفجر !

وبينما هو يعس فى المدينة ذات ليلة ، مهموما بما طرأ على دنيا الناس ، إذ سمع رجلا من الأنصار يرتل القرآن فى صوت خاشع شجى ، فوقف عمر يسمعه وهو يتلو : (والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع .) فقال عمر : « قسم ورب الكعبة حق ! » . .

ثم نزل عمر عن حماره ، فاستند إلى حائط ، يفكر فيما سمعه ، ونفسه تضطرم اضطراما . . وبعد حين رجع إلى داره ، فمرض شهرا ، يعوده الناس لا يدرون ما مرضه !

وكان عمر إذا غضب ، ولم يستطع أحد أن يخفف من غضبه قرأ عليه بلال القرآن ، فيذهب عنه الغضب .

وقد تعود عمر كلما حج أن يطوف ببيت الله ، وهو يقول باكيا : « اللهم إن كنت كتبتنا عندك فى شقوة وذنب فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب ، فاجعلها سعادة ومغفرة . »

وكان إذا حج تفقد أحوال الناس فى مكة وما حولها ، فأصلح ما فسد من أمور الناس .

شاهد اختلاط الرجال والنساء على حياض زمزم أثناء الوضوء ، ورأى ما ينكشف من أجساد النساء ، فخشى الفتنة . وأمر أن تخصص للرجال حياض ، ويخصص لوضوء النساء حياض أخرى ، بعيدا عن الرجال . ولكنه وجد الرجال والنساء يتوضئون من حياض واحدة فى الحرم ، فغضب ، وجعل يضرب الرجال والنساء جميعا ، حتى فرق بينهم . ثم نادى من كان قد أمره بأن يبعد بحياض الرجال عن حياض النساء ، فقال الرجل : « لبيك ياأمير المؤمنين » قال : « لا لبيك ولا سعديك . ألم آمرك أن تتخذ حياضا للرجال وحياضا للنساء ؟ » .

فلما لم يجبه الرجل ، ضربه عمر . .

ثم اندفع متجهما عابس الوجه ، فلقيه على بن أبى طالب فى هشاشة ولين

جانب ، فلم يلبث عمر أن قال له : « يأبا الحسن ، أخاف أن أكون هلكت ! » قال على مستبشرا له : « وما أهلكك يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « ضربت رجالا ونساء فى حرم الله عز وجل ! » قال على : « يا أمير المؤمنين ، أنت راع من الرعاة ، فإن كنت ضربتهم على غش فأنت ظالم لهم ، وإن كنت ضربتهم على غير ذلك فلا عليك ! » فاطمأن قلب عمر ، وتذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى . . » . ثم طابت نفسه ، فما كان قد نوى غير الإصلاح ! .

ما أقل ما يجسر عمر على الرواية عن رسول الله ، على الرغم من أنه كان يلزمه هو وأبو بكر ! ولكن فى هذا القليل الذى رواه عن الرسول ﷺ ما يرسم للناس خطة حياة وصلاح ، ويشق أمامهم طرق الفلاح ، وما جعله الفاروق دستورا للعلائق بين الناس . .

من ذلك أنه لمـا كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : « فلان شهيد ، وفلان شهيد ، حتى مروا برجل فقالوا : فلان شهيد ! فقال رسول الله : « كلا إنى رأيته يُجَر إلى النار فى عباء غَلهَّا (أخذها من الغنائم خيانة) . أخرج يا عمر فناد فى الناس لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . » فخرج عمر فنادى أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . . وهكذا تعلم عمر وعلم الناس ألا يحكموا بظواهر الأشياء والأعمال . .

ومما رواه عمر من الأحاديث الشريفة ، وألزم الرعية أن يسيروا بمقتضاه ، قوله ﷺ لعمر حين سأله : « يا رسول الله ألا نتكل ؟ » قال : « اعمل يا ابن الخطاب ، فكل ميسر لمـا خلق له . أما من كان من أهل السعادة فيعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فيعمل للشقاء ! » .

ومن ذلك قول عمر : « قال رسول الله ﷺ من أظل رأس غاز أظلّه الله يوم القيامة ، ومن جَهّز غازيا حتى يستقل بجهازه كان له مثل أجره ، ومن بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله تعالى بنى الله عز وجل له بيتا فى الجنة . » .

واستنادا على هذا الحديث كان الفاروق يحث الأغنياء الذين لا يستطيعون القتال ، على تجهيز جيوش الفتح . .

ومن ذلك خشيته أن يُفتن الناس بالدنيا ، ويتقاتلوا على ما أُتْرِفُوا فيه بعد

الفتوحات ! . . أهدى اليه أبوموسى الأشعرى سلال حلوى مما يأكله عظماء الفرس ، واستفتح الفاروق سلة منها ، فلما ذاق حلاوة ما فيها ، قال : « ردُّوه ! ردوه ! لا تراه قريش ولا تذوقه ، فتتذابح عليه ! »

ومن ذلك أنه جاءه فيما جاءه من الغنائم آنية ملئت بجواهر نادرة من أنفس حلى الأرض ، فسقط منها خاتم ، فأخذه أحد أبنائه ، وهو صبى صغير ، وأخذ يتأمله منبهرا ببريقه الذى يخطف الأبصار ، ثم أدخله الصبى فى فمه ، فانتزعه عمر منه ، مشفقا ، ثم بكى . . فقال له مَنْ عنده من المهاجرين والأنصار : « يا أمير المؤمنين ، لِمَ تبكى وقد فتح الله عليك وأظهرك على عدوك وأقر عينك ؟ » قال : « إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تفتح الدنيا على قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ! » . . وكان هذا هو همه المعذب ، حين أقبلت الدنيا على الناس ، بعد الفتوحات العظيمة .

* * *

وكان الفاروق يخشى سلطان بعض التقاليد الوثنية ، على الرغم من رسوخ الإسلام فى قلوب المسلمين ، وكان يحب للرعية أن تتفكر وتتدبر ، على الرغم من حرصه على أن يُلزمها اتباع السنة الشريفة . . قال أبوسعيد الخدرى : « حججنا مع عمر ، فلما دخل المسجد الحرام ، دنا من الحجر الأسود ، فقبله واستلمه ، وقال : أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ! » .

ونشط رضى الله عنه إلى استنقاذ الناس من مظاهر الوثنية . . فقد رأى الناس يأتون الشجرة التى بايع الرسول تحتها بيعة الرضوان ، فيصلون عندها ، ويعظّمونها ، فنهاهم عن ذلك . . ولكن بعضهم تهامس : « إنها الشجرة المباركة التى ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم » . فلما علم عمر أن الناس مازالوا يعظّمون الشجرة : شجرة الرضوان ، أمر بها فقطعت ، واجتثت جذورها !

وقد رأى عمر ما ألقاه الثراء المقبل من كبرياء فى بعض الناس ، فأراد أن يقمع فيهم الزهو ، فاشتد على أشرافهم حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . . كان رضى الله عنه جالسا فى جماعة من المهاجرين والأنصار ، ومعه الدِّرة ، إذ أقبل

الجارود ، فقال رجل : « هذا سيد ربيعة » فسمعه عمر ومَنْ حوله ، فلما دنا من عمر خفقه بالدرة ، فقال : « مالى ولِمَ ياأمير المؤمنين !؟ » قال : « أما سمعتها » قال : « سمعتها ياأمير المؤمنين » قال : « خشيت أن يخالط قلبك منها شىء ، فأحببت أن أطأطىء منك ! » .

وأتى أهل مكة الفاروقَ وهو يحج فقالوا له : « يا أمير المؤمنين ، إن أبا سفيان قد ضيق علينا الوادى ، وَسيَّلَ علينا الماء ! » ذلك أن أبا سفيان ابتنى دارا جديدة له بمكة ، فبناها فى الوادى ، فاعترض البناء مَسِيل الماء من الجبل ، فسال إلى بيوت القوم ، فأتلفها !

فمضى عمر إلى أبى سفيان وهو قائم على البناء ، فقال له : « خذ هذا الحجر فضعه هنا ، وهذا الحجر فضعه هناك . »

وأطاع أبو سفيان ، فغيّر حدود الدار ، فقال عمر : « الحمد لله الذى أذلّ أبا سفيان بقلب مكة ! » وكان أبو سفيان سيد مكة قبل الفتح .

وذات يوم تلقى أبو سفيان من ابنه معاوية عامل عمر على الشام ، مالا كثيرا ، وقَيْـدًا ليدفعه جميعا إلى عمر ، ولكنه احتفظ بالمال فى داره ، وذهب إلى عمر بالقيد وكتاب معاوية ، فلما قرأ عمر الكتاب قال : « وأين المال يا أباسفيان ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، كان علينا دين ومعونة ، ولنا فى بيت المال حق ، فإذا أخرجت لنا شيئا من بيت المال ، فأسقطه فى هذا المال حتى تستوفيه . » قال عمر لأصحابه : « قيدوه بهذا القيد حتى يأتى بالمال . » فقيدوه ، ولم يطلقه حتى رد المال !

هكذا حرص عمر على التسوية بين الناس فى المعاملة ، وعلى إقامة الموازين والحساب عل أساس من عمل الرجل وتقواه ، لا جاهه أو غناه ! . . وكان يقول وهو يعلم الناس : « إن أخوف ما أخافه عليكم إعجاب المرء بنفسه أو برأيه » .

حضر بباب عمر جماعة من رؤس قريش ، فأذن عمر لصهيب وبلال بالدخول عليه قبل رؤس قريش ، وكان فيهم أبو سفيان فقال : « لم أر مثل اليوم قط ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا ؟ » فقال سهيل بن عمرو وكان من حكماء قريش : « أيها القوم ، إنى والله أرى الذى فى وجوهكم ! إن

كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم : دُعِيَ القوم وُدِعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وُتركتم ! » ثم سألوا عمر : « هل من شيء نستدرك به أنفسنا ؟ » قال : « لا أعلم لكم وجها أفضل من الجهاد فى سبيل الله . » فخرج هؤلاء فجاهدوا فاستشهد منهم من استشهد ، وكان سهيل فى الشهداء .

ولما أسلم جَبَلّة بن الأَيْهَم آخر ملوك بنى غسان خرج للحج مع عمر ، فبينا جَبَلّة يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من الأعراب ، فحلّه فاستشاط الملك غضبا ، ولطم الرجل على أنفه لطمة شديدة فهشمه ، وأسال دمه . . فشكاه الأعرابى إلى عمر ، فسأله : « ما دعاك لأن تلطمه ؟ » قال : « إنه وطىء إزارى فحلّه يا أمير المؤمنين . » قال : « أما وقد أقررت فإما أن ترضيه ، وإلا فعل بك الأعرابى مثل ما فعلت به ! » قال : « أيصنع هذا وأنا ملك وهو سوقة يا أمير المؤمنين ؟! » قال عمر : « لقد سوى الإسلام بينك وبينه ، فما تفضله بشىء إلا بحسن العمل . » قال : « يا أمير المؤمنين ، والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أَعَزَّ منى فى الجاهلية ! » قال : « إنه لكذلك . » قال : « أَخِّرنى إلى غد حتى أفكر فى الأمر يا أمير المؤمنين » قال : « ذلك لك » .

ولكنه فَرّ تحت جنح الليل ، هو وأصحابه ، إلى القسطنطينية ، مرتدين عن الإسلام ، فلاذوا بهرقل ، وأقاموا عنده ، ولم يبال عمر بذلك ، فقد كان حرصه على إرساء العدالة والمساواة ، أشد من حرصه على هذا الرجل أو ذاك من المسلمين الجدد ، وإنه لحريص على أن يعلم الناس من أمور دينهم ودنياهم ما يهيؤهم لمواجهة الحياة الجديدة ، وما يجعلهم دعاة للإخاء والمساواة ، وهداة إلى مكارم الأخلاق . .

وما كان يترك صغيره ولا كبيرة مما يعلمه حتى يفقه بها الناس . . خرج للحج فسمع رجلا يغنى ، فأنكر من معه من المهاجرين والأنصار ذلك ، وقالوا : « ياأمير المؤمنين ، إن هذا يغنى وهو مُحْرِم » قال : « دعوه ! فإن الغناء زاد الراكب . » وذم تزمتهم ، وأسماه تنطعا فى الدين ! وأثنى رجل على رجل أمامه ، فسأله : « أصحبته فى السفر ؟ » قال : « لا يا أمير المؤمنين . » قال : « أفعاملته ؟ » قال : « لا يا أمير المؤمنين . » قال : « فأنت القائل ما لايعلم ! » ومدح رجل صاحبا له فى وجهه فنهاه عمر وقال له : « أهلكته ! »

كان يعلّم الناس كيف يتحابون ويتآخون فيقول : « ثلاثٌ يصفين لك ود

أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وُتَوسِّع له إذا جلس إليك ، وأن تدعوه بأحب أسمائه اليه ، وكفى بالمرء من الغَيِّ أن يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، وأن يؤذى جليسه بما لا يعنيه . » .

وكان يعلم الناس بقوله : « احترسوا من الناس بسوء الظن » . وكان يعلمهم بحقائق جديدة عليهم حقا . . من ذلك أن السعى فى طلب الرزق أفضل من الجهاد . قال : « لأن أموت بين شعبتى رحل أسعى فى الأرض ابتغى من فضل الله كفاف وجهى أحب إلى من أن أموت غازيا ! » وكان هذا غريبا على الناس حقا . .

كما علم الناس أن يفطروا إذا جاهدوا أعداءهم فى رمضان . . قال : « إن التَّقَوِّى على الجهاد أفضل من الصوم . » وقد اتبع فى هذا السنة الشريفة ، فحين غزا الرسول فى رمضان ، أشرف على المسلمين وأفطر أمامهم ليفطروا فَيَتَقَـَّووا على الجهاد . .

كما ظل الفاروق ينهى الناس عن الحكم بالظاهر.. . قال : « لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكن من أدى الأمانة إلى من ائتمنه ، ومن سَلِم الناس من يده ولسانه . . » وكان يقول : « لا تظن بكلمة خرجت من امرىء شرا ، وأنت تجد لها فى الخير محملا . » ويقول : « لا تتكلم فيما لا يعنيك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله عز وجل ، ولا تَمْشِ مع الفاجر فيعلمك ، ولا تطلعه على سرك ، ولا تشاور فى أمرك إلا الذين يخشون الله عز وجل . » .

وقال واعظا : « ما كافأت به من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ! . . من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن . . من كتم سره كانت الخيرة بيده . . عليك بإخوان الصدق فكثّر فى اكتسابهم ، فإنهم زين فى الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء . . عليكم بذكر الله فإنه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فإنه داء . . خذوا بحظكم من العزلة . . الاقتصاد فى السُنة خير من الاجتهاد فى الضلالة . . السعيد من وُعظ بغيره . . »

وكان دائم الحساب لنفسه ، فهو أشد عليها من شدته على عماله ورعيته . . عرضت له الآية الكريمة : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا .) فانطلق إلى أُبَىّ بن كعب فدخل عليه بيته ، فقال له : « أخشى أن

أكون أنا صاحب هذه الآية ؟ أوذى المؤمنين ! » فقال له : « لاتستطيع إلا أن تعاهد رعيتك فتأمر وتنهى ! » قال : « الله أعلم ! » .

وكان ربما توقد له النار ، فيمد يده إلى لهبها ، ثم يقول : « ياابن الخطاب ، هل لك على هذا صبر ؟ » .

وكانت له ناقة يشرب لبنها ، فسقاه غلامه ذات يوم لبنا غيره ، فقال له : « ويحك ! من أين لك هذا اللبن ؟ » قال : « ياأمير المؤمنين ، إن الناقة انفلت عليها ولدها ، فشرب لبنها ، فحلبت لك ناقة من إبل الصدقة » فقال له : « ويحك ! سقيتنى نارا ! ادع لى عليا » فلما أتاه على بن أبى طالب قال له : « ياأبا الحسن ، إن هذا عمد إلى ناقة من مال الله فسقانى لبنها ، أفتُحِلّه لى ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، هو حلال لك ولحمها . »

وكان فى حرصه على المساواة لا يفرق بين خادم ومخدوم . . صنع له بعض أغنياء قريش طعاما وهو فى الحج ، وجاءوا بالطعام فى جَفْنَة يحملها أربعة رجال فُوضِعَتْ بين القوم ، فأخذ القوم يأكلون ، وقام الخُدّام ، فقال عمر : « مالى أرى خدامكم لايأكلون معكم ؟ ! أترغبون عنهم ؟! » قال أحد سراة قريش : « لا والله ياأمير المؤمنين ، ولكننا نستأثر عليهم . » فغضب غضبا شديدا ، وقال : « ما لقوم يستأثرون على خدامهم فعل الله بهم وفعل ! » ثم قال للخدام : « اجلسوا فكلوا » فقعد الخدم يأكلون ، أما هو فلم يأكل . . ووقف بعيدا ، يتأمل الخدم وهم يأكلون ، وبدا سعيدا بتلذذهم بالطعام الفاخر .

وكان عمر يحض الناس على العمل . . ويكره أن يرى سائلا . . ولقد سمع سائلا يقول : « من يُعشّى السائل يرحمه الله » فقال : « عَشُّوا السائل » . . ثم ذهب عمر إلى إبل الصدقة ، وبعد فترة سمع صوت السائل يقول : « من يعشى السائل يرحمه الله » فقال عمر : « ألم آمركم أن تعشوا السائل ؟ ! » قالوا : « قد عشيناه » فاستدعى عمر السائل ، فإذا معه جراب مملوء خبزا . فقال له : « أنت لست سائلا ، إنما أنت تاجر تجمع لأهلك ! » ثم أخذ بطرف الجراب ، فنثره بين إبل الصدقة ، فأكلت كل ما فيه من الخبز .

وقد كان عمر يحاسب نفسه حسابا عسيرا ، فإذا خُيّل إليه أنه أخطأ فى حق أحد طلبه ، وأمره بأن يقتص منه ! كان يُقبل على الناس يسألهم عن حاجاتهم ،

فإذا أفضوا إليه بها قضاها ، ولكنه ينهاهم عن أن يشغلوه بالشكاوى الخاصة إذا تفرغ لأمر عام .

عكف علي بعض الأمور العامة ، فجاءه رجل فقال : « يا أمير المؤمنين ، انطلق معى فأعنِّى على فلان ، فإنه ظلمنى » فرفع عمر الدرة ، فخفق بها رأس الرجل ، وقال : « تتركون عمر وهو مقبل عليكم ، حتى إذا اشتغل بأمور المسلمين أتيتموه ! » فانصرف الرجل متذمرا . فقال عمر : « عَلَىّ بالرجل ! » فلما أعادوه ألقى عمر بالدرة إليه ، وقال : « أمسك بالدرة ، واخفقنى كما خفقتك » قال الرجل : « لا يا أمير المؤمنين ، أدَعُها لله ولك » قال عمر : « ليس كذلك ! أما أن تدعها لله وإرادة ما عنده من الثواب ، أو تردها على ، فاعلم ذلك » فقال الرجل : « أدعها لله يا أمير المؤمنين » .

وانصرف الرجل ، أما عمر فقد مشى حتى دخل بيته ومعه بعض أصحابه ، فصلى ركعتين مستغفرا ، ثم جلس يؤنب نفسه ، وهم يسمعونه : « يا ابن الخطاب ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب المسلمين فجاءك رجل يستصرخك فضربته ! ما تقول لربك غدا إذا أتيته ؟ ! »

وظل يردد قوله هذا ، حتى بكى !

ولقد راع عمر أن المسلمين قد شرعوا ينقلون بعض عادات سيئة من دولة الروم ودولة الفرس ، بعد الفتوحات ، واختلاط العرب بهم ، فنهى عن هذه العادات الدخيلة ، وأسماها بِدَع سوء ! . . فلما لم ينته الناس عنها ، عاقبهم على ذلك بلا هوادة كائنا من كان المقلدون .

من ذلك رأى قوما يتبعون رجلا من رؤوسهم ويحيطون به ، فرفع الدرة عليهم ، وضربهم جميعا . فقال كبيرهم : « يا أمير المؤمنين ، لِمَ تضربنا ؟ اتق الله ! ماذا صنعنا ؟ . » فقال : « أما علمتم أنها فتنة للمتبوع ، ومذلة للتابع ؟ ! » .

وكان الفاروق يوصى الناس بالرقة ، وأن يكونوا رحماء بينهم . . كان يقول : « أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى ، فإذا احتيج إليه كان رجلا . »

وكان يعظ الناس بقوله : « من أكثر من شىء عُرِفَ به ، ومن كثر كلامه كثر

سقطه ، ومن كثر سقطه قَلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قل ورعه ، ومن قَلّ ورعه مات قلبه . »

وقد لقيه رجل من قريش فقال له : « يا أمير المؤمنين ، لِنْ لنا ، فقد ملأت قلوبنا مهابة . » فقال عمر : « أفى ذلك ظلم ؟ » قال : « لا » قال عمر : « فزادنى الله فى قلوبكم مهابة . »

وعلى الرغم من كل هذه المهابة ، فما كان يصطنع الكبر ، أو يتكلف العظمة . . ولقد جاءته رسل ملك الروم ، فبحثوا عنه طويلا ، حتى وجدوه مضطجعا أمام المسجد ، وقد أخذه النوم ، فقال كبير رسل ملك الروم متعجبا معجبا : « حكمت ، فعدلت ، فأمنت ، فنمت ! » .

* * *

لما كثر المال ، شاعت البطالة ، وظهرت هنا وهناك فنون حياة باهرة من الفتوة والغزل والكسل ، أما التكسب بالشعر فقد انتشر بعد ما جلبته الفتوحات من ثروات . . وكره عمر هذا كله ، لكنه رأى بعض الشعراء يرتزق من الشعر ، إما بالمدح ، وإما بالهجاء ، ابتزازا للمهجُّو . . فصرفهم عمر عن ذلك ، واشتد عليهم ، ولم يعط شاعرا يمدح ، وعاقب من يهجو . .

جاء إليه شاعر من البادية فقال :

« يا عمر الخير جُزيتَ الجنةْ   أكْسُ بُنَيّاتى وأُمَّهنَّهْ
أقسمت بالله لتفعلنه »

قال عمر : « فإن لم أفعل يكون ماذا ؟ »

قال : « إذن أبا حفص لأذهبنه » (أبو حفص : كنية عمر) .

قال : « فإذا ذهبت يكون ماذا ؟ »

قال :

« يكون عن حالى لتُسْألنه   يوم يكون الأعطيات هنَّه
إما إلى نار وإما جنة »

فقال عمر لغلامه : « يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره ، والله ما أملك قميصا غيره » .

وجاء سحيم الشاعر فقال :

« عميرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء هاديا »

قال : « لو عدلت عن مدح الرجال ، وقلت شعرك كله مثل هذا لأعطيتك عليه . »

وأغرى أعداء الزبرقان الشاعر الحُطَيْئَة بهجائه ، وأغدقوا عليه ، فجعل الحطيئة يمدحهم ولا يهجو الزبرقان ، فقد كانت له مكانة فى قومه ، وكان ينفق على الحطيئة ، ولكنهم ألحوا على الحطيئة ، وأغرقوه بالأموال والعطايا ، فهجاه بقصيدة شاع منها بيت فى الحكمة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَهُ لا يذهب العرف بين الله والناس

فجاء الزبرقان بالحطيئة إلى عمر ، وقال شاكيا : « يا أمير المؤمنين ، إنه هجانى » قال : « وما قال لك ؟ » قال : « قال لى :

« دع المكارم لا ترحـل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى »

قال الفاروق : « ما أسمع هجاء ، ولكنه عتاب » قال : « يا أمير المؤمنين ، أوَما تبلغ مروءتى إلا أنى آكل وألبس ؟ » قال عمر : « عَلَىّ بحسان بن ثابت (شاعر رسول الله ﷺ) » . فلما جاء حسان ، سأله عمر ، فأجابه : « لم يهجه ولكن سلح عليه ! » (أى بال عليه) .

واستدعى الفاروق لبيدا ، فسأله ، فأجابه : « يا أمير المؤمنين ، ما يسرنى أنه لحقنى من هذا الشعر ما لحق الزبرقان ، وأنَّ لى حمر النعم ! »

فأمر عمر بحبس الحطيئة فى جب مظلم ، فكتب إليه مستعطفا :

مـاذا تقول لأفـراخ بـذى مـرخ زُغْب الحواصل لا مـاء ولا شجرُ
ألْقَيْتَ كاسبهم فى قعر مُظْلِمَة فاغفر عليـك سلام الله يـا عمرُ
أنت الامام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليـد النهى البشرُ

(مرخ واد بالحجاز خَلّف به أولاده ، وكاسبهم : أى عائلهم)

فأشفق عمر ، فأطلقه واستدعى الزبرقان ، وقال : « يا حطيئة ، إياك وهجاء الناس ! » قال : « إذن يموت عيالى جوعا ! هذا مكسبى ومنه معاشى يا أمير

المؤمنين » قال : « فإياك والمقذع من القول ! » قال : « وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ ! » قال : « أن تخاير بين الناس ، فتقول : فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان » قال : « فأنت والله أهجى منى يا أمير المؤمنين ! » قال : « والله لولا أن تكون سُنّة لقطعت لسانك . ولكن اذهب فأنت له . خذه يا زبرقان فهو لك ! » .

ففك الزبرقان عمامته ، وجعلها حبلا فى عنق الحطيئة ، فعارضته قبيلة الحطيئة ، وقالوا للزبرقان : « إخوتك وبنو عمك وأخوالك وجيرانك ! هبه لنا » فوهبه لهم .

ولكن الحطيئة عاد إلى الهجاء ، فجلس عمر فى الناس ، وطلب الحطيئة فأتاه ، ثم قال عمر : « أيها الناس ، أشيروا عَلَىّ فى الشاعر يقول الهَجْوَ (الهجاء) وينسب بالحُرَم (بضم الحاء وفتح الراء جمع حرمة يعنى أنه يتغزل فى النساء) ، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم ؟ ! ما أرانى إلا قاطعا لسانه ! » ثم قال : « عَلَىّ بطست (أى طشت) » فجاءوا بطست . ثم قال : « عَلَىّ بالمخصف : (هو مخرز الاسكافى) ، على بالسكين ، لا بل على بالموسى فهو أوْصىَ (أى أسرع) . » فقال الناس : « لا يعود إلى ما تكره يا أمير المؤمنين » وأشاروا على الحطيئة أن قل : « لا أعود » فقال : « لا أعود يا أمير المؤمنين » . فقال له عمر : « نجوت » فلما هم الحطيئة بالذهاب عن عمر قال له : « يا حطيئة كأنى بك عند فتى من قريش ، قد بسط لك نُمْرقةَ (أى وسادة) وقال : غننا يا حطيئة ، فطفقت تغنيه بأعراض الناس ! » .

ولكن عمر فكر فى أن الحطيئة كما قال له من قبل يكسب من المدح والهجاء ، فما يستطيع أن يقلع عنهما ، وهو لا يقنع بعطائه الجزيل ، ولكنه يبتز غيره بالهجاء أو المديح ، وخصلته تلك أصبحت أقوى من إرداته ، وحتى من حسن نيته ، إن أحسن النية ! . . فدعاه عمر ، وسأله عما يكفيه ليكف عن المدح والهجاء ، فطلب ثلاثة آلاف ، فاشترى منه عمر أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم ، وفى ذلك أنشد الحطيئة :

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تدع ... شتما يضر ولا مديحا ينفع
وحميتَنى عرض اللئيم فلم يخف ... ذمى وأصبح آمنا لا يفزع

"يارب: كثرت رعيتي، وكبرت سني!"

بعد صلح بيت المقدس ألح عمرو بن العاص على الفاروق فى أن يأذن له بفتح مصر : ذلك أن الأرطبون أخطر قواد الروم ، لما أدرك أن بيت المقدس واقع لا محالة فى أيدى العرب ، انسحب بجيشه الكثيف ، فتحصن بمصر ، يعد العدة لكرة أخرى على جيوش المسلمين . . وكانت مصر هى آخر معاقل دولة الروم ، وهى بعد أغنى البلاد الخاضعة للامبراطورية الرومانية الشرقية ، بل أغنى العالمين . . كانت مخزن غلال العالم كله : تغذيه بما يفيض عن أهلها من القمح ، وألوان الطعام المتعددة ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وكانت غنية بالمعادن ، والأحجار ، وكانت الاسكندرية عاصمة مصر أكبر موانىء العالم المعروف حينئذ ، وأكبر أسواقه التجارية ، ومراكزه العلمية والفنية والأدبية . . كانت الاسكندرية عامرة بالمكتبات ودور العلم والمسارح والمنتديات الفكرية ، فهى منتجع الكتاب والشعراء والفنانين والمفكرين ، وهى عاصمة الثقافة والفنون والعلوم ، ومنارة تشع على العالم كله بمعطيات النشاط العقلى والعلمى والفكرى ، وكان المعبرون عن الحضارة الاغريقية يرتادون الاسكندرية ، ليتزودوا بمعارف جديدة ، أو ليهذبوا أذواقهم ، أو لِيُغْنوا وجدانهم بالمتاع الفنى والعقلى ، كما صنع أسلافهم فى جامعة عين شمس حين كانت عين شمس (هليوبوليس) عاصمة مصر وعاصمة الثقافة ، وحين كان إخناتون وموسى عليه السلام يتعلمان فى جامعاتها . ولعل من أبرز رموز الحضارة الاغريقية الذين انتفعوا بالجامعات المصرية : أفلاطون ، وفيثاغورس ، وأرشميدس .

وكانت الاسكندرية تعج بالمذاهب الفلسفية والدينية والعلمية المتناقضة ، إلى جوار ألوان من المتاع ينغمس فيه المترفون ، وتشرف عليه وتغرى به غانيات

باهرات ، مثل تاييس ، جنبا إلى جنب المتطهرين المسيحيين الذين يفرون بدينهم من شهوات المدينة ، ومن اضطهاد الخصوم ، إلى الصحراء المترامية ، حيث يشقون الصخر ، ومن الصخر ما يلين فيتفجر منه الماء ، وحيث يقيمون الأديرة يتعبدون فيها ، ويغرسون لأنفسهم من حولها جنات . . !

وكان أكثر ما يشق على أهل مصر ـ وهم القبط ـ هذا الخلاف المذهبى فى المسيحية بينهم وبين الروم . . ولقد حاول الروم أن يحملوا أهل مصر على اعتناق رأيهم فى طبيعة المسيح عليه السلام ، ولكن القبط رفضوا واستمسكوا بعقيدتهم المسيحية المصرية التى تعلموها منذ نحو ستة قرون ، من القديس مرقص حوارى المسيح ، والذى استراح إلى الأبد تحت ثرى كنيسة تحمل اسمه بالاسكندرية .

تغيظت الروم على القبط لأنهم خالفوهم فى العقيدة ، فنكلوا بهم ، وعذبوهم عذابا أليما ، واضطروا رؤساءهم الدينيين إلى التفرق فى الصحارى ، تتخطفهم الوحوش ، ليقيم من نجا منهم أديرة يختبئون بعقيدتهم وراء أسوارها ، فى البرارى والتيه !

وكان هذا « الاضطهاد الأعظم » الذى لقيه القبط من الرومَ إخوانهم فى المسيحية ـ هو النار التى صهرت عزائم القبط ، وسقتها الدموع والدماء ، فخرجت هذه العزائم أشد صلابة واستمساكا بعقيدتها ، كما تحول النارُ الحديدَ إلى صلب ، يزداد صلابة إذا سقوه بالماء . . ! ولقد صمد القبط لهذا الاضطهاد الأعظم ، وقادهم فى صمودهم هذا كبير أساقفتهم البابا بنيامين ، البطريق الذى هاجر بدينه من الاسكندرية ، وظل يضرب فى الصحارى حتى استعصم بدير بالقرب من مدينة قوص ، بأقصى الصعيد ، وأصبح رمزا للمقاومة .

ولقد عذب شقيق البابا بنيامين حتى الموت ! . . وكلما وقف الأسقف الرومانى على تعذيب أحد العابدين من القبط صرخ العابد فى وجه الرومى : « إن البر فى طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين ، لا فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى يا سلالة الطاغوت ! ويا أيها المسيح الدجال ! » فيرد الأسقف الرومى : « سترى أيها الشقى أثر جسارتك على العظماء ! سترى كيف نعاقبك إذ سولت لك نفسك العاصية ألا تؤدى ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين الرومى وهو كبير جباة المال فى أرض مصر ! » وفى كل مرة يطلق هذا التهديد كبير الجباة

الرومى الذى هو فى الوقت نفسه عظيم رجال الدين ، كانت صيحة العابد القبطى تنطلق فى وجهه : « لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ، ولكن كبره فسق به عن أمر ربه ، فكفر ، فكان مصيره النار خالدا فيها أبدا ! وهكذا أنت ! فإن مذهبك مذموم ، وإنك لأشد لعنة وأسوأ مصيرا من إبليس ! »

وهكذا وجد القبط وهم أهل مصر أنفسهم أمام سلطان دينى مستبد ، يفرض عليهم عقيدة تأباها عقولهم . وكانت عقيدة القبط ، أتباع الكنيسة المصرية ، بقيادة البطريق بنيامين ، أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية فى يسوع اتحدتا ، فصارتا واحدا هو المسيح . أما الروم فإنهم يؤمنون بأن المسيح عليه السلام كان عند التجسد ذا طبيعتين .

وجد القبط أنفسهم إذن أمام بدعة دينية يقهرهم عليها سلطان دينى جبار مستبد ، فرفضوا البدعة . . ووجدوا أنفسهم فى الوقت نفسه أمام سلطان دنيوى غاشم ، هو نفسه السلطان الدينى المستبد ! . . ذلك أن هرقل إمبراطور الروم استولى على ما تنتجه مصر ، وأرسله إلى القسطنطينية عاصمة ملكه ، ليستأثر به الروم دون منتجيه من القبط . . ثم إن الروم أهملوا أخطر شريان للتجارة ، وهو قناة تصل البحر الأحمر بالنيل فالبحر الأبيض ، وتجرى فيها تجارة عظيمة من منتجات مصر من الغلال ، والفواكه ، والكتان ، والزجاج ، والذهب ، والورق المصنوع من البردى ، والأسلحة المتقدمة ، وغير ذلك ، من التجارة المجلوبة من الحبشة ، والنوبة ، والهند ، والصين ، وسائر بلاد الشرق ، كالعطور النفاذة ، والتوابل ، والحرير ، والفضة ، والجواهر النفيسة ، ونحو ذلك . . فلما أهملت تلك القناة وسُدَّ مجراها ، تعطلت التجارة ، وكسدت الأسواق ، وجعل هرقل أكبر همه هو انتزاع الأموال من أهل مصر ، فلما لم تَجِدْ المنتجات المصرية أسواقَها عَبْرَ تلك القناة ، إلى ما وراء البحرين الأحمر والأبيض ، هبطت الأسعار ، وأفلس كثير من التجار ، وافتقر الزراع ، واستولى هرقل على كل تلك المنتجات بالثمن البخس ، أو بلا ثمن على الإطلاق !

ثم إن الروم منعوا المصريين من صناعة الأسلحة ، ومن استعمالها ، وفى هذا إزراء عليهم ، ونيل من كرامتهم وقوتهم !

لم يعد فى مصر أحد يملك ما يعيش به ، إلا من استخدمهم الروم من

القبط ، وهؤلاء استعبدتهم الحاجة إلى الراتب ، واستذلتهم الوظائف ! . .

وقسا الروم فى جباية المال على أهل مصر ، ومن عجب أن كبار رجال الدين من الروم كانوا دائما هم أنفسهم كبار جباة المال المستبدين ! . . من أجل ذلك ارتبط الدين بالتجارة ، والتجارة بالدين !

* * *

هكذا كانت أحوال مصر حين ألح عمرو بن العاص على الفاروق ، ليأذن له فى الزحف إليها ليفتحها ، ويضرب تجمع الروم فيها ، قبل أن يقودهم أرطبون ، فينتزع بيت المقدس ، والشام من العرب . وكان العرب على صلة قديمة بمصر ، فأمهم هاجَر ، زوج ابراهيم عليه السلام ، وأم أبيهم اسماعيل عليه السلام ، كانت أميرة مصرية . . وللقبط بالعرب نسب ، منذ دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المقوقس حاكم مصر من قِبَلِ الروم إلى الدخول فى الإسلام ، فرد عليه المقوقس ردا جميلا ، وأرسل إليه هدايا ثمينة ، فيها مارية القبطية التى أسلمت وتزوجها الرسول ، وولدت له ابنه ابراهيم الذى أحبه حبا جما ، والذى فقده صبيا !

ثم إن التجارة بين العرب ومصر متصلة منذ زمن طويل ، وما كان شىء من أحوال مصر ليخفى على العرب ، وكذلك أحوال العرب ، ما كانت لتخفى على مصر . . وعندما فتح العرب الشام وحَرّروه من سلطان الروم ، وأشاعوا فيه العدل ، طمحت أبصار المصريين إلى مثل هذا التحرر ، وإلى الخلاص من ربقة الروم !

وما كان شىء من أمر مصر يخفى على الفاروق ، وهو من أكثر أهل زمانه معرفة بزمانه وأهل زمانه ، ومن أوسعهم علما ودراية .

أما عمرو بن العاص ، فقد عرف مصر تاجرا فى الجاهلية ، وأعجب بها ، وبهرته عاصمتها الإسكندرية ! . . وقد زار الإسكندرية أول مرة ضيفا على أحد رجال الدين الأقباط . . ذلك أن عمرو بن العاص ، جاء فى الجاهلية فى تجارة إلى بيت المقدس ، ومعه إبل كثيرة ، فوقف يرعاها فى يوم حار ، فمر به شَمّاس مصرى جاء بيت المقدس حاجًّا ، وهو يلهث من شدة العطش ، فأسرع عمرو ابن العاص فسقاه ، ثم نام الشماس تحت ظل شجرة إلى جانب حفرة ، فخرجت

منها حية عظيمة ، اتجهت إلى الشماس النائم ، فلما رآها عمرو ، رماها بسهم فقتلها ، فلما استيقظ الشماس ووجد الحية إلى جواره ميتة ، سأل عن خبرها ، فأنبأه عمرو ، فأقبل الشماس على عمرو يشكره ، ويقبل رأسه ، وقال له : « قد أحيانى الله بك مرتين : مرة من العطش ، ومرة من هذه الحية ، فما أقدمك هذه البلاد ؟ » قال عمرو : « إنما جئت فى تجارة ، وإنى لأرجو أن أصيب من تجارتى ربحا استكثر به من الإبل ! » .

وخلال حوارهما ، عرف الشماس أن دية الرجل فى العرب مائة من الإبل ، قيمتها ألف دينار ، فقال لعمرو : « هل لك أن تصحبنى إلى الإسكندرية عاصمة بلادى ، ولك عهد الله عَلَىَّ أن أعطيك ديتى ، فإن الله أحيانى بك مرتين ؟ إن لك علىّ دِيَتَيْن ! » . . وسار عمرو مع الشماس حتى أتيا الاسكندرية ، فلما رآها عمرو ، وتأمل عظمة مبانيها ، وجمالها ، وخاض فى زحامها ، وعاين نضارتها وكثرة ما بها من أموال ، أعجب بها ، وقال : « ما رأيت مثل مصر قط ، وكثرة ما فيها من أموال ! » .

وأثناء إقامة عمرو بالإسكندرية ، ضيفا على الشماس ، حل موعد أحد أعيادها ، وهو عيد عظيم يجتمع له أمراء الإسكندرية وأشرافها وسائر أهلها ، فألبس الشماس عمرو بن العاص ثوبا فاخرا من الديباج ، وذهب به إلى يوم الزينة هذا ، وكان الأمراء والأشراف يلعبون فى هذا العيد بكرة من ذهب ، يتبادلون رميها ، فمن وقعت الكرة فى كمه ، واستقرت به ، لم يمت حتى يملكهم ! . .

وإنهم ليترامون بالكرة إذ وقعت فى كم عمرو ! فعجبوا لذلك ، وقالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ! أترى هذا الإعرابى يملكنا ؟! هذا مالا يكون أبدا ! » .

ولما انتهى العيد جمع الشماس لعمرو من أهل الاسكندرية ألفى دينار ، ودفعها إليه ، ورده إلى بيت المقدس فى صحبة دليل . .

وتعود عمرو بعد ذلك أن يزور مصر تاجرا ، وأن ينفق أياما باهرة فى عاصمتها الإسكندرية . . وهكذا عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ودروبها ، وامتحن ثغورها ، وقلاعها ، وحصونها ، ورأى منها ما عَلّمه أنها أفضل بلاد الأرض ، وأكثرها مالا ، وأغزرها عطاء ، وأطيبها هواء .

ظل عمرو يلح على الفاروق فى أن يأذن له بالزحف إلى مصر ، ولكن الفاروق لم يرد عليه خلال إقامته فى بيت المقدس ، وطلب من عمرو أن يمهله حتى يعود إلى المدينة ، فيشاور الناس كما تعود . وقال : « لا خير فى أمر أبرم من غير شورى » .

* * *

فلما عاد الفاروق إلى المدينة عاصمة الدولة الاسلامية الجديدة ، جمع الناس ، على النحو الذى تعوده كلما أراد أن يستشير : جمع العامة ، فشاورهم فى أمر فتح مصر ، فأجمعوا على فتحها ، ثم جمع مشيخة الصحابة من المهاجرين والأنصار . .

وكان عمر يقول : « يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم ، بين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، فما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعا لهم » . ثم إنه قال لمستشاريه كما تعود أن يقول لهم كلما شاورهم : « لا تقولوا الرأى الذى تظنون أنه يوافق رأيى ، ولكن قولوا ما تحسبونه يوافق الحق » .

أما كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، فلم يجمعوا على رأى كما أجمع العامة ! وإذ رأى أكثرهم فتح مصر ، أرسل الفاروق إلى عمرو ، وكان على حصار قيسارية بالشام : « اندب الناس إلى السير معك ، فمن خفَّ معك فسر به . » فاستخلف عمرو مكانه معاوية بن أبى سفيان على حصار قيسارية ، ومضى يحشد الناس إلى مصر . . واستطاع عمرو أن يجمع أربعة آلاف مقاتل ، فسار بهم إلى العريش ، وبعث إلى الفاروق يطلب مددا ، ذلك أن فى مصر من جيوش الروم نحو مائة ألف مقاتل ! . .

وإذ علم بعض كبار الصحابة بعدة من فى مصر من جيوش الروم ، استشعروا الخطر ، وخشوا على جيش المسلمين من مغامرة عمرو ، وجاءوا إلى الفاروق وعلى رأسهم عثمان بن عفان ، فقال عثمان محذرا : « يا أمير المؤمنين ، إن عمرو بن العاص لمُجرًّأ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج من غير

ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا . »
ولكن العامة جميعا وأكثر الصحابة كانوا على خلاف هذا الرأى : كانوا يرون الزحف إلى مصر ، وسيفتحها الله عليهم .

وفكر عمر طويلا فيما قاله عثمان وصحبه ، ثم أرسل إلى عمرو آخر الأمر : « سر وأنا مستخير الله فى مسيرك ، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى ، فإن أتاك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره ، واعلم أنى ممدك » .

أتى كتاب الفاروق ، وعمرو بن العاص فى رفح ، فخشى عمرو أن يكون فى الكتاب أمر بالرجوع . . ! من أجل ذلك لم يأخذ الكتاب من رسول الخليفة ، بل ظل يسأل رسول عمر عن أحواله ، وأحوال المدينة ، حتى جاوز مدينة رفح ونزل قرية بالقرب من العريش ، فسأل أهلها : « أى أرض هذه ؟ » قالوا : « أرض مصر » فأخذ كتاب عمر من رسوله ، فلما قرأه قال : « إن أمير المؤمنين عهد إلىَّ وأمرنى إن لَحقَنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا مصر ، فسيروا على بركة الله وعونه » .

ومضى عمرو بجيشه إلى العريش ، فوجد الحامية الرومية التى كانت بها قد فرت عنها حين علمت بمقدم العرب فاتحين ، ولمعت عينا عمرو فى وجهه العريض ، واهتز جسده القصير طربا ! هذا هو أول الفتح إذن !!

وعاد رسول عمر إليه ، فأنبأه بما كان ، فأخذ عمر يجهز جيشا يمد به جيش الفتح ، أما جيش الفتح فترك حامية صغيرة بالعريش ، ومضى فى طريقه إلى الفَرَمَا ، على طريق القوافل ، (وتقع الفرما بالقرب من مدينة بور سعيد الحالية) ، والفرما هى الباب الشرقى لمصر ، فكانت عالية الأسوار ، منيعة الحصون ، وقد استعصمت حاميتها الرومية خلف أسوارها ، فى انتظار المدد من المقوقس حاكم مصر من قِبَل الروم ، وطال الحصار ولم يصل مدد ، وعمرو يُغِير على ما حول الفرما من القرى ، ويغنم منها ، ثم يحاول استدراج حامية الفرما إلى خارج أسوارها ليحاربهم فى الصحراء .

ثقل الحصار الطويل على الحامية الرومية فخرجت تقاتل المسلمين ،

واستدرجهم عمرو بعيدا عن المدينة إلى الصحراء حيث يتقن فنون الحرب فيها ، وأوغل الروم فى الصحراء ، فأرسل عمرو بعض جيشه فالتف بهم ، واقتحم من خلفهم أسوار المدينة ، واحتل حصونها المنيعة ! وأُحيط بالروم ، فأعمل فيهم المسلمون القتل ، وفر منهم كثير . . وأحرق عمرو مراكبهم الراسية فى الميناء ، وتقدم بجيشه جنوبا حتى بلبيس ، وقاومته حامية بلبيس مقاومة عنيفة ، ولكنه استطاع أن يضم إليه بعض البدو .

وعلم عمرو أن الروم قد حشدوا كل قواهم الضاربة فى مدينة مصر ، وهى مدينة تقابل منف على شاطىء النيل ، (فى مكان مصر القديمة اليوم) ، حيث يقوم حصن ضخم شاهق هو حصن بابليون ، لا يمكن اقتحامه ، وقد أحاطه الروم بخندق واسع عميق ملىء بالماء . . واستبسلت الحامية الرومية بمدينة بلبيس فى انتظار المدد من المقوقس ، وعمرو يكسب إلى عسكره البدو فيما بين الفرما وبلبيس ، ويستولى على بعض القرى . . وحامية بلبيس ما زالت تنتظر المدد من المقوقس . . ولكن المقوقس حاكم مصر يعلم أن هؤلاء المسلمين يزحفون بطبيعة المَدِّ الذى لا يقاوَم ، وقد عرف ما صنعوه بجيوش الروم فى الشام ، وسمع من جواسيسه ما يتخافت به المصريون من إعجاب بهؤلاء العرب . . كان بعض المصريين يقول لبعض : « ألا تعجبون يا معشر القبط لهؤلاء العرب يقدمون فى قلة على جموع الروم ! ؟ » فيجيب البعض : « إن هؤلاء العرب لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه . لقد رمت العرب هؤلاء برجلها عمرو بن العاص » !

وقد أراد المقوقس أن يكفى قومه القتال ، لما يعلمه من إصرار العرب المسلمين على النصر ، ولأنهم باعوا أنفسهم لله بأن لهم الجنة ، فهم يقاتلون فى حرص على الموت ، أكثر من حرص الروم على الحياة ، ثم إن المقوقس يعلم أن رعاياه القبط يكرهون قومه الروم ، ويتمنون الخلاص منهم . . فبعث المقوقس إلى عمرو بعض قساوسة الروم ، يفاوضونه ، ليكف عن مصر ، مقابل أموال له ولجنده ولأميره بالمدينة ! . . ولكن عمرو بن العاص قال لهم : « نحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فَمِثْلُنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المَنَعَة ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا مُفْتَتِحُوكم ، وأوصانا بكم حفظا لرحمنا فيكم ، وأنّ لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة . » فقالوا : « قرابتنا

بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء ! » يردون بقولهم هذا على ما أشار إليه عمرو من أن اسماعيل أب العرب عليه السلام أمه مصرية هى هاجر !

وقال القساوسة رسل المقوقس لعمرو : « آمِنّا حتى نرجع إليك . » قال عمرو : « إن مثلى لا يخدع ، ولكنى أؤجلكم ثلاثة أيام لتنظروا وتناظروا قومكم ، وإلا قاتلتكم . » فاستزادوه ، فجعلها خمسة أيام .

ولما عادوا إلى المقوقس ، وحدثوه بحديث عمرو ودعوته إياهم إلى الإسلام ، أو الصلح على الجزية ، مال المقوقس إلى الصلح ، فقد كان يعلم أن الروم لا قِبَل لهم بالمسلمين منذ حين . . ولكن الأرطبون قائد جيش الروم أبى إلا الحرب !

ورأى الأساقفة إشفاق عظماء الروم من الحرب ، ورفض القبط ، فقالوا للناس : « أما نحن فسنجتهد أن ندفع عنكم » .

ولكن الأرطبون تقدم إلى بلبيس ، يقود اثنى عشر ألف مقاتل ، فى أحدث سلاح ، وأكمل عدة ، وواجهه عمرو بأربعة آلاف ، وقليل من البدو ، فى أسلحة بدائية . . واحتدمت معركة ضارية ، حارب فيها المسلمون بحرصهم المعروف على إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، وفى يقين بأن المسلمين قد نصرهم الله ، فلا غالب لهم ! . . وانتصر العرب ، وقتلوا من الروم نحو ألف ، وأسروا ثلاثة آلاف ، وقتلوا قائدهم الأطربون ، وفر الباقون إلى حصن بابليون ينتظرون المعركة الفاصلة خلف أسواره المنيعة . .

أما عمرو فأقام شهرا فى بلبيس ، بعد النصر ، فتَأَلَّفَ قلوب الناس فيها ، وفيما حولها ، وانضم إليه منهم أرتال من المقاتلين عوض بهم مَنْ فقدهم فى الفرما وبلبيس .

ومضى عمرو فى طريقه إلى مدينة مصر ، قبالة منف ، حيث احتشد له الروم ، ولزم فى سيره فرعا للنيل ، فبلغ عين شمس ، فانتظر حتى جاءه المدد من عمر ، وزحف فى اتجاه حصن بابليون حتى بلغ قرية فى شمال الحصن اسمها أم دنين (فى موقع حى الأزبكية الحالى بالقاهرة) .

ولما رأى العرب النيل ، بهروا من جماله ، وتدفقه ، ومن نضارة البساتين

والخضرة على جانبيه . . وتوقف عمرو غير بعيد من شاطىء أم دنين ، واستراح جنده وسط الخمائل ، وامتلأت رئاتهم بأنفاس الزهر ، وشذى الخضرة ، وأرج الفاكهة ، وعلم عمرو من عيونه أنه لن يستطيع بما لديه من جند أن يقتحم حصن بابليون ، فأرسل إلى الفاروق يتعجل المدد ، وخلال انتظاره حاصر حصن أم دنين ، (الأزبكية) ، وطمح إلى الاستيلاء عليه ، وعلى السفن التى ترسو بمرفئه . . وطال حصار أم دنين ، ولم يجسر الروم الذين تحصنوا وراء أسوار بابليون على أن يخرجوا لنجدتها ، ونجح عمرو فى منع الميرة عن أم دنين ، أما جنده فكانوا فى ظل ظليل ، وفاكهة وعيون . . وإنهم لكذلك إذ أقبل المدد من المدينة ، فلما علم الروم من خلف حصن أم دنين بأمر المدد القادم ، زلزلوا زلزالا شديدا ، وانتهز عمرو فرصة تخاذلهم ، وحمل عليهم حملة صدق ، فاقتحم الحصن ، واستولى على أم دنين ، وأصبح الطريق أمامه مفتوحا إلى بابليون . . ولكن عمرو لم يسرع إلى حصن بابليون ، بل أسرع يتلقى المدد الذى أرسله إليه الفاروق خشية أن يقطع الروم عليه الطريق ، فلقى عمرو المدد فى عين شمس بقيادة الزبير بن العوام .

وكان الفاروق قد دعا الزبير فقال له : « يا أبا عبد الله ، هل لك فى ولاية مصر ؟ » قال : « لا حاجة لى فيها ، لكنى أخرج مجاهدا ، وللمسلمين معاونا ، فإن وجدت عمرو بن العاص قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته فى جهاد كنت معه » . .

وقد اختار الزبير تلا فى عين شمس فعسكر به ، وعسكر إلى جواره عمرو ابن العاص بجنده ، وحاول المسلمون استدراج الروم ليخرجوا من حصن بابليون ، ليحاربوهم فى الخلاء . . وأشاع عمرو أن الروم جبناء ، وهم إنما يختفون فى حصن بابليون جبنا وخوفا . . وأزرى ذلك بهم فى أعين المصريين ، فرأى قائد الروم أن يخرج بجنده ، وكانوا يفوقون المسلمين عدة وعديدا . . كانوا فى نحو عشرين ألفا ، أما المسلمون فكانوا نحو ثمانية آلاف : أربعة آلاف جاء بهم عمرو ، وقتل منهم من قتل ، وعوضهم بمن ضمهم إليه من بدو مصر ، وأربعة آلاف أمدهم به الخليفة ، وكتب إليه : « أما بعد ، يا عمرو بن العاص ، لقد أمددتك بأربعة آلاف ، على كل ألف منهم رجل بألف : هم الزبير بن العوام ، والمقداد ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد » .

وبدأ زحف الروم إلى المسلمين ، ليلقوهم فى السهل خارج بابليون ، ورأى عمرو أن يلجأ إلى الحيلة فى مواجهة جموع الروم الكثيفة ، فسير تحت جنح الليل فرقة تربصت بجيش الروم فى بعض الطريق ، وفرقة أخرى أخفاها فى كمين آخر ، وأسرع عمرو يقود جيشه ، ليلقى الروم فى منتصف الطريق بين عين شمس وحصن بابليون ، فلقى الروم عند العباسية . . وعندما اصطدم بهم جيش المسلمين بقيادة عمرو ، انقضت عليهم الفرقتان المتربصتان ، فخيل إلى الروم أنهم يحاربون ثلاثة جيوش عربية لا جيشا واحدا ، فملأ الرعب قلوبهم . . ونجحت مكيدة عمرو ، وخشى الروم مواجهة جيوش ثلاثة ، فلاذوا بالفرار إلى حصن بابليون ، بعد أن قتل منهم المسلمون أعدادا كثيرة .

أما عمرو ، فقد سار بجيشه إلى الجنوب ، وإلى الشمال ، فاستولى على الفيوم جنوبا ، وعلى المنوفية شمالا ، وغنم مغانم عظيمة . . وساق حكام البلاد التى فتحها ، وكلهم من الروم ، وعرضهم على القبط فى القيود والأصفاد ، أذلاء بعد طول تجبر وتكبر ، فشفى بذلك غيظ قلوب المصريين !

وحاصر المسلمون حصن بابليون . . وطال الحصار من البر والنهر عدة أشهر ، حتى خاف المقوقس هلاك من بالحصن من الروم ، فأرسل إلى عمرو يفاوضه سِرًّا تحت جنح الليل . .

والمسلمون لا ينسون المقوقس ! . . ذلك أنه كان أكرم الحُكَّام فى رده على الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما أرسل إلى ملوك الأرض ، يدعوهم إلى الإسلام . . فمزق بعضهم الرسائل ، وأغلظوا للمبعوثين ، أما المقوقس صاحب مصر ، فاستقبل حاطب بن بلتعة مبعوث النبى أطيب استقبال ، وفَضَّ الرسالة ، فوجد فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فَأَسْلِمْ تسلم ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أجرك مرتين ، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) والسلام عليكم ورحمة الله . . » .

رحب المقوقس بحاطب ، ثم خلا به ليلة ، فسأله عن صفة النبى ، فلما ذكرها حاطب ، قال المقوقس : « قد كنت أعلم أن نبيا جاء زمانه ، وكنت

أظنه يخرج فى الشام ، وهناك تخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من العرب ، من أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعنى فى اتّباعه ، ولا أحب أن يعلموا بمحاورتى إياك ، وسيظهر هذا النبى على البلاد ، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ها هنا ، وأنا لا أذكر للقبط من ذلك حرفا ، فارجع إلى صاحبك . » فلما أصبح المقوقس دعا كاتبا يكتب بالعربية فكتب : « لمحمد ابن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها . والسلام . » وقد أرسل المقوقس فى الهدايا حمارا ، وبعض خيرات مصر ، من العسل الأسود والثياب .

العرب لا ينسون أن المقوقس يؤمن فى أغوار قلبه بأنهم سيملكون مصر ! والعرب لا ينسون قول النبى عليه الصلاة والسلام « استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » .

أرسل المقوقس إلى عمرو كتابا مع أسقف بابليون ، قال فيه : « إنكم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى وهم به » .

وعندما تلقى عمرو رسالة المقوقس ، لم يرد عليها ، فقد كان يعرف أن المقوقس فى أعماقه يؤمن بأن المسلمين سينتصرون . . ولكن عمرو بن العاص خشى أن يكون المقوقس قد نسى إيمانه هذا ، وأطمعه فى المسلمين ما رآه من فقر الملبس بالقياس إلى ما فى ملابس جند الروم من فخامة وأبهة . . فأبقى عمرو رسل المقوقس يومين أطلعهم خلالهما على أحوال جند المسلمين ، وتقشفهم ، وتجردهم للجهاد ، وصدق عزائمهم ، ثم أعاد رسل المقوقس إليه بكتاب قال فيه : « إنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم فى الإسلام

فكنتم إخواننا ، لكم ما لنا ، وإما أبيتم فاعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وعجب المقوقس لرد عمرو ، فسأل رسله عن جند عمرو ، قالوا : « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، وإنما جلوسهم على التراب . . وأميرهم كأنه واحد منهم ، ما يُعْرَف رفيعُهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ! وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم . . » قال المقوقس : « والذى يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد ، ولئن أبيتم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم ، إذا أمكنتهم الأرض ، وقووا على الخروج من مواضعهم . »

كان الفيضان فى عنفوانه ، وللنيل حينئذ سبعة أفرع ، والمسلمون أمام حصن بابليون ، يفصلهم عنه خندق واسع ملأه ماء الفيضان ، عليه جسر يتحرك من داخل الحصن ، وكان باب الحصن الأكبر على النيل ، ترسو عنده سفن الروم الحربية ، والباب نفسه من الحديد المصفح . .

وماء الفيضان يجرى فى تيار متدفق عارم ، لا عهد للعرب به ! وقد بدأ عمرو حصار حصن بابليون قبل الفيضان ، فلما ارتفع ماء الفيضان أحاط الماء بالحصن من كل أقطاره ، فأصبح من المستحيل على المسلمين اقتحامه ، ولكن عمرو بن العاص كان قد أدرك أن الفيضان لن يطول أكثر من شهرين ثم ينحسر ماؤه ، ويهدأ عنفوان تياره المتدفق ، وإن هى إلا أشهر ثلاثة بعد ذلك حتى يغيض الماء ، ويجف الخندق ، ويصبح الماء ضحلا فى قاع بعض أفرع النيل ، وفى بعض مواقع من قاع النيل نفسه ! وكان عمرو يدرك كذلك أن طول الحصار سيضعضع قوى الروم المعتصمين بالحصن ، وبصفة خاصة بعد أن تزول عنهم حماية الفيضان . .

ولم يخف على المقوقس ما يدور بخلد عمرو ، من أجل ذلك حرص الرجل على أن يصالح المسلمين على الجلاء عن مصر ، قبل أن ينحسر الفيضان . .

أرسل المقوقس إلى عمرو : « ابعث إلينا رسلا من المسلمين نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم » .

فأرسل إليه عمرو عشرة نفر على رأسهم عُبادة بن الصامت الأنصارى ، وأمرهم أن يتركوا عبادة يتكلم باسمهم ، وكان عبادة أسود ، ضخما ، يرهبه الرائى ، وتقتحمه العين ، فلما دخل بصحبه على المقوقس وصحبه ، تقدم ليتكلم ، فقال المقوقس : « نَحُّوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره ليكلمنى ! » فقالوا جميعا : « إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا ، والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه . » قال : « وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟! » قالوا : « إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا » .

فقال المقوقس لعبادة : « تقدم يا أسود وكلمنى برِفْق ، فإنى أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامكَ علَيَّ ازددت لك هيبة » .

فتقدم عبادة فقال : « قد سمعت مقالك ، وإنّ فيمن خلّفتُ من أصحابى ألف رجل كلهم أشد سوادا منى ، وأفظع منظرا ، ولو سمعتَهم ورأيتَهم لكنتَ أهيب لهم منك لى ، وأنا قد ولَّيتُ وأدبر شبابى ، وإنى بحمد الله مع ذلك أهاب مائة رجل من عَدُوِّى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى سبيل الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا لرغبة فى دنيا أو طلبا للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل أَحَلَّ ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحد لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله ، واقتصر على هذا الذى بيده ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا نبينا ، وأمرنا أن لا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا ما يمسك جَوْعَته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه ، وجهاد عدوه » .

فلما سمع المقوقس منه ذلك قال لمن حوله : « هل سمعتم مثل كلام هذا

الرجل قط ؟! لقد هبت منظره ، وإن قوله لأَهْيَبُ عندى من منظره ! إن هذا ومثله أخرجهم الله لخراب الأرض ، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها » . ثم أقبل المقوقس على عُبادة ، فقال له : « أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرتَ عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليهم إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالى أحدهم من لقى ومن قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشدة فى معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقِلّتِكم وقِلّةِ ما بأيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم له » .

قال عُبادة : « يا هذا ، لا تَغُرَّنَّ نفسك ولا أصحابك ! أما ما تُخَوِّفنَا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا يكسرنا عما نحن فيه ! إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه ، إن قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته . وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ! وإنا منكم لعلى إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال فى كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجل إلا هو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده . وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . وأما قولك إنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن فى أوسع السعة ، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه . فانظر الذى تريد فَبَيِّنْه لنا ، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيها شئت : إما أجبتم إلى الإسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره ، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه ، حتى يدخل فيه ،

فإن فعل فإن له ما لنا ، وعليه ما علينا ، وكان أخانا فى دين الله ، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحلّ أذاكم ولا التعرض لكم ، وإن أبيتم إلا الجزية ، فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شىء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبدا ، ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم وبلادكم وأموالكم ، ونقوم بذلك إذ كنتم فى ذمتنا ، وكان لكم به عهد إلينا ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا ، أو نصيب ما نريد منكم ، هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ، ولا يجوز فيما بيننا وبينكم غيره ، فانظروا لأنفسكم ، ولا تطمع نفسك بالباطل ، بذلك أمرنى أميرى ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قَبْلُ إلينا » .

فقال له المقوقس : « هذا مالا يكون أبدا ، ما تريديون إلا أن تتخذونا لكم عبيدا ما كانت الدنيا » فقال عبادة : « اختر ما شئت » فقال له المقوقس : « أفلا تجيبوننا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ؟ » فرفع عبادة يديه فقال : « لا وربِّ هذه السماء ، وربِّ هذه الأرض ، وربِّ كل شىء ، ما لكم عندنا خصلة غير هذه الخصال الثلاث ، فاختاروا ما شئتم » . .

فالتفت المقوقس إلى أصحابه وقال : « قد فرغ القوم ، فما ترون ؟ » قالوا : « أيرضى أحد بهذا الذل ؟ أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا مالا يكون أبدا ، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيدا أبدا ، فالموت أيسر من ذلك ، لو رضوا منا أن نضاعف لهم ما عرضنا عليهم مرارا كان أهون علينا ! »

فقال المقوقس لعُبادة : « قد أبى القوم ، فما ترى ؟ فراجع صاحبك عمرو ابن العاص ، على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون ! » .

فانصرف عبادة ، فقال المقوقس ينصح أصحابه : « أطيعونى وأجيبوا إلى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم طاقة ، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين ، لتُجيبنّهم إلى ما هو أعظم كارهين ! » . وحاور أصحابه ، ورأى لهم أن يصالحوا المسلمين على الجزية ، فيأمنوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، ولكن أصحابه أبوا .

* * *

مرت الأشهر ، وانحسر الفيضان ، وغاض الماء من حول حصن بابليون ، فركب الزبير ، وطاف بالخندق ، فوجد الروم قد عمروه بقطع الحديد بعد أن غاض الماء ، وفرق الزبير رجاله حول الحصن ، وقال : « إنى أهب نفسى لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » . وابتغى سُلَّما ، فوضعه إلى جانب الحصن ، ثم صعد ومعه بعض رجال أشداء ، باعوا أنفسهم لله ، وقال لهم : « إن سمعتمونى أُكَبّر ، فأجيبونى واتبعونى » .

والروم فى الحصن يفتك بهم الملل والرعب ، وينظرون إلى السماء تضرعا ، وإذ بالزبير بن العوّام على سطح الحصن شاهرا سيفه وهو يهتف : « الله أكبر » ! »

وتدافع الناس من خلفه على السلم يكبِّرون ، حتى خشى عمرو بن العاص أن ينكسر بهم السلم ، فيسقطوا من عليه جميعا ، وتُدَقّ أعناقهم ، فنهاهم عن الصعود . . فلم يصعد بعدهم أحد ، ولكن الآفاق ارتجت بالهتاف الظافر : « الله أكبر ! » . وفزع الروم ، وحسبوا أن الجيش العربى قد اقتحم عليهم الحصن فى غفلة منهم ، فأسرعوا يلتمسون النجاة ، ونزل الزبير ورجاله عليهم عنوة ، ففتحوا أبواب حصن بابليون ، وتدفق جيش المسلمين كتيار الفيضان ! واستولى المسلمون على الحصن ، وغنموا منه أعظم المغانم ، وقال المقوقس لأصحابه الذين خالفوه : « ألم أُعْلِمْكُم هذا وأخافه عليكم !؟ ما تنتظرون ؟! فوالله لتجيبنّهم إلى ما أرادوا طوعا ، أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرها ، فأطيعونى من قبل أن تندموا ! » . فطلبوا الصلح على الجزية ، وأرسل المقوقس إلى عمرو : « إنى لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلىّ بها ، فأبى على ذلك من حضرنى من الروم والقبط ، فلم يكن لى أن أفتات عليهم فى أموالهم ، وقد عرفوا اليوم نصحى لهم ، وحبى صلاحهم ، ورجعوا إلى قولى ، فأعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى وأصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعا ، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه . »

فشاور عمرو أصحابه فى ذلك ، فقالوا له : « لا نجيبهم إلى شىء من الصلح أو الجزية حتى يفتح الله علينا ، وتصير الأرض كلها لنا فيئا وغنيمة كما صار لنا الحصن وما فيه » .

فقال عمرو : « قد علمتم ما عهد إلىّ أمير المؤمنين فى عهده ، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاثة التى عهد إلىَّ فيها أجبتُهم إليها ، وقبلتُ منهم » .

فتصالح عمرو والمقوقس على أن يعطيهم عمرو الأمان على أنفسهم ومِلَّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وعلى ألا يؤخذ من أرضهم ، ولا يكلفوا غير طاقتهم ، وعلى أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها (أى الصعيد والدلتا) من القبط ديناران ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء . وعلى أن يقاتل العرب عنهم عدوهم ، وعلى ألا يزاد على القبط خراج ، وعلى أن للمسلمين على القبط حق الضيافة ، فمن نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين كانت له ضيافة ثلاثة أيام ، وأن للقبط أرضهم (لا تقسم على الفاتحين) ولهم أموالهم لا يعرض لهم فى شىء منها ، ولهم حرية العقيدة ، وحرية العبادة ، وعلى المسلمين كفالة هذا الحق وحمايته . وتخفض الجزية والضريبة على الأرض إذا انخفض النيل . »

وشرط المقوقس للروم أن يُخَيَّرُوا ، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام ، ومن أراد الخروج من مصر خرج . .

وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابا يعلمه بعقد الصلح ، فغضب غضبا شديدا ، وأرسل إلى المقوقس مؤنبا : « إن من أتاك من العرب قليل وفى مصر من القبط مالا يُحْصَى ، فإن كانوا قد كرهوا قتال العرب فإن عندك من الروم بالاسكندرية أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت ، فعجزت عن قتالهم ، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط : أذلاء ! ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم ؟ ! . . فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم ، وعلى قدر قلتهم وضعفهم ، كأَكْلَةٍ ، فناهضهم القتال ، ولا يكون لك رأى غير ذلك ! » . . وكتب هرقل بمثل ذلك إلى عظماء الروم فى مصر . . فقال المقوقس لزعماء الروم : « إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا ، وذلك أنهم قوم ، الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستقتل يتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ، ويقولون : إنهم إن قُتِلُوا دخلوا الجنة ، وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة إلا بقدر ضرورة العيش من

الطعام واللباس ، ونحن قوم نكره الموت ، ونحب الحياة ولذتها ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء !؟ وكيف صَبْرُنا معهم ؟! واعلموا معشر الروم أنى لا أخرج مما دخلتُ فيه ولا صالحتُ العرب عليه ، وإنى لأعلم أنكم سترجعون غدا إلى رأيى ، وتتمنون أن لو كنتم أطعتمونى ! وذلك أنى قد عاينتُ ورأيت وعرفت ، ما لم يعاين الملك ، ولم يره ، ولم يعرفه ! وَيْحَكُم ! أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة ؟! »

ثم جاء المقوقس إلى عمرو ، فقال : « إن الملك قد كره ما فعلت ، ورمانى بالعجز ، وكتب إلىّ وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك ، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ! ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه ، وإنما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى ، وقد تم صلح القبط (المصريين) فيما بينك وبينهم ولم يأت من قِبَلِهِم نقض ، وأنا مُتِمٌّ لك على نفسى ، والقبط مُتِمُّون لك على الصلح الذى صالحتَهم عليه وعاهدتَهم ، وأما الروم فأنا منهم برىء ! وأنا أطلب إليك أن تعطينى ثلاث خصال » .

قال عمرو : « ما هن ؟ » .

قال المقوقس : « لا تنقض بالقبط (أى المصريين) ، وأدخلنى معهم ، وألزمنى ما لزمهم ، وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ما عاهدتك عليه ، فهم مُتِمُّون لك على ما تحب . أما الثانية : فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم ، فلا تصالحهم ، حتى تجعلهم فيئا وعبيدا ، فإنهم أهل ذلك ، لأنى نصحتهم فاستغشونى ، ونظرت لهم فاتهمونى ! أما الثالثة : فأطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم يدفنوننى بالإسكندرية » .

فضمن له عمرو ذلك ، على أن يقيموا له الجسور ، ويضمنوا له الضيافة ما بين الفسطاط إلى الاسكندرية . . وأقام القبط جسرا من السفن بين الفسطاط وبين جزيرة الروضة ، وجسرا آخر من السفن بين جزيرة الروضة وبين الجيزة ، فلما خرج عمرو بالمسلمين إلى الاسكندرية أصلح القبط لهم الطرق ، وأقاموا الجسور والأسواق ، وأمدوا المسلمين بالطعام والمؤن ، وهكذا أصبح القبط أعوانا للعرب على الروم ، فلما سمعت الروم بذلك جَيَّشُوا جيوشهم وحشدوها على مشارف الاسكندرية فى انتظار جيش عمرو ، وأمدهم ملكهم هرقل بسفن كثيرة من أرض الروم فيها جموع عظيمة من المقاتلين .

كانت العرب قد غلبت الروم على الشام كله ، وانساح بعض الغزاة العرب فى بلاد الروم نفسها ، ولم يعد للروم معقل أمنع من الإسكندرية ، فكان ملك الروم يقول : « لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم ! لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها ، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ! » .

من أجل ذلك حشد هرقل كل ما يملك من عدة وعديد وطاقات لمعركة الإسكندرية . . حتى الحرس الامبراطورى الخاص بعثه ليدافع عن الإسكندرية ، وأمر ألا يتخلف أحد من الروم عن معركة الإسكندرية ، ومازال يطوف بالعاصمة ويفتش حجرات القصر ، ويرسل كل رجل يلقاه إلى الإسكندرية ، وهو يصرخ ملتاثا : « ما بقاء الروم بعد الإسكندرية ؟! » وتهيأ للخروج بنفسه ليحمى الإسكندرية .

واستبد به القلق على مصير الإسكندرية ، فهو لا ينام ولا يأكل ، حتى أصابته لوثة صرعته ، فهلك بغتة . .

وإذ علم بهلاكه الذين قهرهم على الرحيل إلى الإسكندرية ، أدار أكثرهم مراكبهم عائدين إلى القسطنطينية عاصمة الدولة التى أُخرجوا منها كارهين !

ولكن قوات الروم التى احتشدت فى الإسكندرية ، ظَلّت على الرغم من ذلك أضعاف قوات العرب ، فى أحدث سلاح وأكمل عدة . . ودون الإسكندرية قلاع وحصون منيعة لا يمكن اقتحامها . .

ورأى عمرو أن يحارب بالصبر ، فها هم أولاء القبط يمدون جيشه بما يحتاج إليه من طعام وعتاد وسلاح ، أما الروم فقد انقطع مددهم من البحر بعد هلاك هرقل ، وانشغال خلفه من بعده بالصراع على السلطة : امرأته الشابة ، وابنها الفتى ، وولى العهد ابن هرقل من زوجته الأولى المتوفاة . . وقد شغل هذا الصراع رجال الدولة ، فتوزعوا أحزابا ، وأهمَّهم أمر العرش وتنازع السلطة عن أمر الإسكندرية ، واتهم كل حزب منهم الآخر بأن اغتال هرقل لينفرد بالسلطة ! . . انتهز عمر فرصة اضطرام الخلاف بين الروم ، وحاصر الإسكندرية ، وهو مطمئن إلى أن أحدا لن يرسل إليها مددا من البحر ! فقد شغل رجال الدولة بالسلطة عن الإسكندرية ! . .

وطال الحصار ، والفاروق فى المدينة ينتظر أنباء الفتح وما من أخبار ، حتى أمضَّه الانتظار . . ! فظن الظنون ، وخشى أن يكون لين الحياة بمصر قد فتن رجاله ، فاكتفوا بما فتحوه ، وعدلوا عن دخول الإسكندرية عاصمة مصر . . فأرسل الفاروق إلى عمرو وهو على حصار الإسكندرية : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ! إنكم تقاتلونهم منذ سنتين ! وما ذاك إلا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل ، على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غَيرَّهم ما غَيَّر غَيْرهم ! فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس ، وحُضّهم على قتال عدوهم . . وقدم أؤلئك الأربعة فى صدور الناس ، ومُرِ الناس جميعا أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة نزول الرحمة ووقت الاجابة (يعنى صلاة الجمعة) ، وليفرغ الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم » .

فقرأ عمرو كتاب أمير المؤمنين على الناس ، فى أول صلاة جمعة ، ثم دعا أؤلئك النفر ، فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يصلوا ركعتين بعد صلاة الجمعة ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر ، ففعلوا » .

* * *

استشار عمرو أصحابه فى أمر الإسكندرية التى طال حصارها فقالوا له : « الرأى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيك » قال : « ومن ذاك ؟ » قالوا : « عُبادة بن الصامت الأنصارى » .

واستلقى عمرو على ظهره تحت أسوار الإسكندرية يفكر ، وكانت عادته حين يهمه أمر عظيم أن يستلقى على ظهره فى العراء ، ويجعل عينيه إلى السماء ، يفكر ، ويتدبر ، حتى يجد المخرج !

وبعد لحظات وثب عمرو ، وقال لمن حوله : « إنى فكرت فى هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا بمن أصلح أوله (يعنى الأنصار وهم الذين حموا الإسلام ونصروه فى أول أمره) » .

ثم دعا عُبادةَ بن الصامت الأنصارى ، فأتاه وهو راكب على فرسه ، فلما أراد النزول قال له عمرو : « عزمتُ عليك ألا تنزل . ناولنى سنان رمحك » . فنزع عمرو عمامته من على رأسه ، وعقدها لواءً على سنان رمح عُبادة ، وقال له : « ولَّيْتُكَ قتال الروم » .

فقاد عبادة جيوش المسلمين ، فلما اشتبكت بجيوش الروم التى فتك بها السأم وأضعفها انقطاع المدد وقلة الطعام ، غُلِبَتْ الروم . وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة ، وفَرّ الروم إلى البحر ، فوجهوا السفن إلى بلادهم ، وفر بعضهم إلى البر ، ودخل العرب الإسكندرية ، ودوت جنباتها بهتاف : « الله أكبر » .

ورأى عمرو أن يطارد الروم الفارين إلى البر ، فانتهز الذين كانوا قد فروا إلى البحر الفرصة ، وعادوا جميعا ، وأغلقوا أبواب الإسكندرية ، وأوشكوا أن يستردوها من المسلمين ، فعاد عمرو برجاله مسرعا إليها ، فوجد أبوابها قد غُلِّقت ، ولم يستطع اقتحامها ! فجاء إليه أحد الذين يحرسون أبواب الإسكندرية ، فسأل عمرو بن العاص الأمان على نفسه وأرضه وأهل بيته ، ويفتح له الباب ، فأمَّن عمرو ذلك الحارس الرومى ، ففتح الباب ، فدخل عمرو منه ، وتدفق خلفه الجند ، ففتحوا أبواب الإسكندرية الأخرى ، وفوجىء الروم المعتصمون فى قلاع الاسكندرية وراءأسوارها ، بجند العرب من خلفهم ، ملء طرقات المدينة ، فاستسلموا ، وطلبوا الصلح . .

وقتل فى معركة الاسكندرية من جند الروم عدة آلاف ، أما العرب فقتل منهم نحو عشرين رجلا . . أما الأسرى من رجال الروم فبلغوا ستمائة ألف ، غير النساء والصبيان . . فأراد بعض الفاتحين أن يُقَسّم عليهم السبى ، فقال عمرو : « لاأقدر حتى أكتب إلى أمير المؤمنين » . فلما كتب إليه رد عليه الفاروق : « لا تقسم السبى ، وذرهم ليكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم . » فأطلق عمرو السبى جميعا ، وفرض عليهم الضريبة . . فكان أهل مصر يؤدون الجزية دينارين عن كل من بلغ الحلم من الذكور ، إلا أهل الإسكندرية ، فقد أدوا الجزية والخراج (الضريبة) معا . .

وفتح عمرو بعد ذلك ثلاث قرى حول الإسكندرية كانت قد ظاهرت الروم على المسلمين ، وسبى فيها سبيا عظيما ، واستولى على أراضيها الشاسعة ، فقال

له الزبير بن العوام : « اقسمها يا عمرو بن العاص » . قال عمرو : « لا أقسمها » . قال الزبير : « والله لتقسمنّها كما قسم الرسول صلى الله عليه وسلم أرض خيبر . » قال عمرو : « والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين » . فرد عليه أمير المؤمنين ألا يقسمها ، وأن يبقى فى الأرض فلاحيها ، ويفرض عليهم خراجا (ضريبة) بقدر غلة الأرض ، كما أمر ألا يُسبى أحد من القبط (المصريين) ، وألا يُخرجوا من ديارهم ، ولا تُنزع نساؤهم ، ولا كفورهم ، ولا أراضيهم ، ولا يُزاد عليهم فى خراج أو جزية . . وذكَّر عمر الفاتحين بالحديث الشريف : « استوصوا بالقبط خيرا » .

وكان عمرو قد أرسل بعض السبايا من القبط إلى المدينة ، فردهم الفاروق إلى مصر ، وأرسل إلى عمرو كتابا حاسما : « من كان منهم فى أيديكم فخيّروه بين الإسلام ، فإن أسلم فهو من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وإن اختار دينه فَخَلُّوا بينه وبين قريته ، واجعلوا القرى التى ظاهرت الروم فى الإسكندرية ذمة للمسلمين يضربون عليها الخراج » .

* * *

عندما دخل العرب الإسكندرية بهرتهم عظمتها . . وخطفت أبصارهم نصاعة بياضها . . ووجدوها تضىء بالليل ، من غير مصابيح ، لشدة بياض ما بها من الرخام والمرمر !!

وبعث عمرو بن العاص إلى عمر بشيرا بالفتح ، هو معاوية بن حديج ، فقال معاوية لعمرو : « ألا تكتب معى لأمير المؤمنين ؟ » فقال عمرو : « وما أصنع بالكتاب ؟ ألست رجلا عربيا تبلِّغ الرسالة وما رأيت وحضرت ؟! »

فلما قدم معاوية بن حديج على عمر بالمدينة ، وأنبأه فتح الاسكندرية ، خر عمر ساجدا ، وفاضت عيناه ، وقال : « الحمد لله » .

وصف معاوية بن حديج ذلك اللقاء ، قال : « بعثنى عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ، ثم دخلت المسجد ، فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب ، فرأتنى شاحبا فى ثياب السفر ، فأتتنى فقالت : من

أنت ؟ قلت : أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص ، فانصرفت عنى ، ثم أقبلت تشتد أسمع حفيف إزارها على ساقيها ، حتى دنت منى ، فقالت : قم فأجب ، أمير المؤمنين يدعوك . فتبعتها ، فلما دخلت ، فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية . فخرج معى إلى المسجد فقال للمؤذن : أذِّنْ فى الناس : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ، فقال لى : قم فأخبر أصحابك . فقمت فأخبرتهم . ثم صلّى ودخل منزله ، واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس ، فقال : يا جارية هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت ، فقال : كل . فأكلت على حياء ، ثم قال : كل ، فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك . فأصبت على حياء ، ثم قال : يا جارية ، هل من تمر ؟ فأتت بتمر فى طبق ، فقال : كل . فأكلت على حياء ، فقال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قلت : أمير المؤمنين قائل (أى ينام ساعة القيلولة) قال : بئس ما ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيّعَنّ الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟! »

* * *

ولقد هم عمرو بن العاص بأن يسكن الإسكندرية ، ويقرها عاصمة للدولة ، وقال حين أعجبته بيوتها : « مساكن قد كفيناها » . ولكنه لم يكن يقطع أمرا قبل أن يسأل فيه أمير المؤمنين ، فلما أرسل إليه يسأله رد عليه عمر : « إن سكنتَ الإسكندرية ، فهل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ » كتب عمرو : « نعم يا أمير المؤمنين ، إذا جرى النيل (الفيضان) » فكتب عمر إليه : « يا عمرو بن العاص ، إنى لا أحب أن تُنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » .

وعلى الرغم من أن عمرو بن العاص أحب الإسكندرية ، فقد عدل عن سكناها امتثالا لأمر عمر . . وكتب إليه فى وصف الإسكندرية : « فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ! »

وتحول عمرو بن العاص إلى الفسطاط ، بالقرب من حصن بابليون . . وكان عمرو قد أقام هذا الفسطاط (المخيم) أثناء حصاره الحصن ، فلما استولى عليه ، وأراد الزحف إلى الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه هذا ، فإذا به يمام قد باض وأفرخ ، فقال عمرو : « لقد تحرم منا بمتحرم » .

فأقر الفسطاط فى موضعه ، ثم عاد من الإسكندرية ، فسأله رجاله : « أين ننزل ؟ » فقال : « الفسطاط » . . فأقاموا مدينة الفسطاط ، وبنوا فيها مسجدا هو جامع عمرو ، وقد اشترك عمرو بنفسه فى البناء . . وأمر فأقيم فيه منبر عال ، فكتب إليه عمر : « أما بعد ، فإنه بلغنى إنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين ، أو ما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت قدميك ؟! فعزمت عليك لما كسرته ! » فكسره ، واكتفى بمنبر معتدل الارتفاع .

وبنى الناس دورهم حول المسجد ، وبنى عمرو دارا كبيرة لعمر بن الخطاب ، وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، إنّا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع » فكتب إليه عمر : « أنّى لرجل بالحجاز أن تكون له دار بمصر !؟ » وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين ، ففعل .

واختطت بعض القبائل مساكنها فى جزيرة الروضة ، وبعضها فى الجيزة ، فلما كتب عمرو إلى عمر بأمر هذه المساكن ، رد عليه : « يا عمرو بن العاص ، كيف رضيت أن تفرق أصحابك ؟ ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك ، أن يكون بينك وبينه بحر ، لا تدرى ما يفجؤهم ، فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره ، فاجمعهم إليك ، فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم ، فَابْنِ عليهم من فىء المسلمين حصنا » .

فلما عرض عليهم عمرو أن يعودوا إليه فى الفسطاط ، أبوا ذلك ، فبنى لهم حصونا فى الجيزة والجزيرة .

وأرسل عمرو جيشا إلى الصعيد ، ففتحه ، وبعث جيشا آخر فتح الدلتا ، وكان الناس يطلبون الصلح طائعين . .

وأسلم كثير من القبط إذ وجدوا ما عند المسلمين من رعاية للجار ، وحسن الخلق ، والبذل ، والنجدة ، والنظافة ، والعفة ، واحترام الرأى المخالف ، وحرية العقيدة ، وكان هذا كله غير الذى آنسوه من الروم . . وقد انفجر غضب

القبط على الروم عارما ، حتى لقد كانوا إذا وجدوا روميا قتلوه . . !

وبعد أن اطمأن المسلمون فى مصر ، اتجهوا غربا ففتحوا برقة وطرابلس ، وذهب بعضهم إلى الجنوب ففتحوا بلاد النوبة . .

وقد نظر عمر فى أمر الجزية على مصر ، فوجد العدل فى التفرقة بين الأغنياء والفقراء . . فجعل الجزية على قدر غنى الرجل إذا بلغ الحلم : أربعة دنانير فى العام على الغنى ، ودينارين على من دونه ، ودينارا واحدا على من هو دون ذلك ، والدينار اثنا عشر درهم ، أى أن عليه درهمين كل شهر ، أما من لا يكسب فلا جزية عليه ، بل ينفق عليه بيت المال .

وهكذا تخلص القبط من حكم الروم ، أما المقوقس حاكمهم الرومى ، فقد مات بعد أن ضمن لهم حقوقهم من العرب . .

وكان أكثر ما أعجب به القبط تحت الحكم العربى هو شعورهم بحرية العقيدة ، فقد ظلت الكنائس بكل اتجاهاتها تؤدى الشعائر الخاصة وهى آمنة ، وكان الدعاة حتى الغلاة من المسيحيين يدعون إلى مذاهبهم فى حرية كاملة ، وهذا كله غير ما ألفوه من الاضطهاد الدينى فى ظل حكم الرومان !

ثم إن الجزية والخراج كانتا أخف بكثير مما كان يجبيه الروم من ضرائب . . وقد ألغى الحكم الإسلامى كل الضرائب الفادحة التى فرضها الروم على أهل مصر ، واكتفى بالقدر الذى حدده عمر على أساس من يسر الناس وقدراتهم ، لا يكلفهم مالا يطيقون ، فشاع فى الناس الرضا ، والاطمئنان ، واستقرت القلوب .

وأقبل رؤساء الكنيسة المسيحية على عمرو بن العاص موادعين ، وخرج من الأديرة البعيدة كثير من الرهبان الذين كانوا قد اختفوا فيها فى زمن الاضطهاد الرومانى ، وقال عمرو لهم : « فليأت البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين فى سواها » .

ولما علم البابا بنيامين بذلك ، وهو فى معتكفه النائى بدير فى صحارى قوص ، أقبل يقود أمراء الكنيسة المصرية والرهبان وكبار رجال الدين المسيحى ، فدخلوا فى أمان الفتح الإسلامى .

وقرب عمرو إليه البطريق بنيامين حتى لقد أصبح من أعز أصدقائه عليه .

واطمأن العرب الفاتحون فى مصر ، واستمتعوا بخيراتها ، وخطبهم أميرهم عمرو بن العاص فى أول جمعة صلاها بجامعه بالفسطاط ، فقال : « . . على الراعى حسن النظر لرعيته ، فهلموا على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربْعوا خيلكم وأسْمِنُوها وصونوها وأكرموها فإنها جُنّتكم (حمايتكم) من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم . . واستوصوا بمن جاوركم من القبط خيرا ، فإن لكم فيهم ذمة وصهرا ، فكفوا أيديكم ، وعفُّوا ، وغضوا أبصاركم . . واعلموا أنكم فى رباط (أى جهاد) إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوق قلوبهم إليكم ، وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » .

وكان عمرو يكتب إلى عمر بكل شىء عن مصر التى فرح عمرو بفتحها فرحا لم يعرفه من قبل قط ، على الرغم من فتوحاته السابقة المجيدة بالشام .

* * *

وكتب عمرو إلى الخليفة عن البطريق بنيامين ، وبلائه دفاعا عن عقيدته أيام الروم ، وعن مكانته فى نفوس القبط ، حتى لقد أسموه « الأب المقدس » . .

ولم يكن عمرو قد استقر على أسلوب لحكم البلاد وإدارة شئونها . . فهى ليست كغيرها من البلاد المفتوحة آنفا . . فهى مصر ! فيها أعظم وأحكم وأقدم نظام إدارى ، وهى أول دولة عرفتها الإنسانية ، وأعرق تاريخ حضارى ، أثرى بسلالات من أهل الفكر والحكمة والعلوم والفنون منذ بنى الفراعنة الأهرام معجزة الدنيا وإحدى عجائبها ، حتى أقام البطالسة منارة الاسكندرية التى ترتفع ثلثمائة ذراع تعلوها مرآة عظيمة هى أعجوبة الأعاجيب ، زجاجها محكم الصنعة ، وعرضها سبعة أذرع ، تُظهر السفن الآتية من أوروبا ، وتُظهر السفن وهى أبعد من مدى البصر ، وتُستعمل لإحراق سفن العدو ، فالموكلون بهذه المرآة يديرونها متى شاءوا نحو الشمس فتعكس أشعتها ، وتكثّفها ، فتحرق !! هذه المنارة التى تهدى السفن نهارا بأحجارها البيضاء المتألقة فى ضوء النهار ، والتى تضاء ليلا فتراها السفن من أمد بعيد ! ويا لهذه المدينة البيضاء المضيئة التى تضطرب فيها أجناس

البشر ، وتعيش معطيات التفوق البشرى من العلوم والفنون ! المدينة التى إذا وقع ضوء القمر على جدرانها المرمرية الشفافة أضاءت الجدران ، حتى كان الحائك يستطيع أن يضع الخيط فى الإبرة ليلا بلا مصباح !! يا للمدينة العجيبة التى بهرت يوليوس قيصر وأنطونيو ، والتى كان أهلها يلبسون الملابس السوداء والحمراء لتألق الرخام والمرمر فى عمائرها وأرضها ، والتى كانت بعض أعمدة قصورها قد ترقرقت من الصفاء والشفافية فصارت كالمرايا ، يرى فيها الناظر من يسير خلفه !! . . يا لتلك المدينة المذهلة الروعة التى كان الإنسان لا يستطيع أن يسير فيها نهارَ الصيف إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه ، ليقى بصره من توهج الشمس التى تسطع على المرمر والرخام ، فيحدث انعكاس الضوء بريقا عظيما يكاد يخطف الأبصار !! يا لهذه المدينة العامرة بدور التمثيل ، وبالمسارح ، والساحات ، وما لا يتخيله عقل من روعة المبانى . . والتى كانت فيها تجارة رائجة ، واثنا عشر ألف مكان لبيع البقول وحدها . . المدينة التى زعموا أن الاسكندر قال حين بناها : « أبنى مدينة إلى الله فقيرة ، وعن الناس غنية » فبقيت بهجتها أبدا ! .

لمّا عرف عمر ما للبطريق بنيامين من مكانة ، كتب إلى عمرو يأمره باستشارته . . فلما سأله عمرو المشورة ، أشار عليه بأن يجبى الخراج من غلة الأرض عند فراغ الناس من الحصاد وعصر الكروم ، وأشار بحفر الخلجان وتطهيرها ، وبإصلاح الجسور وصيانة الترع ، وبإعطاء العمال أرزاقهم موفورة متصلة ، كيلا يرتشوا ، وبألا يلى أمور الناس حاكم ظالم . . وأخذ عمرو بمشورة بنيامين ، فقبل بدل أموال الخراج غلالا فى موسم الحصاد ، فسر الفلاحين ، ووجد حكاما عاملين أكفاء من الروم ، رفضوا أن يغادروا مصر ، ورغبوا فى أن يصالحوا الفاتحين ، وإذ اطمأن عمرو إلى كفاءتهم ونزاهتهم وعدلهم ، أقرهم على أعمالهم ، واحتفظ بعضهم بعقيدته التى تخالف عقيدة القبط ، ودخل بعضهم فى الإسلام . .

وعلم عمر بن الخطاب أن خليجا كان يجرى بين النيل من قرب حصن بابليون إلى البحر الأحمر ، فكان يربط الحجاز بمصر ، وييسر تبادل التجارة ، ولكن الروم أهملوه فرُدم ، فأمر الفاروق عامله على مصر عمرو بن العاص بشق هذا الخليج مرة أخرى . . فشقه ، فيسر الطريق بين بلاد العرب وبين الفسطاط عاصمة مصر ، وأصبح شريان تجارة يتدفق منه الرخاء ما بين البحرين مرة أخرى !

وقامت على هذا الخليج داخل الفسطاط متنزهات وخمائل ومساكن ، وسماه عمرو : خليج أمير المؤمنين (ومكانه الآن شارع الخليج المصرى) .

وهكذا قام العمال الذين أقرهم عمرو من الروم والقبط بأعمالهم خير قيام ، وسعد الناس بعدل الفاتحين ، وبما أخذهم به الخليفة من التخفيف على الفقراء فى الجزية ، وإعفاء غير القادرين ، وقيام الدولة بشئونهم . . وسعد عمر بما تعطيه مصر من ثمرات . . وتذكر وصفها فى القرآن الكريم : جنات تجرى من تحتها الأنهار ! وتمنى لو أنه استطاع أن يزورها كما زار الشام ، ولكن سياسة الحكم فى المدينة شغلته ، فكتب إلى عمرو بن العاص ، يسأله أن يصف له مصر وصفا يجعله كما لو أنه يراها ، فكتب إليه عمرو : « ورد كتاب أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، يسألنى عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطَها نيلٌ مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر ، له أوانه يُدِرُّ حِلابُه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، فإذا ما تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، فعند ذلك يخرج أهل مصر يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . . فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحت الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذ هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يُقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يُستأدى (أى يُحَصّل) خراج ثمرة إلا فى أوانها » . .

فلما قرأ عمر كتاب عمرو قال : « لله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لى خبرا كأننى شاهده » .

ولكن عمر غضب على عمرو ، إذ اختلفا حول ما تدره مصر : فعمر يريد أن ينفق منه على الأمة كلها ، إذ كانت رعية عمر قد اتسعت ، وقد خَرّب منابعَ ثروتها حكامُها السابقون من الفرس والروم ، واستنزفوا ما فيها من أموال وخيرات ، إذ جعل هؤلاء الحكام كل همهم إلى ابتزاز الأموال من المحكومين بأية وسيلة ، وما فكروا قط فى إصلاح ما ينتج تلك الأموالَ من زراعة أو صناعة . . فلما فُتحت مصر ، علم عمر أنها كانت تُدِرّ أيام الفراعنة نحو تسعين ألف ألف دينار (مليون)

وقد جبى منها يوسف الصديق حين جعله الملك على خزائن الأرض نحو ثلاثة وسبعين مليونا ، فلما أنهكها واستنزفها الروم أصبحت تدر عشرين مليونا من الدينارات الذهبية ، غير منتجاتها الزراعية والصناعية التى كانت حينئذ تسد حاجات العالم ! ورأى عمر أن الذى ستدره مصر من الخراج والجزية لن يقل عن هذا المقدار وهو ثروة طائلة ، فإذ بعمرو بن العاص يرسل إليه أول الأمر ثمانية ملايين ، ظلت تنقص ، حتى هبطت إلى أربعة ملايين ! . . فاضطرب الأمر ، واختل ميزان الحساب فى يد الخليفة ، ولم يجد كما تمنى مالاً يغنى أو يكفى الأقطار الفقيرة فى الأمة الإسلامية المتراحبة !

ولقد رأى عمرو بن العاص ، فى سياسة التودد للمصريين ، أن يخفف عنهم قدر ما يستطيع ، ليحسوا بالفارق الشاسع بين سياسته ، وبين سياسة الروم ، فاستقل بتخفيف الخراج عن بعض الناس . . ثم إن عمرو بن العاص ، آثر أن ينفق مما يجبيه من أهل مصر على إصلاح أرض مصر : على حماية الجسور من طغيان الفيضان ، وحفر الخلجان ، وشق الترع ، وتطهير المجارى المائية ، إلى غير ذلك من الاصلاحات التى كان الروم قد أهملوها ، قانعين بما يأخذونه غصبا من أموال المصريين !

ولقد كتب الفاروق إلى عمرو عامله على مصر ، يطالبه بأن يرسل إليه خراج مصر كاملا ، ولقد نبهه المرة بعد المرة إلى خطر انتقاص هذا الخراج على أمة الإسلام كلها ، ولكن أمير مصر استمر فى إنفاق بعض خراج مصر على إصلاح منابع الثروة فيها ، لا يبالى بما خططه الخليفة وهو الإمام الأعظم لأمة الإسلام جميعا ، فما أصبح أمير مصر يعنى بغير مصر !

وغضب الخليفة من ذلك ، فكتب إليه مؤنبا ، وقد ساورته الشكوك فيه : « أما بعد ، فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا ، وقوة فى بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عُتُوّهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ! وأعجب ما عجبت منه أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحط ولا جدب ! ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى عليك من الخراج ، وقد ظننت ورجوت أن تفيق فترفع إلىَّ ذلك ، فإذا أنت تأتينى بمعاريض (أى أعذار) تبعث بها لا توافق الذى فى نفسى ، ولست قابلا منك دون الذى

كانت تؤخذ به أرض مصر من الخراج قبل ذلك . . ولست أدرى مع ذلك ما الذى نَفَّرك من كتابى وقبضك عنى ! وقد كنت أبتغى فى العام الماضى أن تفيق فترفع إلىّ الخراج الذى كان يؤخذ من مصر قبل ذلك ، وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك : عمال السوء ! وما تُوالَس عليه وتُلَفَّف ! اتخذوك كهفا ! وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتُعطاه ، فإن النهر يُخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فإنه قد برح الخفاء ، والسلام » .

وتلقى عمرو بن العاص هذا الكتاب ، ووعى ما يرميه به الفاروق ، فحزّ ذلك فى نفسه ! . . لم يبعد فى النسيان بعدُ ، ذلك اليوم الذى مدحه فيه ، لما علم أنه فتح الإسكندرية عاصمة مصر وأكبر مدائن العالم ، ولم يفقد فى المعركة غير نحو عشرين شهيدا ! . . حينئذ قال عمر : « لله در عمرو بن العاص ، حربه هينة ، وإنه ليظفر بعقله أكثر مما يظفر غيره بسيفه ! » . وآثر عمرو أن يتريث فى الرد ، لكيلا يحمله الغضب لكرامته على مركب لا يحبه . . وبعد أيام كتب إلى عمر : « أما بعد ، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمرى لقد كان الخراج يومئذ أكثر وأوفر والأرض أعمر ، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام . . وأكثرتَ فى كتابك وأنّبْتَ وعرضتَ ، إن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبير ، فجئتَ لعمرى بالمفظعات المقذعات . . وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ بَعْدَه ، فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، معاذ الله من الاجتراء على كل مأثم ، فاقبض عملك فإن الله قد نزهنى عن الدنية ، والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضبا ولها تنزيها وإكراما . وما عملت من عمل أرى عَلَىَّ فيه متعلقا ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدت ! . . يغفر الله لك ولنا ! وسكت عن أشياء كنت بها عالما ، وكان اللسان بها ذلولا ، ولكن الله عظّم من حقك مالا يُجهل ، والسلام » .

فبادر عمر بالرد عليه ، فكتب إليه : « أما بعد ، فقد عجبت من كثرة كتبى

إليك فى إبطائك بالخراج . . وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البيّن . ولم أقدمك إلى مصر أجعلها طُعْمَةً (هدية) لك ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين ، وعندى من قد تعلم قوم محصورون » .

فكتب إليه عمرو بن العاص : « أما بعد ، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أعند عن الحق وأنكب (أميل) عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت ، فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم ، فيصيروا إلى بيع مالا غنى لهم عنه » .

وعلم الفاروق عمر أن عمرو بن العاص على الرغم من الخراج القليل الذى يرسله يعيش فى مصر كالأثرياء . . وكان عمر قد تعود أن يكتب أموال الولاة قبل أن يوليهم ، ويظل يراقبهم ، ويرسل من يكتبون إليه بأحوالهم . . وأيقن عمر أن ابن العاص كثر ماله خلال ولايته على مصر ، فكتب إليه : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية حيوان لم يكن لك حين وليت مصر » !

فأجابه عمرو بن العاص : « يا أمير المؤمنين إن أرضنا أرض مزرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا . » فكتب إليه : « يا ابن العاص ، إنى قد خبرت من عمال السوء ما يكفى ، وكتابك إلىّ كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق . . وقد سُؤْتُ بك ظنا ، ووجهت إليك محمد بن سلَمة ليقاسمك مالك ، فأخرج إليه ما يطالبك به ، وأعفه من الغلظة عليك ، فإنه قد برح الخفاء ! »

فلما ذهب محمد بن سلَمة إلى عمرو ليحاسبه ، قال له عمرو : « إن زمانا عاملنا فيه ابن حَنْتَمَة (أم عمر بن الخطاب) هذه المعاملة لزمان سوء ! لقد كان العاص يلبس الخز بالديباج . . » فقاطعه محمد بن سلمة : « يا عمرو ابن العاص ، لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه أُلفيتَ معتقلا عنزا بفناء بيتك ! » فهدأ عمرو ، وأدرك أنه اندفع فأفحش ، فقال : « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى ! » قال : « لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حى » .

ولم يفكر عمر فى عزل عمرو كما عزل غيره من عماله حين ساء ظنه بهم . . ذلك أن الفاروق لم ير فيما فعله عمرو إلا رأيا يخالف رأيه ، ولم ير فى

سلوكه وتمسكه بحريته فى تصريف أمور مصر بما يلائم أهلها ، خروجا على نظام الدولة يهدد كيانها . . فضلا عن أن عمر كان يعرف أن لعمرو من التأثير فى مصر ، ما ليس لأى فاتح آخر فى البلاد المفتوحة ، فقد تألف عمرو قلوب الناس ، وترفق بالضعفاء فأعفاهم من الخراج حين لم يستطيعوا أداءه ، وأنفق من أموال الجزية والخراج على إصلاح ما أهمله الروم من أمور مصر ، لتزيد غلة الأرض . . ثم إنه شاور فى كل أمور القبط كبيرهم وأباهم المقدس البطريق بنيامين بابا الكنيسة المصرية ، فأنتجت صداقة الرجلين خيرا كثيراً . ولم يأخذ عمر على عمرو إلا أنه عمل بالتجارة والزراعة وهو أمير ، فأثرى ! . . من أجل ذلك أخذ نصف ماله ، وضمه إلى بيت المال . .

وكان عمر يحب لعمرو أن يسير سيرته الزاهدة فى ولايته : يطعم الناس الطيب ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ويلبس الخَشن !

على أن عمرو بن العاص ظل يقول عن عمر : « ما رأيت أحدا بعد نبى الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبى بكر أخوف لله من عمر . لا يبالى على من وقع الحق : على ولد أو والد ! » .

وكان عمرو بن العاص يذكر عمر بالخير ، على الرغم من أنه جعل بعض رعيته من قبط مصر يقتص منه . .

جاء رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب بالمدينة فقال له : « يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ! » قال : « مالك ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فَأَقْبَلَتْ فرسى ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسى ورب الكعبة ، فقلت : فرسى هى السابقة . فقام محمد بن عمرو يضربنى بالسوط ، وقال : خذها وأنا ابن الأكرمين . » فقال له عمر : « اجلس » ثم كتب إلى عمرو : « إذا جاءك كتابى هذا فأقبل ، وليقبل معك ابنك محمد » .

فدعا عمرو بن العاص ابنه ، فسأله : « أأحدثتَ حدثا ؟ أجنيتَ جناية ؟ » قال : « لا » قال : « فما بال أمير المؤمنين يكتب إلىَّ فيك ؟! » .

فأقبل عمرو بن العاص ، ومن خلفه ابنه محمد على عمر بالمدينة ، فقال

عمر : « أين المصرى ؟ » قال : « ها أنذا يا أمير المؤمنين . » قال : « دونك الدِّرّة ، فاضرب بها ابن الأكرمين ! » ، فضربه ضربا مبرحا . .

وتذكر عمرو بن العاص خطبة لعمر أول عهده بالخلافة ، أنذر فيها عماله أن يقتص منهم إن هم ظلموا الرعية ، فلما وثب عمرو حينئذ معترضا ، قال له عمر إنها للسنة الشريفة ! وخشى عمرو أن يأمر عمر المصرى بالقصاص منه ، وهو أميره ! وما لبث عمر أن قال للمصرى : « مرّ بهذه الدِّرّة على صلعة أميركم عمرو بن العاص ، فوالله ما ضربك ابنه محمد إلا بفضل سلطانه . فقال المصرى : « يا أمير المؤمنين ، قد ضربتُ من ضربنى » قال عمر : « أما والله لو ضربتَ عمرو بن العاص ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ! » ثم قال : « يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! » والتفت إلى المصرى وقال له : « انصرف راشدا ، فإذا رابك شىء فاكتب إلىّ . » ثم قال لمن كان معه من الصحابة : « يعجبنى فى الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول : لا ، بملء فيه » .

وعاد المصرى إلى وطنه ، يروى للناس ما كان من أمره مع أمير المؤمنين ، ويردد عليهم ما قاله لأميرهم عمرو : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! » أين هذا كله مما ألفوه من حكامهم السابقين ؟!

وجاء رجل آخر من مصر إلى عمر ، فقال : « يا أمير المؤمنين إن عمرو بن العاص نادانى : يا منافق ، فأقسمت لا أغسل رأسا ولا أدهنه حتى آتى عمر بالمدينة ! يا أمير المؤمنين ، لا والله ما نافقت منذ أسلمت ! »

فكتب الفاروق إلى عمرو : « إلى العاصى ابن العاص أما بعد ، فإن فلانا ذكر أنك نَفَّقْتَه (اتهمته بالنفاق) ، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربك أربعين سوطا » فقام الرجل فى جامع عمرو ، فصاح : « أنشد الله رجلا سمع عمرو بن العاص نَفَّقَنى إلا قام فشهد . » فقام عامة من المسجد . فقال له أحد الحاضرين : « أتريد أن تضرب الأمير ؟! » وعرض عليه مالا كثيرا ليسكت ، فقال : « والله لو ملأت لى هذا المسجد مالا ما قبلت ! » قال : « أتريد حقا أن تضربه ؟! » قال : « ما أرى لعمر أمير المؤمنين هنا طاعة ! » وخرج مغضبا .

فقال عمرو : « رُدُّوه » ، فأمكنه من السوط ، وجلس بين يديه ، فقال

الرجل : « تقدر أن تمتنع عنى بسلطانك ! » قال عمرو : « لا ، فامض لما أُمرتَ له » قال الرجل : « فإنى قد عفوت عنك يا عمرو بن العاص ! لا ظلم وعمر بالمدينة ! »

* * *

وإن عمر لفى أوج سعادته بانتشار الإسلام وانتصاره ، وبتمكنه من إسعاد الرعية ، إذ بغاشية من الهم تغشاه ، وتكدر عليه صفوه ! . . فقد أقبل عليه أقوام من البادية يشكون الجفاف ، والجوع . . فلم تمطرهم السماء منذ أشهر ، وقد احترقت الخضرة ، ثم نفثت الأرض اللهب فى أكثر من مكان من جزيرة العرب ، وكأنما انفجرت البراكين الكامنة فى جوف الأرض لتغمر سطحها ، وتُحيل الزرع النضير والعشب الأخضر إلى رماد ! . . فجاع الانسان والحيوان ، وأصبح الناس فى المدينة ، وهم يملكون المال ، ولكنهم لا يجدون الطعام ليشتروه بما يملكون من أموال كثيرة !

وجاءوا لعمر بخبز وسمن ، ومعه رجل من البادية ، فدعاه ليأكل معه ، فرأى عمر ضيفه يأكل على نحو يعبر عن جوع ولهفة إلى الطعام ، فقال له : « كأنك مُقفِر ! » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، ما أكلت سمنا ولا زيتا ولا لحما منذ كذا وكذا إلى اليوم » فأطرق عمر مليا ، ثم قال : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟! » وأقسم ألا يأكل لحما ، ولا سمنا ، حتى يأكلها أفقر رجل فى البادية . .

نهض عمر ليعالج مشكلة الجوع ، فى عامه هذا الذى أمسكت فيه السماء ، واحترقت فيه الخضرة ، وأصبح وجه الأرض كله سوادا ورمادا ، حتى لقد سمى عام الرمادة . . وظلت الريح تَسْفِى رمادا على بلاد العرب طيلة سنة ثمان عشرة هجرية . . !

مضى عمر إلى المسجد فصلى ركعتين بالناس ، ثم جثا لركبتيه ودعا الله جاثيا : « اللهم عجزت عنا أنصارنا ، وعجز عنا حولنا وقوتنا ، وعجزت عنا أنفسنا ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم اسقنا ، اللهم أَحْىِ البلاد والعباد » .

وأسرع عمر فكتب إلى عماله على البلاد الغنية يستغيثهم ، فأرسل إلى عمرو بن العاص عامله على مصر : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى العاصى بن العاص ، سلام عليك ، أما بعد ، أفتراني هالكا ومن قِبَلِى ، وتعيش أنت منعما ومَنْ قِبَلَك ؟! فواغوثاه ! واغوثاه ! واغوثاه » .

فكتب إليه عمرو بن العاص : « لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، أتاك الغوث ، فالرَّيثْ الرَّيثَ ! لأبعثنّ إليك بِعِيرٍ (عِير : بكسر العين : قافلة) أولها عندك وآخرها عندى ! » .

وكتب عمر إلى كل عامل من عماله على الشام : « ابعث إلينا من الطعام بما يصلح من قِبَلِنا ، فإنهم قد هلكوا ، إلا أن يرحمهم الله » .

وكتب إلى عماله على العراق وفارس بمثل ذلك ، فكلهم أرسلوا إليه . . وكان أول من أجابه أبو عبيدة بن الجراح ، لم يرسل إليه ، بل جاء بنفسه ، وهو حينئذ أمير الأمراء وأمير الأجناد بالشام ، جاء فى ثياب زاهد ورع ، ومعه أربعة آلاف راحلة تحمل طعاما . . فلما رآه عمر هش له ، وهتف : « كل الناس تغير ، إلا أبو عبيدة ! لله درك ! » وأمره أن يوزع ما جاء به من الطعام على مَنْ حول المدينة من الأعراب .

وبعث معاوية بن أبى سفيان ثلاثة آلاف بعير تحمل طعاما . . وبعثت العراق ألف بعير تحمل دقيقا ، وبعث عمرو بعشرين سفينة كبيرة وعدة آلاف بعير تحمل الطعام والكساء ، كان أولها فى الحجاز وآخرها فى مصر !

وأمر عمر بأن يوزع هذا الزاد على أهل المدينة ومن لاذوا بها من الأعراب ، وسير منه إلى البادية ، وأمر بتوزيعه على أحياء العرب جميعا ، قال الزبير بن العوام : « قال لى عمر فى عام الرمادة ، وقد حَمَّلَ قافلة من الإبل بالدقيق والشحم والزيت لنجدة أهل البادية : « اخرج فى أول هذه العير فاستقبل بها نجدا ، فاحمل إلىّ أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلىّ ، ومن لم تستطع حمله ، فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه من المتاع ، ومُرْهُم فليلبسوا كساءين ، واحدا للشتاء ، وآخر للصيف ، ولينحروا البعير ، فليحفظوا شحمه ، وليقددوا لحمه . . ثم ليأخذوا شحما ودقيقا فليطبخوا ، ويأكلوا ، حتي يأتيهم الله برزقه » .

وجعل عمر يرسل إلى الناس مؤونة شهر بشهر ، مما يصله من الأمصار من الطعام والكساء ، ثم إنه نصب بالمدينة قدورا ضخمة ، يقوم عليها عمال مهرة ، يطبخون من بعد الفجر ، ثم يوزعون الطعام على الناس . . فقد امتلأت المدينة بالمهاجرين إليها من البادية ! والأمصار ترسل النجدات ، وعمر يوزع ، ويشرف على التوزيع ، ويرسل إلى البوادى ، وقد أحصى من أكلوا ذات ليلة من البدو اللاجئين إلى المدينة ، فوجدهم سبعة وأربعين ألفا ، بالنساء والأطفال .

وأعلن عمر الناس : « إن لم يرفع الله الجدب فسأجعل مع أهل كل بيت مثلهم . . وسنطعم ما وجدنا أن نطعمهم ، فإن أعوزنا ، جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد ، عدتهم ممن لا يجد ، إلى أن يأتى الله بالحَيَا (المطر) » . .

ودخل بيته مرة ، فوجد بطيخة فى يد أحد بنيه الصغار ، فقال : « بَخٍ بَخٍ يا ابن أمير المؤمنين ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ؟! » فجرى الصبى باكياً وقد ترك البطيخة . .

وما فتىء عمر كلما صلى العشاء يعود إلى بيته ، فلا يزال يصلى حتى آخر الليل ، ثم يطوف يتفقد أحوال الناس ، وهو يدعو الله : « اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدى ! » .

وظل يأكل الزيت عام الرمادة ، حتى قرقرت بطنه ، فنقر بطنه قائلا : « ليس لنا عندك إلا الزيت حتى يحيا الناس ! »

وصفه أحد الصحابة ، فقال : « رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود اللون ، وقد كان أبيض . كان رجلا عربيا يأكل السمن واللبن ، فلما أمحل الناس حرمها حتى يحيوا ، فأكل الزيت فَغَيَّر لونه ، وجاع فأكثر من الجوع » .

وقال عنه صحابى آخر : « لو لم يرفع الله المَحْلَ (الجَدْبَ) عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هَمًّا بأمر المسلمين ! »

وسأله الناس : « لماذا لا تستسقى ؟ » ، فكتب إلى عماله أن يخرجوا فى يوم كذا ، وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا الجدب والجفاف عنهم .

وخرج عمر لذلك اليوم ، عليه بُرْدُ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

وجعل يدعو ويستغفر ، وبكى بكاء طويلا ، ثم أخذ بيد العباس عم النبى ورفعها ، وقال : « اللهم إنا لنشفع إليك بعم نبيك أن تذهب عنا الجدب ، وأن تسقينا الغيث » . . ثم اعتلى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس ، اسنغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله ، فإنك تقول وقولك الحق : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا) فحفظتها لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه . اللهم أغفر لنا إنك كنت غفارا . اللهم أنت الراعى ، لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وخطب الناس فى يوم آخر فقال : « أيها الناس ، اتقوا الله فى أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم . فقد ابتليت بكم وابتليتم بى ، فما أدرى السخطة عَلَىّ دونكم أو عليكم دونى ، أو قد عَمَّتْنى وعَمَّتكم ! فهلموا فلندع الله يصلح قلوبنا ، وأن يرحمنا ، وأن يرفع عنا المَحْل . »

ثم أخذ يدعو ، ودعا الناس ، وبكى ، وبكى الناس ، وظل عمر كلما خرج ودخل يُكَبّر ، ويستغفر ، ويدعو الله ، حتى نظر الناس ذات صباح ، فإذا سحابة سوداء طلعت من ناحية البحر ، فأمطرت السماء ، فكَبَّر الناس !! واستمر المطر طويلا ، فصلى عمر والناس لله شكرا ، ثم أمر عمر مناديه أن ينادى فى الأعراب اللاجئين إلى المدينة ، فنادى المنادى : « اخرجوا ، اخرجوا ، الحقوا ببلادكم . » فخرجوا مزودين بما يكفيهم من طعام حتى تنبت الأرض .

ولم يرسل عمر عماله على الصدقات ليجبوا الزكاة فى عام الرمادة ، فلما أمطرت السماء وأخصبت الربوع ، وعادت حياة الناس سيرتها الأولى ، أمر فى العام التالى بجباية الزكاة من القادرين عن عامين : عام الرمادة وعامهم هذا ، وأمرهم أن يأتوه بزكاة عام واحد ، أما العام الآخر ، فقد أمر بزكاته أن توزع فى مواطن الجباية ، على الفقراء الذين تأذوا بعام الرمادة .

* * *

وبعد أن اطمأنت الأمور ، خرج الفاروق كما نذر من قبل ، يتفقد الأمصار ، وبدأ بالشام ، فقد اشتاق إلى أبى عبيدة ، وهى أدنى الأرض للحجاز ، حتى إذا أتى قرية بين الشام والحجاز ، لقيه أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام كله فى عدد من أمراء بلاد الشام ، فأخبروه أن الطاعون قد ظهر فى قرية بالشام اسمها عمواس .

ولم يقدم عمر ، بل شاور من معه من المهاجرين : أيدخل الشام بصحبه ، أم يعودوا إلى المدينة ؟ فاختلف الناس . . فقال البعض : « خرجتَ لأمر ، ولا نرى أن ترجع عنه ! » وقال آخرون : « معك بقية الناس ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تُقدمهم على الوباء . » فقال عمر : « اتفقوا على رأى » ولكنهم لم يتفقوا ، فقال لهم : « انفضوا » ثم قال لابن عباس : « ادع لى الأنصار » فدعاهم ، وشاورهم فاختلفوا كما اختلف المهاجرون .

وبعد قليل ، قال لابن عباس : « ادع لى مشيخة قريش من مهاجرة الفتح » فدعاهم ، فلما شاورهم أجمعوا على أن يعود إلى المدينة .

فنادى عمر فى الناس : « إنى مصبح على ظهر بعيرى ، فأصبحوا على مطاياكم » . فقال له أبو عبيدة منكرا : « أفرارا من قدر الله يا عمر !؟ » قال عمر حزينا : « لو غَيْرُك يا أبا عبيدة قالها !! »

وبعد صمت ، قال عمر : « نعم ! فرارا من قدر الله إلى قدر الله ! أرأيتَ لو كان لك إبل ، فهبطتْ بك واديا له عُدوتان ، (العدوة بضم العين جانب من الوادى) ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيتَ الجدبة رعيتها بقدر الله !؟ » .

وساد الناس هرج ، فأقبل عبد الرحمن بن عوف ، وكان غائبا فى بعض شأنه ، فسأل الناس عن هذا الهرج ، فلما أخبروه بأمر الوباء ، وما كان بين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة ، قال : « أيها الناس ، عندى من هذا علم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا ظهر وأنتم به ، فلا تخرجوا فرارا منه » فاطمأن عمر ، وعاد بصحبه إلى المدينة .

ولكنه ظل يفكر فى أبى عبيدة ، وخشى أن يمتد الوباء من عمواس إلى بقية

بلاد الشام ، وأبو عبيدة هو أمين الأمة ، وسيأبى عليه خلقه أن يترك رجاله فى الشام ويخرج ! . .

فكتب إليه : « أما بعد ، فإنى قد عرضت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلىّ » .

وفهم أبو عبيدة ما يريده عمر ، فقال : « يغفر الله لأمير المؤمنين ! » ثم كتب إليه : « يا أمير المؤمنين إنى قد عرفت حاجتك إلىّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد فى نفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحللّنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعنى وجندى » .

فلما فرغ عمر من قراءة كتاب أبى عبيدة بكى ، فسألوه : « يا أمير المؤمنين ، أمات أبو عبيدة ؟ » قال من خلال الدمع : « لا ، وكأن قد ! »

وإنْ هى إلا أيام ، حتى اجتاح الوباء بلاد الشام جميعا ، فأهلك نحو خمسة وعشرين ألفا ، فيهم أبو عبيدة !

فلما زال الوباء ، ذهب عمر إلى الشام فى جماعة من الصحابة ، ليصلح ما عسى أن يكون قد أفسده الوباء ، فقسم المواريث ، ونظم الثغور ، وأعاد توزيع القوات ، وولى عمالا مكان الذين هلكوا فى الوباء .

وخطب فى الناس وهو يودعهم قبل عودته إلى المدينة ، فقال : « ألا إنى قد وليت عليكم ، وقضيت الذى علىّ فى الذى ولانى الله من أمركم إن شاء الله ، وقَسَطْنا (أى وزعنا بالعدل) بينكم فيأكم ومنازلكم ومغازيكم . . وجندنا لكم الجنود . . وبوأناكم ، ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم . . وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم . . فمن عَلِمَ عِلْم شىء ينبغى العمل به فبلغنا ، نعمل به إن شاء الله » .

وحضرت الصلاة ، فقال الناس : « لو أمرت بلالا فَأذَّن ! » وما كان بلال قد أذَّن قط بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأذن بلال بصوت شجى عذب . . وتناوحت الذكريات ! . . وكأنهم يرون رسول الله يؤمُّهم على أذان بلال ! . . أين أنت يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ؟! واختلج الأذان ببكاء بلال ، وبكى الناس ، وعندما كَبّر عمر وأَمَّ الناس للصلاة ، غاضت منه الكلمات فى الدمع السخين !! . .

وبعد أن ختموا الصلاة ، سأل بلال صديقا له : « كيف عمر فيكم ؟ » قال : « خير الناس ، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم ! » قال بلال ناصحا : « لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه » . ونصح بأن يذكروه بالقرآن إذا رأوه غاضبا ! والتف بعض الصحابة حول بلال ، كأنما يتبركون به ، فما سمعوا أذانه منذ قضى الرسول . . ولكنه عاد يستخبرهم عن عمر . . فقال صحابى آخر : « كان عمر فى عام الرمادة يذبح للناس كل يوم ، ويطعمهم اللحم والطعام الشهى مما تبعثه الأمصار ، فأقبلت فإذا الناس بين أيديهم القصاع ، فدعانى عمر إلى طعامه فأتيته ، فدعا بخبز غليظ وزيت ، فقلت لعمر : أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم ، ودعوتنى إلى هذا ؟! قال : إنما دعوتك إلى طعامى ، أما هذا فهو طعام المسلمين . » فقال صحابى ثالث : « فى عام الرمادة اشترت امرأة عمر سمنا ولبنا لترحمه من الزيت ، وكانت تعرف أنه يحب السمن واللبن ، فأنكر ذلك عليها ، وسألها : من أين لك هذا ؟ قالت : هو من مالى ، ليس من نفقتك ! قال : ما أنا بذائقه حتى يحيا الناس ! » وقال جابر عن ذكرياته مع عمر فى عام الرمادة : « اشتهيت لحما فاشتريته ، فقال لى عمرُ : ما هذا يا جابر ؟ ! قلت : اشتهيته فاشتريته ، قال : أكلما اشتهيتَ اشتريت ؟! أما تخاف قوله تعالى : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) ؟ كفى بالمرء شرا أن يأكل كل ما اشتهى ! » وقال آخر : « عَسَّ عمر ذات ليلة عامَ الرمادة ، فلم يجد أحدا يضحك ، ولا يتحدث الناس فى منازلهم على العادة ، فأقسم لا يأكل سمنا ولا سمينا ، ولا يقرب امرأة حتى يعود الخصب ، فلبث على ذلك تسعة أشهر ، فاسودّ لونه وتغير جسمه ، حتى خشينا هلاكه » !

فقال صحابى آخر : « وهو مع ذلك يلقى من بعضنا غبنا! فقد جاءته حلل كثيرة (والحلة ثوبان : إزار ورداء) فأصاب كل رجل منا ثوبا واحدا ، ثم صعد عمر المنبر وعليه حلة كاملة من ثوبين ، فانشغل من فى المسجد عنه يتحدث بعضهم إلى بعض ! فقال : أيها الناس اسمعوا وعُوا ! . . ألا تسمعون ؟! فوثب سلمان الفارسى ، فقال : لا نسمع لك ! قال عمر : لِمَ يا أبا عبد الله ؟! قال : يا أمير المؤمنين ، إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا ، ولكن عليك ثوبين ! قال عمر : لا تعجل يا أبا عبد الله ! ثم نادى فى المسجد : أين عبد الله بن عمر ؟ فلما جاءه ، قال له عمر : نشدتك الله ! أهذا الثوب الذى ائتزرت به ثوبك ؟ قال

عبد الله : اللهم نعم ، فقد رأيت ثوب أمير المؤمنين قصر عنه ، فأعطيته ثوبى . قال سلمان : الآن فقل نسمع لك . فأصغى الناس ! »

فقال صحابى آخر : « سمعت عمر يقول لنفسه ، وقد دخل بستانا ، وبينى وبينه جدار : « بخ بخ ! والله يا عمر بن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك ! »

ثم أُذِّن للرحيل ، فتعانق الأحباء ، وفاضت الدموع حتى اخضلت لحاهم ، وعاد عمر بصحبه إلى المدينة ، يدبر شئون الرعية ، وعاد عماله إلى مواقعهم فى بلاد الشام !

* * *

فى طريق العودة إلى المدينة ، لم تبارح خيال عمر صورة صديقه أبى عبيدة ! . . إنه ما زال يذكره يوم أُحُد ! . . ما زال عمر يذكر ما حدّثه به أبو بكر الصديق . . كان أبو عبيدة أحد الذين ثبتوا وتحدّوا الموت ، أما أنت يا عمر ، فإنك لم تثبت ! . . لعلك من أجل ذلك فضلت فى العطاء ابنا لأحد الذين ثبتوا يوم أحد على ابنك عبد الله ، فلما سألك ، بِمَ ميزته عنه قلت لابنك : « إن أبا هذا ثبت يوم أحد ، أما أبوك فقد فر مع الذين فروا !! » يا للذكريات !! ما زلت تذكر يا عمر عظمة أبى عبيدة حين أثبت فى مستنقع الموت رجله ، وقال لها : من دون أخمصك الحشر ! . . وما زال ما رواه أبو بكر عن شجاعة أبى عبيدة يدوى بأعماقك ، فى روعة تخالجها الأشجان ! . . قال أبو بكر : « لما كان يوم أحد ، ورُمِىَ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين دخلت فى وجنتيه حلقتان من المغفر (غطاء منسوج من الزرد يحمى الوجه فى الحرب) ، فأقبلتُ أسعى إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وإنسان قد أقبل من المشرق يطير طَيَرانا . . حتى توافينا إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرنى (سبقنى) ، فقال : أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتنى فأنزع الحلقتين من وجنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فتركته ، فأخذ أبو عبيدة بِثَنِيَّتِه إحدى حلقتى المغفر ، فنزعها ، وسقط على ظهره ، وسقطت ثنية أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى ، فسقطت ، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم » !

وإنك يا عمر لتذكر يوم قدم وفد من أهل اليمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلموا ، فسألوه أن يبعث معهم رجلا يفقههم فى الإسلام ، قالوا : « ابعث معنا رجلا أمينا ! » قال : « لأبعثن إليكم رجلا أمينا حقَّ أمين ! حقَّ أمين ! حقَّ أمين !» فاستشرف لها كل من كان مع الرسول من الصحابة ، إنك لتذكر هذا يا عمر !! أنت أيضا استشرفت لها ! . . ثم إذا برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يأخذ بيد عبيدة بن الجراح ، ويقول : « هذا أمين هذه الأمة . . ألا إن لكل أمة أمينا ، وأن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

يرحمك الله يا أبا عبيدة ! أى رجل كنت !؟ أيها السابق إلى الإسلام قبل دخول الرسول دار ابن الأرقم ، يرحمك الله يا أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة ! يا من قدمك أبو بكر يوم السقيفة ، لتكون خليفة رسول الله ، فتأخرت ، وقدمته ! هكذا كان شأنك دائما ! . . نازعك عمرو بن العاص إمارة الجيش فأمّرته ، ولما ولى أبو بكر خالدا عليك أطعته ، وإذ وَلَّيتك أنا على خالد حفظته ، وأكرمته !! يرحمك الله يا أخى ، أى رجل كنت !! ولكن ، أين خالد الآن ؟! والله ما عزلته يا عمر عن عجز أو خيانة ، ولكنك رأيت الناس قد فتنوا بانتصاراته ! أوشكوا أن يعتمدوا على عبقريته ، فأحببت أن تعلم الناس أن الله هو الصانع لا خالد ! . . أجل ! فوالله ما عزلته يا عمر عن ريبة فيه ، ولكنك رأيته ينفرد بالرأى ، ويتصرف فى الفىء على غير ما قضيت به ، فيمنح أهل الشرف واللسان من المادحين ، على الرغم من أنك أمرته أن يحبسه على ضَعَفَةِ المهاجرين ، وألا ينفق منه على غيرهم إلا بإذنك ! . . وكان استقلاله هذا يهدد نظام الدولة الناشئة ، ويجافى حسن سياسة أمورها . . لقد توالت الانتصارات من بعد خالد ، فازداد الناس إيمانا بقدرة الله ، بعد أن أوشكوا أن يؤمنوا بخالد من دون الله ! كادوا أن يعبدوه لما عاينوا انتصاراته المعجزة ! فالانتصارات المعجزة تترى بدونه . . فليعلم الناس إذن أن الله هو الغالب ، لا خالد بن الوليد ! (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

والله يا عمر لتفيدن من خالد ، ولتولينه من جديد ، بعد أن أمنت فتنة الناس به ، وبعد أن ردعته ، وألزمته احترام نظام الدولة !

أين خالد الآن ؟! . . فليكن أول ما تعلمه يا عمر حين تأتى المدينة ، وتستريح من السفر ، أن توجه عبقرية خالد لخير الأمة .

فلما استقر عمر فى المدينة شغلته الشواغل ، ولكنه لم ينس ما اعتزمه من تولية خالد . . من يدرى ؟ فربما قاد جيشا فتح به القسطنطينية نفسها عاصمة الروم ! . .

وتمر الأيام والأشهر ، ويمرض خالد ، وتعذبه آلام النفس ، أكثر مما ترمضه آلام المرض فى بدنه . . وها هو ذا يبكى نفسه ويقول : « لقد طلبت الاستشهاد فى مظانه ، فلمْ يَقدَّر لى إلا أن أموت على فراشى ! . . كم من زحف حضرتهُ ! وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة بسيف ، أوطعنة برمح ، أورمية بسهم ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت العَيْر (بفتح العين وسكون الياء : الحمار الوحشى) ، فلا نامت أعين الجبناء ! »

* * *

أصبح حديث الناس : « لا ظلم وعمر بالمدينة » !

فقد عَوَّد عمر رعيته أن ينظر فى كل شكوى ، وأن يحاسب عماله عن كل إساءة أو تجاوز أو تقصير ، بل لقد بلغ إحساس الفاروق بالمسئولية عن كل ما يدب على الأرض التى يحكمها مبلغا عظيما ، عذبه عذابا أليما ، وأرقه ليالى طوالا ، وكم من مرة قال : « لو أن دابة تعثرت بأقصى الأرض ، لسألنى الله عنها يوم القيامة : لِمَ لَمْ أمهد لها الطريق ؟! » . . فإذا كان هذا هو مبلغ شعوره المرهف بالمسئولية عن الدواب ، فكيف بالبشر !؟

ولقد أرهق عماله بالعقاب كلما أساء أحدهم إلى أحد من الرعية ، إذ كان يقتص للمظلوم حتى من نفسه . روى سلمة : « مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السوق ومعه الدرة ، فخفقنى بها خفقة (الخفقة : الضربة الهينة) ، فقال : أَمِطْ (أى أَفْسِحْ) الطريق ، فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال : يا سلمة ، تريد الحج ، فقلت : نعم ، فأخذ بيدى ، فانطلق بى إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم ، وقال : استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك . قلت : يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها ! قال : وأنا ما نسيتها ! . . » .

ولقد أخذ سلمة الدراهم الستمائة ، فأعانته على الحج ، وعلى إصلاح

أمره ، وقد حج عمر فأنفق على حجه نحو مائتى درهم ، فقال أسفا : « لقد أسرفنا فى حجنا هذا » !

وكان حرصه على أن يستغنى الناس ، ويشعروا بالراحة والطمائنينة حرص العائل ، لا الحاكم . . العائل المسئول عن إسعاد كل من يعولهم ، والذى يتولى فى كل نهار وليل حل مشاكلهم ، لا الحاكم الذى يكفيه من العدل فى الرعية أن يحمى القواعد والبمادىء التى تكفل الحقوق والواجبات . .

ولقد عنّاه أمر الرعية ، وأمَضَّه أن يشغل بعض الناس بما أترفوا فيه عن هموم الفقراء من أهل الفضل والسابقة ، وأصحاب الحقوق . . قال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء . . » (الفضول هو ما زاد عن الحاجة) ، (الطبرى) وقال : « لئن بقيت لألحقن أسفل الناس بأعلاهم (الطبقات الكبرى) .

لكم تمنى أن يسعد رعيته ، وأن يوفر الغنى لكل فرد . . !

كان يقول كلما عاتبه الصحابة للإغداق على الناس فى العطاء : « إنى لأرجو أن أكيل لهم المال بالصاع ! . . لأزيدنهم ما زاد المال ، لأعدنه لهم عدا ، فإن أعيانى لأكيلنه لهم كيلا ، فإن أعيانى حسوته بغير حساب ! »

وكان يسأل الرعية عن أميرهم ، كلما لقى أحدا من الأمصار ، ولربما أرسل إليهم ، فأتوه من بعيد ، ليسألهم عن أميرهم وسيرته فيهم ، فإذا قالوا له : « خيرا يا أمير المؤمنين » سأل : « أيعود مرضاكم ؟ » فإذا قالوا : « نعم يا أمير المؤمنين » سألهم : « هل يعود العبد ؟ كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه لحوائج الناس ؟ » فإذا قالوا عن خصلة منها : « لا » عزله من فوره ، وحاسبه على أمواله ، فإن وجده قد أصاب مالا أكثر مما كان يملكه حين تولى ، أخذ نصف هذا المال ، وضمه إلى بيت المال ، لا يبالى أى رجل كان هذا العامل : ولقد صنع هذا مع سعد بن أبى وقاص ، وأبى هريرة ، وغيرهم (الطبقات الكبرى) .

وما كان يحب أن يظلم أحدا من الرعية أو الرعاة ، من أجل ذلك كان يحقق كل شكوى تصل إليه ، وتحريا للعدل كان يجمع عمر بين الشاكين ، والمشكو منه . جمع عاملا وَرِعاً له ، وبعض الشاكين منه ، فلما واجه الشاكون أميرهم قال

لهم عمر : « تكلموا ! » قالوا : « يا أمير المؤمنين لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ! » وقال عمر : « أحق هذا ؟ فإن كان حقا فلماذا ؟ » قال « والله يا أمير المؤمنين ، إنى كنت لأكره ذكر السبب ! ليس لأهلى خادم ، فأنا أعجن معهم عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أختبز خبزى ، ثم أتوضأ ، وأخرج إليهم » . وقال عمر للشاكين : « وماذا أيضا ؟ » قالوا : « لا يجيب أحدا بليل » قال أميرهم : « والله ، إنى لأكره ذكره ! إنى جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل . » قال عمر : « وماذا أيضا ؟ » قالوا : « إن له فى الشهر يوما لا يقابل فيه أحدا ! » قال أميرهم : « ليس لى خادم يغسل ثيابى ، ففى هذا اليوم أغسلها ، وانتظرها حتى تجف ، ثم أخرج إليهم آخر النهار » .

فسر عمر سرورا عظيما بورع عامله هذا ، وأثنى عليه ، واعتذرت الرعية لأميرهم عن سوء ظنهم به ، فلما طلب العامل من عمر أن يعفيه من إمرتهم ، استمسكوا به أميرا عليهم !

وألف الفاروق عمر أن يدعو إليه أمراء الأمصار ليلتقوا به فى موسم الحج ، حيث يضع لهم قواعد التعامل مع الرعية على أساس من العدل ، ورعاية حقوق الإنسان . . وكذلك كان يصنع مع القضاة ، قال للقضاة والولاة : « ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أخفته ، أوحبسته أن يقر على نفسه !! »

وإذن فيجب ألا يَعْتَدُّوا باعتراف أحد على نفسه ، حتى يعرفوا أحواله أثناء الاعتراف ! » .

ثم يقول لهم عن تحقيق تكافؤ فرص الحياة ، والقيام بأمور الرعية : « إنى حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجزنا تَأَسَّيْنا (أى تساوينا) فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف » . . وكان يدعوهم إلى التواضع ، ويحذرهم أن تُغِيِّر الامارة أخلاقهم ، ويقول لهم : « العظمة لله تعالى وحده » .

وفى آخر حجة له ، مر بواد بالقرب من مكة ، فقال وأَسْمَعَ الناس جميعا : « لقد كنت بهذا الوادى أرعى إبلا للخطاب ، وكان فظا غليظا ، يُتْعِبُنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت ، فأصبحت وأمسيت وليس بينى وبين الله أحد أخشاه ، ثم أنشد :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه   والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له   والجن والإنس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت لعزتها   من كل أوب إليها وافد يفد ؟!
حوض هنالك مورود بلا كذب   لابد من ورده يوما كما وردوا

وكان إذا جاءه الخصمان برك على ركبتيه وقال : « اللهم أعِنّى عليهما ، فإن كان واحد منهما يريدنى على دينى ! » .

وجاءه رجل فى موسم الحج ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن عاملك فلانا ضربنى مائة سوط . » وكان عمال عمر جميعا قد اجتمعوا فى الحج كما عَوَّدَهُم ، فقال عمر للشاكى : « قم فاقتص من أميرك ! » فوثب عمرو بن العاص ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن فعلت هذا يكون سنة يأخذ بها من بعدك ! » قال عمر : « لقد رأيت رسول الله يقتص من نفسه ! » قال عمرو : « يا أمير المؤمنين ، دعنا فلنرضه ! » قال عمر : « دونكم الرجل فأرضوه ! » فاجتمع الأمراء على الشاكى ، فما زالوا به حتى قبل من ضاربه مائتى دينار ، كيلا يقتص منه ، أى دينارين لكل ضربة سوط !

ورأى عمر بعض ما أسخطه فقال يعظ الناس : « أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فمن زعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا ، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

« أيها الناس ، أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القباطى ، فإنه إن لم يشف فإنه يصف (القباطى جمع قبطية وهى ثياب رقيقة فاخرة كانت تصنع فى مصر ـ وهى نسبة إلى قبط أى مصرى ، وكانت هذه الثياب فى رقتها تحدد جسد المرأة ، وإن لم تكن شفافة ، وقد تدفقت هذه الثياب على العرب بعد فتح مصر ، وأحبتها نساء العرب فغالين فى استعمالها) .

« أيها الناس إنى لوددت أن أنجو كفافا لا لى ولا على ، وإنى لأرجو إن عمرت فيكم يسيرا أو كثيرا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وألا يبقى أحد من

المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ، ولا يُعْمِل إليه نفسه (أى لا يتعب) ، ولم ينصب (أى يجهد) إليه يوما ، وأصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ، ولَقَليل فى رفق خير من كثير فى عنف . . »

ولاحظ عمر أن بعض الناس يتخذ مجالس خاصة يجعل له فيها أصفياء يقربهم ، ويبعد آخرين ! . . فنصح الناس ألا يفعلوا هذا ، ولكنهم لم ينتصحوا ، فظل يكرر عليهم النصح حتى ملهم وملوه ، فوقف يخطب الناس ، فقال : « أيها الناس ، بلغنى أنكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ؟ من جلساء فلان ؟ حتى تُحوميت (أى هجرت) المجالس ! ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول : هذا رأى فلان ، قد قسموا الإسلام أقساما ! أفيضوا مجالسكم بينكم ، وتجالسوا معا ، فإنه أدوم لألفتكم ، وأهيب لكم فى الناس . اللهم ملُّونى ومللتهم ! وأحسست من نفسى وأحسوا منى . . فاقبضنى إليك ! »

إلى هذا المدى ، ضاق عمر بما رآه من عيوب نبه إليها ، فأصر مقترفوها عليها ! !

ولكنه على الرغم من ذلك ما انفك يعلم الناس : « القوة فى العمل ألا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، والأمانة ألا تخالف سريرةٌ علانية ، واتقوا الله عز وجل ، فإنما التقوى بالتَّوَقِّى ، ومن يتق الله يَقِهْ » .

وجاءه قوم كانوا فقراء ، فأغدق عليهم العطاء ، فأثروا ، فقالوا له : « يا أمير المؤمنين ، كثر العيال ، واشتدت المؤونة ، فزدنا فى أعطياتنا . » قال : « فعلتموها ؟! جمعتم بين الضرائر ، واتخذتم الخدم فى مال الله عز وجل ؟! » .

ورأى استعلاء بعض العرب على أهل البلاد المفتوحة ، وهم الموالى ، وكان بعض الموالى قد أسلم وأتقن اللغة العربية ، وآمن وعمل الصالحات ، وتفقه فى الدين ، بينما ركن بعض العرب ، وبخاصة بعض قريش ، إلى قرابتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم عمر واعظا : « والله لئن جاءت الأعاجم (غير العرب) بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ! فلا ينظر رجل إلى قرابة ، وليعمل لما عند الله ، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه » .

* * *

وكان شديد التحرج . . وقد بلغ به التحرج فيما يحق له ومالا يحقق ، أنه مرض يوما ، فوصفوا له العسل دواء ، وكان فى بيت المال عسل جاء من بعض البلاد المفتوحة ، فلم يتداو عمر بالعسل كما نصحه الأطباء ، حتى جمع الناس ، وصعد المنبر ، واستأذن الناس : « إن أذنتم لى ، وإلا فهو على حرام . » فبكى الناس إشفاقا عليه ، وأذنوا له جميعا ، ومضى بعضهم يقول لبعض : « لله درك يا عمر ! لقد أتعبت الخلفاء من بعدك » .

وإن حرصه على معرفة أحوال كل شئون رعيته ليقلقه ، حتى ليقض مضجعه فى ليال كثيرة ، حذر أن يكون قد قصر أمام الله فى مسئوليته عن الرعية ! . . لكم تمنى أن يتعرف على أحوال كل رجل وامرأة وطفل فى الآفاق !! إن ما يصله عن رعاياه لا يمكن أن يكون تصويرا كاملا لأحوالهم ! . . فما عسى يصنع ليسد كل حاجاتهم !؟ . . لابد له من أن يسافر إلى كل أمصار الأمة ، ليعاين بنفسه كل شىء . . قال : « لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تُقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ ، وأما هم فلا يصلون إلىّ ! فأسير فى الشام ، فأقيم بها شهرين ، ثم إلى الجزيرة (بين الشام والعراق) ، فأقيم بها شهرين ، ثم العراق فأقيم به شهرين ، ثم مصر فأقيم بها شهرين ، ثم البحرين فأقيم به شهرين ، ثم اليمن فأقيم به شهرين ! والله لنعم الحول هذا !! » .

ولكنه لم يستطع . . وما كان يستطيع أن ينظر فى كل أمر بنفسه ، فحسبه شدته على عماله ، واستقراء أحوال الرعية واستقصاء جميع حاجاتها ! . . وإنه ليعلم أن العدل أساس الملك ، وقوام الخلافة الراشدة ، وعصب الإمامة . . من أجل ذلك أحسن اختيار قضاة الأمصار ، ووضع لهم القواعد التى استنبطها بعقله وبصيرته وحسن مشورته من الكتاب والسنة ، وتحرِّى المصلحة العامة التى هى القصد الأسمى للشريعة .

وكثيرا ما كان يمتحن القضاة بنفسه ، وكان شعاره أن يكون الحاكم فى سيرته أسوة للناس ، يجب أن يكون قدوة لهم ! قال : « إذا كنت فى منزلة تسعنى وأعجز عن الناس ، فما تلك بمنزلة » .

من قبل عمر كان الوالى يجمع إلى مسئولية الادارة مسئولية القضاء ، ففصل

عمر بينهما ، فكان أول من ولى القضاة على الأمصار ، وخصصهم للقضاء فحسب ، وفصلهم عن الولاة . .

وكان يختار القضاة اختيارا دقيقا صعبا ، بعد أن يكابدهم ويكابدوه ، ويحاورهم ويحاوروه ، وكان أول من عينه قاضيا على بن أبى طالب ، قال له : « يا أبا الحسن ، شَمِّرْ وتجرد للقضاء . » . . فإذا كان علىٌّ طرفا فى خصومة تولى عمر نفسه القضاء فيها .

شكا رجل عليا إلى عمر ، رضى الله عنهما ، فلما جلس عمر لينظر فى الدعوى قال لعلى : « ساو خصمك يا أبا الحسن » فتغير وجه على ! وقضى عمر فى الدعوى ، ثم قال لعلى : « أغضبت يا أبا الحسن لأنى سويت بينك وبين خصمك ؟ » فقال على : « بل لأنك لم تسو بينى وبين خصمى يا أمير المؤمنين ، إذ كَرّمتنى فناديتنى : يا أبا الحسن ، بكنيتى ، ولم تناد خصمى بكنيته . »

فقبل عمر رأس عَلِىٍّ ، وقال : « لا أبقانى الله بأرض ليس فيها أبو الحسن . لولا عَلِىٌّ لهلك عمر . »

وكان عمر يختار القاضى على أساس كفاءته ، وحسن بصره بالأمور ، وفقهه بالأحكام ، وقدرته على الاستنباط ، لا يبالى بعد ذلك أعربيا كان أم كان أصله غير عربى .

فقد ولّى شريحا قضاء أحد الأمصار ، وشريح من أولاد الفرس ، وما ولّاه عمر إلا بعد أن امتحنه ، فأعجبه . . ذلك أن عمر اشترى فَرَساً ، وأخذه ليجربه ، فلما ركبه وانطلق به اشتد عليه ، فعرج الفرس ، فأراد عمر أن يعيد الفرس ، فأبى البائع ، وطالبه بثمن الفرس ، وبالغ الرجل فى الثمن ، فأبى عمر ، وقال له : « فاجعل بينى وبينك حكما » فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين ، أجعل بينى وبينك شريحا العراقى » . فلما سمع شريخ قوليهما ، قال لعمر : « يا أمير الؤمنين ، أخذته صحيحا سليما على سَوْم (تقدير الثمن) ، فعليك أن ترده كما أخذته . »

فأعجبه ما قال ، وبعث به قاضيا على الكوفة ، وقال له : « ما وجدتّه فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم تستبن فى كتاب الله فالزم السُّنَّة ، فإن لم يكن فى السنة ، فاجتهد رأيك . . ولا تشتر ولا تبع » !

وشريح هذا هو الذى قضى على الإمام على وهو خليفة ! . . ذلك أن درعه

ضاع منه ، فبينا يسير فى أحد طرقات الكوفة إذ درعه مع رجل يهودى ، فقال على : « يا يهودى هذا درعى » فقال اليهودى : « ما أدرى ما تقول ! درعى وفى يدى ، بينى وبينك قاضى المسلمين . » وكان شريح هو القاضى ، فانطلقا إليه ، فقال على : « درعى عرفتها مع هذا اليهودى . » فقال شريح لليهودى : « ما تقول ؟ » قال : « درعى وفى يدى » ، فكرر علىٌّ إنها لَدِرْعُه ، فقال شريح : « صدقت والله يا أمير المؤمنين ، إنها لدرعك كما قلت ، ولكن لابد من شاهد » . فدعا الإمام علىٌّ قنبراً غلامه فشهد له ، ودعا ابنه الحسن فشهد له ، فقال شريح : « أما شهادة مولاك قنبر فقد قبلتها ، وأما شهادة ابنك لك ، فلا » قال على : « سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . » قال شريح : « اللهم نعم » قال : « أفلا تجيز شهادة أحد سيِّدَىْ شباب أهل الجنة ؟! » ولكن شريحا سلم الدرع لليهودى ، إذ أصر على ألا يقبل شهادة ابن لوالده . فلما رأى اليهودى ذلك قال : « أمير المؤمنين مشى معى إلى قاضيه ، فقضى عليه ، فرضى به ! صدقت يا أمير المؤمنين ، إنها لدرعك ، سقطت منك يوم كذا وكذا عن جمل أَوْرَق (رمادى) فالتقطتها ، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فقال على له : « هذه الدرع لك » . .

وقد أمر عمر الولاة والقضاة بالتسوية بين العرب والموالى ، ذلك أنه لاحظ نعرة تعصب للعرب تشرئب ، وتكاد تظلم المسلمين الجدد من الأعاجم . . وقد عنى عمر بالسؤال عن هؤلاء الموالى . . ولقد أرسل إلى القادسية يستنشىء أخبار الموالى فيها وفيما حولها من بلاد فارس والعراق ، فعاد رسوله فقال له : « تركت الناس هناك يسألون الله تعالى لك أن يزيد فى عمرك من أعمارهم ! فما وطىء أحد تلك الأرض إلا وعطاؤه ألفان ، وما من أحد ذكرا كان أم أنثى إلا فرض له رزق » فقال عمر : « إنه حقهم ، وأنا أسعد بأدائه إليهم » .

وكتب إليه أحد عماله : « قد أعطينا الناس أعطياتهم وأرزاقهم ، وبقى شىء كثير فما نصنع به يا أمير المؤمنين ؟ » فكتب إليه : « إنه فيئهم الذى أفاء الله عليهم ، ليس لعمر ولا لآل عمر ، فاقسمه بينهم » .

وشكا إليه بعض الموالى أن أميرهم قد ميز عليهم العرب فى العطاء ، مخالفا أمر أمير المؤمنين بالتسوية بين العرب والموالى ، فغضب عمر وأرسل إليه

ينذره بالعزل إن عاد إلى ذلك مرة أخرى ! وكان فيما كتبه لعامله هذا : « أما بعد ، فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

وكما أخذ على الولاة شروطا ، حاسبهم على الخروج عنها حسابا عسيرا ، ووضع قواعد للقضاة ليلتزموها فى القضاء ، وهى قواعد استنبطها من نصوص الشريعة وروحها ومقاصدها العامة ، لقد سمع قوله تعالى : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ، فمضى يتأمل العدل ، ما هو ، وكيف يحققه ؟! . . وكان يجلس متربعا ، ويضع قدما على قدم ويسند ظهره إلى شىء ، يتأمل ، ويتفكر .

وقد تعود الفاروق عمر أن يكتب كتابا على كل عامل يستعمله أميرا على الناس ، ثم يشهد عليه شهودا من الناس ألا يفعل أربعة أشياء : ألا يركب مركبا يختال به على الناس ، ولا يأكل نقيا دون الرعية ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجات الناس ، فلا يجعل لقصره بابا يمنع الناس من دخوله ، وينفيهم به عن حقوقهم ، حتى يستطيعوا أن يوافوا مجلسه إذا جلس . ثم يقول : « اللهم فاشهد » .

أما القضاة فقد أمرهم بالتزام خمسة مبادىء : أولها : المساواة بين الناس ، والثانى : أن يقيم المدعى الدليل ، وعلى من أنكر أن يحلف ، والثالث : أن يتحرى الحق وحده ، ولو تبين له الحق بعد قضائه ، عدل عن قضائه ، وعاد إلى الحق ، والرابع : تعقل المسائل قبل الفصل فيها ، والخامس : حسن القياس ، وإعمال الرأى فيما ليس له حكم فى الكتاب ، ولا فى السنة ، ولا الإجماع .

وقد وضع هذه المبادىء فى خطابه الشهير إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، وفى خطابات ووصايا أخرى لغيره ممن ولاهم القضاء ، ولكن كتابه إلى أبى موسى هو دستور القضاء . .

كتب عمر إلى أبى موسى : « أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدْلِىَ إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

« آسِ الناس (أى سَوِّ بين الناس) فى مجلسك وفى وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف فى حَيْفَك (ظلمك خصمه وانحيازك له) ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

« البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحلّ حراما أوحَرّمَ حلالا . .

« ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك ، فهُديت فيه لرشدك ، أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مُجَرَّبا عليه شهادة زور ، أومجلودا فى حد ، أوظنينا فى ولاء ، أوقريبا . .

« ثم الفهَم الفهَم فيما أُدْلِيَ إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة . . .

« ثم قايس الأمور عند ذلك وأعرف الأمثال (أى قس ما ليس له حكم فى الكتاب ولا السنة على ماله حكم ما دام على مثاله) ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق ، وإياك والغضب والقلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتنكر عند الخصومة أو الخصوم ، فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ، ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته فى الحق ولوعلى نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله ، فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصا ، فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ ! والسلام عليكم ورحمة الله » .

وقد أوجز الفاروق مبادىء القضاء الخمسة فى كتاب أرسله إلى أحد الصحابة ، كتب إليه فى واجبه عندما يقضى بين الناس : « الزم خمس خصال يسلم لك دينك ، وتحظ بأفضل حقك :

« إذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول ، والأَيْمانِ القاطعة .

« ثم أَدْنِ الضعيف حتى ينبسط لسانه ، ويجترىء قلبه .

« وتعاهد الغريب فإنه إذا طال انتظاره ترك حاجته وانصرف إلى أهله ، وإذا الذى أبطل حقه من لم يرفع به رأسا .

« واحرص على الصلح ما لم يبين لك القضاء . والسلام » .

وقد كان عمر يشرح لمن يوليه القضاء طرق استنباط الأحكام ويزوده بتجاربه العديدة الخصبة . قال لرجل ولاه القضاء : « إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتنك عنه الرجال ، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ، ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ، ولم يكن سنة رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فاختر أى الأمرين شئت : إن شئت أن تجتهد برأيك وتتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تتأخر فتأخر ، ولا أرى التأخر إلا خيرا » .

هكذا كان الفاروق يعلم القضاة استنباط الأحكام من القرآن أولا ، ثم السنة ، ثم الاجماع ، ثم الاجتهاد بالرأى وذلك باستعمال القياس ، وتحرى المصلحة وأهداف الشريعة ومقاصدها ، ونحو ذلك .

* * *

استطاع الفاروق أن يحقق للرعية ما يريد لها من حسن الرعاية ، والغنى ، فقد كثرت الأموال ، وراجت التجارة ، ثم إنه استطاع أن ينشر دين الله فى البلاد التى يعرفها أهل زمانه ، فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا منذ عاينوا كفالة الإسلام للحرية الدينية ، والحرية العقلية . . ذلك أن حكام المسلمين لم يُكرهوا الناس حتى يكونوا مسلمين ! . . وها هو ذا البطريق بنيامين يعود من مخبئه فى دير قوص ، إلى الكنيسة بالاسكندرية يمارس طقوسه الدينية كما يشاء ، ويعلن على الدنيا : « عدت إلى بلدى الاسكندرية ، فوجدت بها أمنا من الخوف ، واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » .

ولقد قال أحد الذين شاهدوا فرح رعايا الفرس والروم لما حررهم الفتح الإسلامى من بطش الأكاسرة والقياصرة . . قال شاهد ذلك العصر : « إنهم فرحوا إذ أطلق المسلمون قيودهم كما تفرح الحملان الصغيرة حين تُطلق لترضع ألبان الأمهات ! » .

وها هو ذا أحد رعايا الروم يقول : « ما خرج الروم من الأرض ، وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالبلاد التى حكمها من الاضطهاد » . .

وفى الحق إنه ما من أحد دخل فى الإسلام هربا من الجزية ، فقد كانت الجزية قدرا ضئيلا من المال فى طاقة كل من فرض عليه ، ولكن أبناء البلاد المفتوحة وبعض الروم والفرس اعتنقوا الإسلام إيمانا بمبادئه ، وإعجابا بالمسلمين الذين لاقوهم وعاملوهم ، وإكبارا لما يدعو إليه الإسلام من إعمال الفكر ، واحترام العقل ، والدعوة إلى التأمل فى الكون ، وكفالة حرية الرأى ، وحرية الاختيار ، ودعوته إلى المساواة بين الناس ، فلا فضل لعربى على عربى ، ولا أحد على آخره ، إلا بعمله !

* * *

وما زال الناس يستفتون عمر ، وهو على عهده فى استنباط الأحكام ، فإذا وجد فى ظواهر النصوص الحكم الواضح المبين المناسب طبقه ، فإن لم يجد أخذ الحكم من معقول النص ، وذلك بأن تكون النصوص التى تتضمن أحكاما لها علل واضحة ، أو من الممكن استنباطها ، والأمر المطلوب استنباط حكمه تتوفر فيه العلة نفسها ، فيطبق عمر حكم هذا على هذا . . أى اجتهد رأيه ، فاستعمل القياس ، أو نظر فى الأهداف العامة للشريعة ، واستنبط حكما يتحرى فيه المصلحة ، ولو خالف ظاهر النصوص . .

من ذلك أنه برّأ قاتلا تعمدّ القتل ، على الرغم من أن ظاهر النص القرآنى يقضى بقتله قصاصا منه . . لأن الفاروق رأى فيما اقترفه القاتل دفاعا شرعيا عن العرض وقد استنبط أن الدفاع عن العرض كالدفاع عن النفس ، ومن مات دون عرضه فهو شهيد ، كما تعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد دخل أحد أهل المدينة على امرأته ، فوجد فى فراشها رجلا ، فقتله ، وخرج حتى أتى عمر وهو يأكل ، فدعاه عمر فأكل معه ، فجاء أولياء المقتول ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، هذا الآكل معك قتل صاحبنا » . فسأل عمر ضيفه : « أكذلك هو ؟ » قال : « نعـم يا أمير المؤمنين ، دخلت على امرأتى فإذا هو قاعد منها مقعدى ، فقتلته » قال عمر : « أحسنت ! » .

ومن ذلك أن عامله على اليمن ، وجد اثنين قتلا واحدا ، فلم يعرف بما يقضى ، فأرسل يسأل عمر الرأى . . ونظر عمر ، فوجد النص الذى يتضمنه

الحكم هو قوله تعالى فى سورة المائدة : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن . والجروح قصاص) ثم وجد نص الآية : (ولكم فى القصاص حياة) . . وتوقف عمر ، فالنصوص التى أمامه تقضى بأن يُقتل الواحد بالواحد ، ولكن ما حكم أكثر من واحد يقتلون واحدا ؟ ! . . وكان عمر قد ألف أن يشاور عليا ، وكانا صديقين حميمين يكاد الواحد منهما لا يفارق أخاه . . وكثيرا ما كان عمر يقول عندما يعرض له أمر ولا يجد عليا ليستشيره : « قضية ولا أبو الحسن لها ! » ، وكم من مرة عدل عمر عن رأى بعض الصحابة إلى رأى عَلِىّ ! . . وكان يهتف حين ينشرح صدره لرأى عَلِىّ : « لا أبقانى الله بأرض ليس فيها أبو الحسن ! » وكان علىٌّ يبادله هذا الحب وهذا التقدير ، فكان دائما يقول : « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ! وما كنا نبعد أن السكينة (الإلهام) تنزل على لسان عمر » . . (الاستيعاب) . على الرغم من أنهما اختلفا فى بعض الفتيا .

سأل عمر عليا فى أمر اثنين قتلا فردا ، فقال على : « يُقتلون به » ولم يسترح عمر لهذا الرأى أول الأمر ، فقال : « كيف ؟ ! » فقال على : « أرأيت يا أمير المؤمنين لو أن اثنين سرقا ألا تقيم عليهما الحد » ، قال عمر : « بلى » . قال على : « فكذلك القتل يا أمير المؤمنين ! » فانشرح صدر عمر لاجتهاد على ، وأرسل عمر إلى عامله فى اليمن : « أقتل القاتلين ، فلو اشترك أهل صنعاء كلهم فى قتل رجل واحد لقتلتهم كلهم به ! » .

وكان عمر يتأمل كثيرا فى أحوال الرجال والنساء ، فإذا خلصت تأملاته إلى عبرة تفيد الناس ، أسرع إليهم فأذاع ما ارتآه قبل أن يسأله أحد ، قال : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه من بعده » .

وقال عن الرجال والنساء : « الرجال ثلاثة : رجل عاقل ، إذا أقبلت الأمور وتشابهت ، يُؤتمر فيها بأمره وُينزل عن رأيه ، وآخر حائر لا يأمر راشدا ، ولا يطيع مرشدا ، وثالث يتبع هذا تارة ، وذاك تارة .

« والنساء ثلاث : امرأة هينة لينة ، عفيفة مسلمة ، ودود تعين أهلها على الدهر ، وقلما تجدها ! وأخرى وعاء للولد لا تزيد عن ذلك شيئا ، والثالثة تغل غلا يحملها الله فى عنق من يشاء ، وينزعه إذا شاء ! » ثم حذر الرجال من امرأة حسنة

المنظر ، سيئة العشرة ، سليطة اللسان ، فهى عذاب زوجها ، يذهب قبح كلامها بحسن شكلها ! » .

وقد كان عمر يبدأ فى تعامله مع الناس بإساءة الظن ، فهو يرى سوء الظن من حسن فطنة الحاكم ، فإذا أضر سوء الظن بأحد اعتذر إليه عمر ، وطالبه بأن يقتص منه . . رأى مرة رجلا وامرأة يتحدثان فى مكان مظلم ، وهو يعس ليلا ، فأمسك بالرجل ، وأنذره بعذاب شديد إذا كان الغد . . فلما كان الغد ، وحقق الأمر كعادته قبل أن يعاقب ، تبين له أنهما زوجان أمضّهما حَرُّ بيتهما ، فخرجا إلى الطريق يلتمسان طيب الهواء . . فاعتذر لهما ، وسألهما أن يقتصا منه ، فأبيا ، وقالا له : « إنما أنت مؤدِّب يا أمير المؤمنين » .

وأتعبه أهل الكوفة ، فقال : « أعيانى أهل هذا المصر ، إن وليت عليهم لينا استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديدا شكوه ! ولوددت أنى أجد رجلا أمينا . » فأشار عليه أحد الحاضرين بأن يولى عليهم عبد الله بن عمر ، فضربه عمر ، وقال له : « ما أردت وجه الله بل مقاربتى ! » .

وفى بعض الأحايين كان يفكر فى أحوال عماله ، ويقول : « أشكو إلى الله جَلَدَ الخائن وعجز الثقة ! » .

وكتب يوما إلى أبى موسى الأشعرى : « إن كاتبك لَحَنَ ، فاضربه سوطا ! » . . وكتب إليه كاتب عمرو بن العاص رسالة من عمرو ، فكتب بسم الله ، ولم يكتب السين فى بسم ، فكتب عمر إلى عمرو أن أضربه سوطا ، فضربه ، فقيل للكاتب : « فى أى شىء ضربك ؟ » قال : « فى سين ! » .

ورأى الناس يلحون فى السؤال عن أشياء لم تكن ، ويفترضون فروضا ، وأوشك الناس أن يختلفوا ، فصعد عمر المنبر ، فقال : « أُحُرِّجُ بالله على كل امرىء سأل عن شىء لم يكن ، فإن الله قد بين ما هو كائن » .

* * *

كان عمر فى حرصه على إشاعة العدل ، لا يبالى بأصدقائه الذين يحبونه ويحبهم ، فقد كان يقول عن بلال سيدنا ، ولكنه طلب منه أن يتنازل عن بعض

ما أقطعه إياه الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما تغيرت الظروف ، وقال له : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك لتحجز عن الناس ، وإنما أقطعك لتعمل ، فخذ ما قدرت على عمارته ، ورد الباقى » .

وقد حرم عمر بعض أصدقائه من مزايا كانوا قد حصلوا عليها فى عهد أبى بكر الصديق ، ولكن تغير ظروف الحياة ، غَيّر مقاييس العدل ! . . من ذلك أن المراعى التى كانت ترعى فيها إبل الصدقة وماشيتها وشاؤها ، كانت مباحة لمن شاء يرعى فيها ماشيته .

فلما تكاثر ما يملكه بيت المال ـ أى تملكه الدولة ـ من قطعان ، كتب عمر إلى عامله على هذه المراعى ، وكانت تُسَمّى الحِمىَ ، قال : « أدخل رب الصريمة (صاحب الإبل القليلة) ، ورب الغنيمة (أى صاحب الغنم القليلة) ، ودعنى من أنعام ابن عفان وأنعام ابن عوف ، فإنهما إن هلكت ماشيتهما رجعا إلى نخل وزرع ، وإنْ هذا المسكين هلكت ماشيته جاء يصرخ : يا أمير المؤمنين ! » .

ومن أجل صيانة العدالة فى المجتمع ، ولكيلا يستغل أحد حاجة الآخرين ، سَعّر عمر البضائع ، ليقضى على جشع بعض التجار ، وليحمى الفقراء من تلاعب غيرهم فى أقواتهم للإثراء على حسابهم ، وعاقب التجار المخالفين للتسعير عقابا أليما ، وأوشك أن ينزل بهم عقاب المفسدين فى الأرض وهوالقتل ، ولكنهم التزموا التسعير ! .

وقد أقام سياسته على الأسس التى استنبطها من الكتاب والسنة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . لا بأس بالغِنَى لمن اتقى . . أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس . . تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم . . . لا يُعبد الله بمثل عمل صالح . . من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم ، كان حقا على الله تعالى أن يقعده فى النار يوم القيامة . . لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . . . . يسألونك ماذا ينفقون قل العفو (والعفو هو كل ما زاد عن الحاجة) . . والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . . كاد الفقر أن يكون كفرا . . إن فى المال حقا غير الزكاة . . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل

المشرق والمغرب ولكن البر من امن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة . . كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . . آتوهم من مال الله الذى آتاكم . . اعدلوا هو أقرب للتقوى . . إذا بات مؤمن جائعا فلا مال لأحد . . من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له (ثم عدد النبى صنوف المال) . . . . إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أوقل طعام عيالهم فى المدينة ، حملوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموا بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم . . . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم . . أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » .

على هذه الأسس من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وما يعرفه العقل من العدل بالضرورة ، أراد الفاروق أن يقيم المجتمع الجديد : المحبة والتعاون والتراحم توثق العلائق بين أفراده ، بدلا من البغضاء والتحاسد والتناحر . . ولقد اعتقد عمر مع على : « أن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم » . . فعمل عمر لكى يبلغ كل فرد فى المجتمع حد الكفاية . . أى أن يملك كل فرد ما يكفى احتياجاته ، ويوفر له الحياة الكريمة المطمئنة ، وفى الحديث الشريف « أى قوم بات فيهم امرؤ جائعا ، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » .

وعلى هذا الأساس وضع عمر قواعد العطاء : بقدر ما يكفى الحاجة . وكان يقول دائما : « إنى حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجزنا تَأَسَّينا (أى تساوينا) فى الكفاف (والكفاف هو الحد الأدنى للمعيشة ، وهو غير الكفاية التى هى الإشباع والراحة وإتيان كل امرىء ما يكفى حاجاته من الغذاء والكساء والمسكن والمركب وسائر ما يكفى حاجاته المادية والروحية) ، وصيانة النفس فى كفايتها . .

ولقد آمن عمر بأنه ما من سَرَفٍ إلا وبجواره حقٌ مَضيّع ، كما صَحَّ عنده كما صح عند على رضى الله عنهما أنه : « ما جاع فقير الا بما شبع غنى » .

ولم تكن مشكلة عمر هى قلة المال أو الموارد ، فالموارد كثيرة ، والمال كثير ، وانما كانت مشكلته هى عدالة التوزيع ، فذهب هو وعليٌّ إلى أن : « الله فرض على الأغنياء ما يكفى فقراءهم » .

ولقد كان الفاروق يعظ الأغنياء بقوله : « إذا أعطيتم فأَغْنُوا » . . وكان عمر يذكر الناس دائما بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » قيل : « أيعدلان يا رسول الله ؟ » قال : « نعم » .

دُعِى عمر إلى مأدبة وهو فى الشام ، فوجد فى المأدبة من الطعام ما لم ير مثله من قبل ، ، قال : « هذا لنا ، فما لفقراء المسلمين ؟ ! » قالوا : « لهم الجنة ! » قال : « إن كان هذا هو حظنا ، ويذهب هؤلاء إلى الجنة ، فقد فازوا فوزا عظيما ! » .

قدم عمر الشام على جمل أورق (رمادى) ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ، ولا عمامة ، رجلاه بين شعبتى رحله بلا ركاب ، وِطاؤه من صوف ، هو ركابه إذا ركب وفراشه إذا نزل ، حقيبتُه شَمْلة (كساء) سوداء محشوة ليفا ، هى حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، عليه قميص من قطن قد بلى ، تظهر به الرقع . . وتلقاه معاوية بن سفيان عامله على دمشق فى موكب عظيم . فلما رآه معاوية نزل من على صهوة جواده ، ومشى إليه ، وقال : « السلام على أمير المؤمنين » ، فمضى عمر ، ولم يرد عليه سلامه ، ومعاوية يسرع خلف جمل عمر ، وكان معاوية سمينا ، فلهث . فقال عبد الرحمن بن عوف : « يا أمير المؤمنين ، أتعبت الرجل ، فلو كلمته ! » فالتفت إليه عمر وقال : « يا معاوية ، أأنت صاحب الموكب الذى أرى » قال : « نعم يا أمير المؤمنين » قال عمر : « مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ » قال معاوية : « نعم يا أمير المؤمنين » قال : « لِمَ ويحك ؟ ! » قال معاوية : « لأننا بلاد كثر بها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العُدَّة والعدد ، استخف بنا ، وهجم علينا ! وأما الحجاب فإننا نخاف من الابتذال جرأة الرعية . وأنا بعدُ عاملك ، إن استوقفتنى وقفت ، وإن نهيتنى انتهيت ، يا أمير المؤمنين » قال عمر : « ما سألتك عن شىء إلا خرجت منه ، إن كنت صادقا فإنه رأى لبيب ، وإن كنت كاذبا فإنها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك ! » وانصرف عنه .

* * *

وجاء إلى الفاروق من ينبئه أن خالدا فى سكرة الموت . . وإنه ليتهيأ للذهاب إليه ليعوده ، إذ أقبل من يقول : « يا أمير المؤمنين ، إن نساء المدينة يبكين خالد بن الوليد ، ألا تنهاهن ؟ » وإذ علم عمر بموت خالد بكى أحر بكاء ! . . وقالوا له : « ألا تسمع بكاء النساء ؟ ! ألا تنهاهن يا أمير المؤمنين » قال : « وما على نساء قريش أن يبكينه ؟ ! . على مثله تبكي البواكى ! » ثم قال : « قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق ! ليته بقى ما بقى فى الحمى حجر ! كان والله سدّادا لنحور العدو ، ميمون النقيبة (أى مبارك النفس) . . . رحم الله أبا سليمان ! . . ما عند الله خير مما كان فيه ، ولقد مات فقيدا ، وعاش حميدا ! » فقال له على : « فلم عزلته » قال : « ندمت على ما كان منى ! » .

وجاء أبو الدرداء إلى عمر فعزاه فى خالد ، ثم قال : « يا أمير المؤمنين ، دخلت على خالد فى مرضه الذى مات منه ، فقال لى : يا أبا الدرداء ، لئن مات عمر لترين أمورا تنكرها ! فقلت له : وأنا والله أرى ذلك ، فقال : لقد وجدت عليه (يعنى غضبت منه) فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا ، وحضرنى من الله حاضر ، عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت قد وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلىّ من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل ، وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ، ومن شهد بدرا ، وكان يغلظ عَلَىّ ، وكانت غلظته على غيرى نحوا من غلظته عَلَىّ ، وكنت أُدِلُّ عليه بقرابة ـ فأنا ابن عم أمه ـ فوجدته لا يبالى قريبا ، ولا لومة لائم فى الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، . . » .

وفتحوا وصية خالد بعد موته فوجدوا فيها : « وقد جعلت وصيتى وتركتى وإنفاذ عهدى إلى عمر بن الخطاب » فبكى عمر ، فقال له طلحة : « إنك واياه لكما قال الشاعر :

لا أَلْفَينَّك بعد الموت تندبنى ... وفى حياتىَ ما زوَّدتنى زادى !

* * *

كان رستم القائد الفارسى بطلا أسطوريا عند قومه ، وحتى عند عدوه من العرب ، وكان محاربا يجمع قوة البأس ، وسعة الحيلة والجسارة ، ولكن العرب

هزموه آخر الأمر . . قال رستم بعد إحدى المعارك التى فَرَّ فيها من أمام العرب ، حين باغتوه بفنون من الحرب والشجاعة ، لم يكن يتوقعها من قوم فقراء أَلِفَ الفرس أن يسودوهم . . . قال رستم : « إنه هو عمر بن الخطاب الذى يكلم الكلاب فيعلمها العقل ! (يعنى بالكلاب العرب) . . . أكل عمر كبدى ، أحرق الله كبده ! » . . ثم قتل رستم فى المعركة ، قتله رجل من غمار الناس ، وعاش حقد الفرس على عمر . . !

قال الهرمزان القائد الفارسى وهو يستنهض مَلِكَ الفُرْسِ لمعركة فاصلة يكسر بها العرب : « إن محمدا لم يهددنا ، وما هددنا أبو بكر ، ولكن عمر يضربنا فى بيت ملكنا ، ويفتح بلادنا عنوة ! » ثم أُسِرَ الهرمزان ، وجىء به إلى المدينة ، ثم أسلم . . ولم ينس لعمر أنه ثَلّ عرش الأكاسرة ، واستولى على دولة الفرس ، وأذل كبرياء عظمائهم . .

وبعد غزوة نهاوند ، نظر أبو لؤلؤة المجوسى إلى الأسرى والسبايا من عظماء الفرس ، وبنات ملوكها وأمرائها ، فبكى قومه . . ومضى يربت على رءوس الولدان من بنى وطنه . ويهمس بصرخة رستم : « أحرق عمر كبدى ، أحرق الله كبده ! » .

لم يكره الفرس أحدا كما كرهوا عمر بن الخطاب ، فلم يكسرهم أحد فى كل تاريخهم كما كسرهم عمر ، حتى لقد أوطأ خيله محاريب دولتهم ، وعروشهم !

ولم يكن عمر غافلا عما يحتدم احتداما ، ويضطرم اضطرابا فى قلوب الفرس ! ! ولم يخطئه صدق شعوره باضطغانهم ، وأحقادهم على العرب . . فلم يأذن بدخول المدينة لبالغ منهم ، إلا للذين أسلموا وحسن إسلامهم ، حتى كتب له المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة يذكر له شابا منهم ، اتخذه غلاما ، ويستأذنه فى دخول هذا الشاب ، ويدعم استئذانه بزعمه أن هذا الشاب صانع ماهر سينتفع بمهارته أهل المدينة ، قال المغيرة : « إن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس ، فهو حداد ونجار ونقاش » .

فأذن له عمر . . فما كان عمر يحظر على غير المسلمين إطلاقا دخول المدينة ، ولكن حظر ذلك على من بلغ الحلم من الفرس وحدهم ، لأنهم كانوا

مجوسا يشركون بالله ، ويعبدون النار ، وكانوا قد ألفوا منذ الجاهلية الاستعلاء على العرب ، فلما فتح العرب بلادهم ، امتلأت قلوبهم حقدا على العرب ! . .
وما كان عمر يحرم دخول المدينة على الروم ، أو القبط ، فهم نصارى أهل كتاب .

وقد تعلم عمر من القرآن أن أقرب الناس مودة للمسلمين هم النصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . .

وقد روى غلام عمر الرومى النصرانى : « كنت عبدا مملوكا لعمر بن الخطاب ، وكان يقول لى : أَسْلِمْ ، فان أسلمتَ استعنتُ بك على أمانة المسلمين ، فأبيت ، فقال لى عمر : لا إكراه فى الدين ! وظل يرعانى ويكرمنى » .

ولما قدم المغيرة بغلامه المجوسى أبى لؤلؤة ، جعل عليه ضريبة شهرية ، مقابل ما يكسبه من أعمال كثيرة مربحة ، فهو صانع ماهر : حداد ، نجار ، نقاش . وأبو لؤلؤة كغيره من الفرس لا ينسى لعمر يوم أنهى دولتهم إلى آخر الزمان . كان ذلك يوم حالف كسرى يزدجرد ملك الترك وملك التتار ، وساروا جميعا إلى المسلمين ، فهزمهم المسلمون ، فتخلى عن كسرى من كان يرجو النصر منه ، فلم يدر أين يذهب ! وانتهى به الأمر إلى الاستنجاد بملك الصين ، فجعل ملك الصين يسأل رسول كسرى عن هؤلاء المسلمين ، ورسول كسرى يحدثه عن تفانيهم فى الحرب ، وإقدامهم على الموت طمعا فى الجنة . فكتب ملك الصين إلى كسرى : « إن هؤلاء القوم الذين وصفهم لى رسولك لو يحاولون الجبال لهدّوها ، ولو جئتُ لنصرك أزالونى ما داموا على ما وصف رسولك ، فسالِمْهم ، وارض منهم بالمسالمة . . ! » .

لن ينسى أحد من الفرس ما حدث بعد ذلك ! بقى كسرى مقهورا ، محسورا ، ذليلا ، يحسب كل صيحة عليه ، يمزقه اليأس والضياع . .

فخطب عمر ، فقال : « الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر جنده ، ألا وإن الله قد أهلك ملك المجوسية ، وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضير بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم ديارهم وأموالهم وأبناءهم ، لينظر كيف تعملون ، فقوموا فى أمره عَلَى وَجَل ، يُوفِ لكم بعهده ، ويُؤتكم وعده ،

لا تغيّروا يستبدل قوما غيركم ، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتَى إلا من قِبَلِكم ! » .

لقد سمع الهرمزان هذه الكلمات ، وصكت أذنيه ، ومزقت قلبه ، وأحرقت كبده ! كما أثارت حقد أبى لؤلؤة المجوسى على عمر ! !

خرج عمر إلى الحج فى العام الثالث والعشرين للهجرة ، بعد نحو عشر سنين وخمسة أشهر من توليه الخلافة ، فحجَّ بزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نفر من منى ، كَوَّمَ كومة ، فألقى عليها طرف ردائه ، ثم جثا لركبتيه ، ودعا الله جاثيا : « اللهم ، كبرت سنى ، وضعفت قوتى وانتشرت رعيتى ، فأقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط » .

وقبل أن يغادر عمر مكة أمر أهلها ألا يؤجروا بيوتا للحجاج ، بل فليستضيفوهم ، وأمرهم أن يتركوا أبوابهم مفتوحة خلال موسم الحج . . ثم عاد عمر إلى المدينة ، فلقى فيها حذيفة وعثمان بن حنيف قادمين من العراق ، فقال لهما : « كيف فعلتما ؟ أخاف أن تكونا حَمَّلْتُمَا الأرض ما لا تطيق ! » قالا : « لا يا أمير المؤمنين ، حَمَّلْنَاها أمرا هى له مُطيقة » . (يريدان الخراج أى الضريبة) قال عمر : « لئن سلّمنى الله ، لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبدا ! » .

* * *

أقبل أبولؤلؤة المجوسى غلام المغيرة على عمر فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن المغيرة قد أثقل عَلَىّ . يأخذ منى كل يوم أربعة دراهم ! » قال له عمر : « ماذا تحسن من العمل » . قال : « حداد ونجار ونقاش » . وسأله عما يكسبه كل يوم ، فلما أجابه ، قال له : « ما خراجك بكثير على عملك الذى ذكرت » فقال أبولؤلؤة : « يا أمير المؤمنين ، كَلِّم المغيرة يخفف عنى » قال : « اتق الله ، وأحسن إلى مولاك ! » وفى نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه ، فيخفف عنه ، فانصرف أبو لؤلؤة متذمرا مزمجرا وهو يقول : « وسع النَاسَ كلَّهم عدلُه غيرى ! » .

فصنع العبد خنجرا لا تعرفه العرب ، له رأسان ، ومقبضة من وسطه ، وشحذه ، وسَنَّه ، ثم أتى به الهرمزان وهو جالس مع جُفَيْنَة ، فقال : « ما رأيك فى هذا الخنجر ؟ » فقلّب الهرمزان الخنجر فى يده ، ومر عبد الرحمن بن أبى بكر بهم ، فاضطربت يد الهرمزان وحاول أن يخفى الخنجر عن عينى ابن أبى بكر ، وسقط الخنجر على الأرض ، فلما ذهب عبد الرحمن ابن أبى بكر ، قال الهرمزان : « يا لؤلؤة ، أرى أنك لا تضرب بهذا الخنجر أحدا إلا قتلته ! » ومر عبد الرحمن بن عوف بهم ، فرأى ما رآه ابن أبى بكر .

وفى اليوم التالى كان عمر يسير بصحبة علىٍّ رضى الله عنهما ، فلقيا أبا لؤلؤة ، فقال عمر : « يا أبا لؤلؤة ، زعموا أنك تصنع الأرحاء ، ألا تصنع لنا رحى ؟ » قال أبو لؤلؤة : « بلى يا أمير المؤمنين ، أصنع لك رَحًى يتحدث بها أهل الأمصار ! » وانصرف عنه مسرعا ، فوجم عمر من كلمته ، وقال على : « إنه يتوعدك يا أمير المؤمنين ! » .

ثم عرض أبو لؤلؤة مرة أخرى للفاروق وهو فى رهط من الصحابة ، فقال له عمر : « ألم أُحَدَّث عنك أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحى تطحن الريح ! ؟ » فنظر إليه أبو لؤلؤة ساخطا ، وقال : « والله لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها فى المشرق والمغرب ! » فلما ولّى العبد ، أقبل عمر على الرهط من حوله ، فقال : « لقد أوعدنى العبد آنفا ! » .

حتى إذا كان يوم الجمعة الأخيرة من ذى الحجة عام ثلاثة وعشرين للهجرة ، قال عمر بعد أن خطب الجمعة : « رأيت أن ديكا أحمر نقرنى نقرة أو نقرتين ، فحدثت برؤ ياى أحد العالمين بتأويل الأحاديث ، فحدثنى بأنه يقتلنى رجل من الأعاجم ! وإن أقواما يأمروننى أن استخلف ! وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته ، والذى بعث به نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، فإن عجل بى أمر ، فالخلافة شورى بين هؤلاء الرهط الستة الذين توفى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو عنهم راضٍ : على ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، فإذا أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أميركم ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة » . فبكى الناس !

وبات عمر ليلته قلقا ، حتى إذا اقترب الفجر خرج من بيته يُكَبِّر ، ويوقظ

الناس للصلاة ، كما تعود ، فلما دخلوا المسجد دخل ، وتقدم ليؤمّهم ، فقال لهم : « اسْتَوُوا . . سَوُّوا صفوفكم » ، فلما استووا ، تقدم فكبر للصلاة ، فطلع عليه أبو لؤلؤة غلام المغيرة ، من زاوية من زوايا المسجد ، كان قد كمن فيها تحت ظلمة آخر الليل ، فانقض العبد بغتة على الفاروق وهو يكبر ، فطعنه ثلاث طعنات ، إحداهن تحت سرته . . قال ابن ميمون يصف ما كان : « إنى لقائم فى الصف ، ما بينى وبين عمر سوى عبد الله بن عباس ، غداة أصيب عمر ، وكان عمر إذا مر بين الصفوف قال : استووا ، حتى إذا لم يكن يرى خللا ، تقدم فَكَبّر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ، أو نحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كَبَّر فسمعتُه يقول : قتلنى الكلب ! حين طعنه الغلام . فطار العلج بسكين ذى طرفين ، لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم سبعة ! فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه ثوبا فحبسه فيه ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ قتل نفسه .

« وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف ، فقدمه للصلاة . فمن كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحى المسجد فإنهم لم يروا ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون : سبحان الله ! فصلّى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة ، قرأ فيها أقصر سورتين فى القرآن : العصر ، وإنا أعطيناك الكوثر » . . .

فحمل عبد الله بن عباس ونفر معه عمرَ حتى أدخلوه بيته ، وربطوا على الجراح ، وانصرف النفر ، وبقى معه عبد الله بن عباس ، وكان قد غشى على عمر ، فلما أفاق وقد طلعت الشمس سأل : « أصَلَّى الناس » قال ابن عباس : « نعم » قال : « لا إسلام لمن لا صلاة له ! » ثم دعا بوضوء فتوضأ وجراحه ما زالت تنزف من خلف الضمادات . . ثم قال : « اخرج يا عبد الله بن عباس ، فسل من قتلنى » ثم قال وهو ينظر إلى دمه الذى يسيل : « أرسلوا إلى طبيب ينظر إلى جرحى هذا . واسأل الناس يا ابن عباس أعن ملأ منكم ومشورة كان ما حدث لى ؟ » .

وخرج ابن عباس فسأل الناس ، وعاد إلى عمر فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن الناس زعموا أنه عدو الله أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة » . قال : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجّنى عند الله بسجدة سجدها له قط . ما كانت العرب لتقتلنى ! قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ، وكان والدك أكثرهم

رقيقا ! » قال ابن عباس : « إن شئت فعلنا بهم ما تأمرنا به نحوهم ! » قال عمر : « وكيف ذلك ، بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا بصلاتكم ، وحجوا حجكم ؟ » ثم همهم : « أبو لؤلؤة ! ؟ ماله قاتله الله ؟ ! والله لقد كنت أمرت به معروفا ! » .

وجاء الطبيب ، فسقى عمر لبنا فخرج من الجرح أبيض لم يتغير لونه ، فقال الطبيب : « يا أمير المؤمنين اعهد بالخلافة لمن بعدك » فبكى القوم ، وصرخت زوجته أم كلثوم بنت على : « وا عمراه ! » .

وبكى الرجال والنساء معها ، فقال عمر : « لا تبكوا علينا ، من كان باكيا فليخرج ، ألم تسمعوا ما قاله رسول الله : يُعَذَّب الميت ببكاء أهله عليه ؟ » . ثم تلا قوله تعالى : (وكان أمر الله قدرا مقدورا) ، ثم قال : « والله لو أن لى ما على الأرض من شىء لافتديت به من هول المطلع ! » فقال ابن عباس : « والله إنى لأرجو ألا تراها إلا مقدار ما قال الله : (وإنْ منكم إلا واردها) إن كنتَ ما علمنا لأمير المؤمنين ، وأمين المؤمنين ، وسيد المؤمنين ، تقضى بكتاب الله ، وتقسم بالسَّوِيّة ! » فقال : « أتشهد لى بهذا يا ابن عباس ؟ » فسكت قليلا ! ! قال عمر : « أتشهد لى بهذا يا ابن عباس » . فقال علىٌّ من خلال الدمع : « نعم يا أمير المؤمنين ، نشهد لك بذلك عند الله يوم القيامة ! ! » .

فبكى عمر ، وأبكى الناس ! فقال له ابن عباس : « يا أمير المؤمنين ، والله إن كان إسلامك لنصرا ، وإن كانت إمامتك لفتحا ، والله لقد مَلأْتَ إمارتك الأرضَ عدلا ، ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك . » فقال عمر : « أجلسونى » فلما جلس قال لابن عباس : « أعد عَلَىّ كلامك » ، فلما أعاده قال له : « أتشهد لى بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، أشهد » ففرح عمر بذلك ، وابتسم ، فتفاءل الناس ، ورجوا أن يشفيه الله ، ومسحوا الدموع ، وخرج أحدهم يذكر الناس بقول أبى عبيدة رحمه الله : « إن مات عمر رَقّ الإسلام ، ما أُحِبُّ أنَّ لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وأنى أبقى بعد عمر ! » فسئل : « ولِمَ ؟ » قال : « سترون ما أقول إن بقيتم : إن ولى وال بعد عمر ، فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به ، لم يطع له الناس ، وإن ضعف عنهم قتلوه ! » .

ودخلت عليه حفصة ، فقالت باكية : « يا صاحب رسول الله ! ويا صهر

رسول الله ! ويا أمير المؤمنين ! » فقال لها : « إنى أُحَرّج عليك بما لى عليك من الحق أن تندبينى بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلن أملكها ! » .

ثم قال لابنه عبد الله : « اذهب إلى أم المؤمنين عائشة فاستأذنها أن أُدْفَن مع أخوىّ ، ولا تقل لها أمير المؤمنين يستأذنك ، فإنى لست لهم اليوم بأمير . . قل لها عمر يستأذنك » . . فوجدها عبد الله قاعدة تبكى ، قال لها : « يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه » . قالت : « قد والله كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى » .

وقال عمر لمن حوله : « هذا الأمر (يعنى الخلافة) فى أهل بدر ، ثم فى أهل أُحُد ما بقى منهم أَحَدٌ ، ثم لكذا وكذا ، وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفِتح شىء ! » (والطلقاء هم المشركون الذين عفا عنهم الرسول يوم فتح مكة ، وأسلموا) ثم قال : « أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وبالمهاجرين الأولين : أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار الذين تبوّءوا الدار والايمان : أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيرا ، فهم رِدْءُ الإسلام (ردء : عون) ، وغيظ العدو ، وجباة المال : ألا يؤخذ منهم إلا فضلهم (ما زاد عن حاجتهم) عن رضى منهم . وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ من حواشى أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله ورسوله (أهل الذمة) : أن يوفى لهم بعهدهم ، وألا يُكَلفُّوا إلا طاقتهم ، وأن يقاتل من وراءهم . » ثم قال : « ادعوا لى عليا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف » ، فلم يكلم أحدا منهم غير على وعثمان ، فقال : « يا على ، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وصهرك ، وما آتاك الله من العلم والفقه ، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله » . ثم قال لعثمان : « يا عثمان ، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وسنك وشرفك ، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله ، ، ولا تجعل بنى معيط (عشيرة عثمان) على رقاب الناس » ثم قال : « ادعوا لى صهيبا » ، فدعوه ، فقال له : « صلِّ بالناس ثلاثة أيام إذ يجب أن يتفق خلالها هؤلاء الناس على خليفة » . . فصرخ صهيب : « وا أخاه ! » قال عمر : « يا صهيب ! أما علمت أن المعول عليه يعذَّب ؟ » فانصرف صهيب تسيل دموعه فى صمت . . . وخرج الناس من عند عمر .

فلما خرجوا ، وبقى معه ابنه عبد الله قال له عمر : « لو ولوها عليا سلك بهم الطريق ! » فقال له عبد الله : « وما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تستخلفه ؟ ! » قال : « أكره أن أتحملها حيا وميتا » . . وصمت قليلا ثم قال : « أن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر ، فقد استخلف عمر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى الرسول) » .

وبعد حين دخل عليه بعض من الصحابة ، فقال لهم : « إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التى لا جبرية فيها ، وباللين الذى لا وَهَن فيه ! » . . فقالوا له : « والله لوددنا أن الله زاد فى عمرك من أعمارنا » فقال : « اعلموا أنى لم أستخلف ، وأن من أدرك وفاتى مِنْ سَبْى العرب من مال الله فهو حر . . واعتقوا من أسلم من رقيق الإمارة » .

فاستعبر على وقال : « يا أمير المؤمنين ، أنفسنا تفدى نفسك ، ودماؤنا تفدى دمك ! » .

حتى إذا كان اليوم التالى وهو يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة ، توفى عمر بعد أيام من طعنه . . ومات فى نحو الستين من عمره ، بعد أن حكم عشر سنين وخمسة أشهر وأياما !

ولما علم الناس بموته ارتجت الآفاق ، ووجم الكل ووجفوا ، وقالوا : « إن القيامة قد قامت ! » وزلزل الناس زلزالا شديدا .

وجاء على ، فوقف على سرير عمر باكيا ، ثم كشف الثوب عن وجهه ، ثم قال : « رحمة الله عليك يا أبا حفص ! فوالله ما بقى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحب إلىّ أن ألقى الله بصحيفته مثلك ! ما مات رسول الله حتى عرفنا أن أفضلنا بعده هو أبو بكر ، وما مات أبو بكر حتى عرفنا أن أفضلنا بعده هو عمر . . كان أبو بكر أَوّاها حليما ، وكان عمر ناصحا لله فنصحه ، والله ما خَلّفْتُ أحدا أحب أن ألقى الله بمثل علمه وعمله منك ، وأيم الله إن كنت أظن ليجعلك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كثيرا : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأظن أن يجعلك الله معهما » .

* * *

ولما شُيِّع عمر ، وعاد الناس باكين ، مرت الساعات وهم واجمون . . ووضعت الموائد بعد صلاة العشاء ، فلم يُقبل أحد من الناس على الطعام ! وما كانوا قد أكلوا طوال يومهم الحزين هذا ، فقال العباس لهم : « يا أيها الناس ، إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد مات ، فأكلنا وشربنا ، ومات أبو بكر رضى الله عنه فأكلنا وشربنا ، فإنه لابد للناس من الأكل والشرب » .

ومد يده فأكل ، فأكلت الناس . ولكن المدينة لم تعرف منذ قضى الرسول وأبو بكر يوما أشد حزنا ، ولا أكثر باكيا وباكية من يوم قضى عمر ! !

وعاد الناس يحيون الحياة ، ويقضون العمر . . فما زالت الأرض تدور ، والشمس تطلع عليهم ، وتغرب عنهم . . وجرت سنة الله فى خلقه ، والحياة تمضى ، ولابد للحياة ، مهما يكن الأمر ، من أن تمضى !

أما عبد الله بن مسعود ، فقد ظل كلما ذكر عمر يبكى حتى يبتل الحصى من دموعه ، ثم يقول : « إن عمر كان حصنا حصينا للإسلام ، وما رأيت عمر قط إلا وكأن بين عينيه مَلَكاً يسدده . . كان إسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة » .

وأما أبو طلحة الأنصارى ، فقال : « والله ما أهل بيت من المسلمين بعد عمر إلا وقد دخل عليهم نقص فى دينهم ودنياهم » .

وقال حذيفة : « إنما كان مَثَل الاسلام أيام عمر مثل أمر مقبل لم يزل فى إقبال ، فلما قتل أدبر فلم يزل فى ادبار » .

وقالت عائشة : « زينوا مجالسكم بالصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وبذكر عمر » .

وقالت أم أيمن : « اليوم وَهَى الإسلام » .

وقال سعيد بن زيد : « اليوم ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة » .

والأيام تمضى ، ويفيق الناس من هول الصدمة ، فإذا هم يتساءلون : من قتل عمر ؟ ! . . أيقتله أبو لؤلؤة لأنه لم يرفع عنه بعض ما فرضه عليه صاحبه المغيرة من ضريبة . . ؟ ! أيصلح هذا سببا ؟ ! . . إن أعداء عمر لكثيرون ،

فقد أجلى اليهود من جزيرة العرب ، ولم يسمح لدين غير الإسلام بالوجود فى بلاد العرب ، ولكن أكثر الناس عداء لعمر هم هؤلاء الفرس الذين كانوا إلى الأمس القريب سادة العرب ، فسادهم العرب ، بما صنعه عمر ، وجعلوا الولدان والنساء من أشراف الفرس عبيدا وإماء ! !

وكان أبو لؤلؤة يبكى كلما رأى سبايا قومه بعد فتح نهاوند ، وكان عظماء الفرس الذين أصبحوا عبيدا للعرب قد يئسوا من استرداد دولتهم ، بعد أن تخطف القهر والضياع ملكهم المهزوم يزدجرد ، ولكنهم ما يئسوا قط من الانتقام ! !

أقبل عبد الرحمن بن عوف على قوم يتدارسون أمر الجريمة ، ويسأل بعضهم بعضا عمن قتل عمر ، وكان فى القوم عبيد الله بن عمر ، وهم يتأملون جميعا ذلك السكين ذى النصلين الذى قُتِلَ به عمر ، فأخذ ابن عوف السكين من مقبضها وأخذ يتأمل النصلين على طرفى المقبض ، وهو يتعجب ، وقال : « رأيت هذه بالأمس مع الهرمزان وجفينة ، فقلت لهما : ما تصنعان بهذه السكين ؟ فقالا : « نقطع بها اللحم ! »».

فوثب عبد الرحمن بن أبى بكر فى زحام الناس ، فقال : « لقد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر ، ومعه جفينة والهرمزان ، وهم نَجِىّ (أى يتناجون) ، فلما بَغَتّهم ثاروا ، فسقط منهم خنجر له رأسان ونصاب فى وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذى قُتِلَ به عمر » فنظروا ، فوجدوه كما وصفه هو وعبد الرحمن بن عوف ، فلم يَرْتَبْ أحد بعد فى أن الثلاثة ائتمروا ، وأن أبا لؤلؤة ما قتل نفسه حين أحيط به ، إلا لكى يدفن معه سر المؤامرة . فمن يدرى ؟ ! ربما كانوا قد أعدوا لاغتيال آخرين من أبطال الفتوحات . . ؟ !

ولم يتمالك عبيد الله بن عمر نفسه ، فتقلد سيفه ، ومضى إلى الهرمزان فقتله ، ثم قتل جفينة ، وكان من نصارى الحيرة وادعى الإسلام ، ثم انطلق فقتل ابنة لأبى لؤلؤة صبية ، ومضى يبحث عن العلوج فى طرقات المدينة ، فلم يلق أحدا إلا قتله ، وكان ممن قتلهم بعض الذين أسلموا ، فأسرع إليه رهط من المهاجرين على رأسهم سعد بن أبى وقاص ، واستطاعوا بعد جهد أن يمسكوا بتلابيب عبيد الله ، فلما علم عثمان بما كان منه قال له : « قاتلك الله ! قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر فى ذمة رسول الله ! » . . ثم أن عثمان لما تولى ،

دفع دية القتلى من ماله ، فقد استقبح أن يقتل أبو لؤلؤة عمر ، ويُقتل من بعده ابنه عبيد الله .

* * *

هكذا قتل عمر . . قتل بعد أن أسس الدولة الاسلامية ، فأقام أركانها ، ووطد بنيانها ، ورفع القواعد منها ، وبسطها حتى بلغت بحر قزوين شرقا ، وحدود تونس غربا ، وبلاد الصقالبة والروم شمالا ، والسودان جنوبا ، وأصبحت أكبر دولة فى العالم الذى عرفه الناس حينئذ !

وحكم عشرة أعوام ونحو نصف عام ، فأتاح له الله أن يجعل الدولة الإسلامية هى أعظم دولة فى زمانها ، ثم أنه اجتهد فى جعل مبادىء الإسلام وقيمه منارات تضىء ما حولها من دنيا الناس . .

ووأسفا على عمر ! ! قضى بعد أن جمع المسلمين فى أمة واحدة ، وبعد أن انطلق يحقق الرخاء لرعيته ، فى ظل ظليل من العدل ، والمساواة ، والإخوة الانسانية . . !

ذهب عمر رضى الله عنه بعد أن حقق فى التاريخ الإسلامى أُوَلِيَات لم يسبقه إليها أحد : فهو أول من دَوَّن الدواوين ، ونظم العطاء وجعله رواتب شهرية ، ووضع التاريخ الهجرى ، وأشعر أهل البلاد المفتوحة بأنهم والعرب سواء ، وجعل دستور العلاقات قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول رسوله : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . . » وسبق بهذا كل الحاكمين فى التاريخ !

ووأسفا على عمر ! ! فهو أول حاكم فى التاريخ كفل للناس حرية العقيدة ، وحرية الفكر ، ورعى للانسان وقاره واحترامه وعزته وكبرياءه . . وهو أول حاكم فى الإسلام جمع الناس على قيام رمضان ، وجعل فى كل مسجد من مساجد الدولة إمامين يصليان بالناس التراويح : فإمام للرجال ، وإمام للنساء . .

وهو أول من جعل الخراج على أهل الأمصار ، والجزية على أهل الذمة ، وضمن لهم حماية الدولة ، وألا يُكلّفوا بما لا يطيقون ، وأن يمارسوا شعائرهم الدينية فى حرية ، وحمى لهم أعراضهم ، وأموالهم ، ومعابدهم . .

وهو أول من جعل القضاء سلطة مستقلة ، ووضع أصول التقاضى لضمان حق كل انسان فى قدر متساو من العدل .

وهو أول من عين أهل الفتوى ليعلّموا الناس أصول الدين ، والمواريث ، وقواعد الاسلام فى التعامل مع حياة كل يوم . .

وهو أول من حاسب عماله حسابا عسيرا ، مَكَّن للرعية المظلومين من الرعايا الظالمين . .

وأسفا على عمر ! ! هو أول من حاسب عماله على أموالهم ، وألزم كل منهم حين يجىء إلى المدينة عاصمة الدولة ، أن يدخلها نهارا ، ليرى الناس ما حمله ، وأن يُلِمّ بدار الحكم وهى ركن فى المسجد ، قبل أن يذهب إلى داره . . . وهو أول من كتب أموال العمال عند توليتهم ، وضم إلى بيت المال ما زاد عما كان يملكونه عندما تولوا ، أو قاسمهم أموالهم . . .

وأسفا على عمر ! ! هو أول من سأل كل من تولى أمرا من أمور المسلمين : من أين لك هذا ؟

وأسفا على عمر ! ! فقد حارب التظاهر والتكلف ، وهو أول من كشف المتاجرين بالدين ، وقمعهم ، والتفت إلى ما هذبه الإسلام من النفوس ، وما رسمه للبشر من سلوك ، متجاوزا إلى القلوب والسرائر والضمائر ، ما يبديه بعض الناس فى الظاهر !

وأسفا على عمر ! ! فهو أول من وجه سيرة الناس إلى الاهتمام بالعمل المنتج الذى يفيد البشر ، وجعل العمل المثمر أفضل جهاد ، فأضاف بالعمل الصالح ، وبمعطيات الطاقات الإنسانية ثراء عظيما للأمة ، وللبشرية . .

وأسفا على الفاروق عمر بن الخطاب فهو أول من تفقد أحوال الرعية فى النهار والليل ، ورفع عنها إصْرها ، والأغلال التى فى أعناقها ، وأذل جباريها ، ونصر ضعفاءها . .

وهو أول قاض فى الإسلام ، من أجل ذلك ما أهمه شىء حين ولى أمر المسلمين ، مثلما أهمه أن يبسط سلطان العدالة ، ويحقق المساواة بين الناس !

وأسفا على عمر ! ! فهو أول من هز المجتمع فى عصره ، وأقامه على

مكارم الأخلاق ، وأطلق له الحرية الدينية والعقلية ، فأثرت الإنسانية كلها بعطاء بنيها جميعا بلا استثناء . .

وعلى الرغم من مرور كثير من الأمم والقرون ، فما زال اسم الدولة الإسلامية بما اقترنت به من عدل وإخاء ومحبة وثراء روحى . . ما زال هذا كله مرتبطا باسم عمر ، فهو أول حاكم فى الإسلام اجتمعت عليه الأمة ، وآخر حاكم التَفّت وراءه ، بلا خلاف ، ثم تفرقت من بعده ، ولم تجتمع إلى يومنا هذا . . ! !

واأسفا على عمر ! !

فهلاَّ عزمات من عزمات عمر ، ونفحة من روحه فى هذا الهجير الذى نتلظى فيه ، تعيد إلى الحياة روعة الأيام الجميلة الماضية ، وبهجتها وبهاءها ، ودفء المودات ، لتجعل من الانسان بحق أخا للانسان ، وتظلل عالمنا بالعدل ، والاخاء ، والمساواة ؟ ! !

هلاَّ قبس من تلك الشعلة المتأججة من الحب ، والخير ، والجمال ، فى هذا الليل الداجى من صراع المصالح الفاسدة ، ومن الخذلان والهوان !

هلا عبرت إلى عصرنا هذا المعذب ، بعض القيم الفاضلة من ذلك العصر الجليل ، لنستنقذ إنسان هذا الزمان ! ! . .

لن يصلح أواخر هذا الأمر إلا بما صلحت به أوائله ، فمن لنا بمن يقيم الموازين والحساب ، كما صنع الفاروق عمر بن الخطاب ؟ !

أفما آن للناس أن يستلهموا تلك الأيام المجيدة ، ويقتدوا بتلك الروح العظيمة ؟ !

أما آن للناس فى عصرنا أن يعتبروا ، وقد خلت من قبلهم المَثُلَات ؟ !

واأسفا على الناس ! ! !

اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ! !

أهم المراجع

القرآن الكريم	:	كتب التفسير ، وبصفة خاصة الطبرى وابن كثير والزمخشرى والسيوطى والنسفى والقرطبى
الحديث الشريف	:	الستة الصحاح
الأدب المفرد	:	الإمام البخارى
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم	:	محمد فؤاد عبد الباقى
نهج البلاغة	:	للإمام على بن أبى طالب ، اختيارات الشريف الرضى ، شرح الشيخ محمد عبده

* * *

الاجتهـــاد	:	د . عبد المنعم النمر
الأحكام السلطانية	:	المـــاوردى
الإحكام فى أصول الأحكام	:	ابن حـــزم
إحياء علوم الدين	:	الإمام الغزالى (المتوفى فى القرن السادس الهجرى)
الأخبار الطوال	:	أبو حنيفة الدينورى
الاختيارات الفقهية	:	ابن تيميـة
الاستيعاب	:	ابن عبد البر
أسد الغـابة	:	ابن الأثـــير
الإسلام وحقوق الانسان	:	د . القطب محمد القطب طبلية
الإسلام وعدالة التوزيع	:	د . محمد شوقى الفنجرى

الأشباه والنظائر فى القرآن	:	البلخى
الإصابة فى معرفة الصحابة	:	ابن حجـر
أصول الفقـه	:	الشيخ عبد الوهاب خلاف
إعجاز القـرآن	:	الباقلانى
إعلام الموقعين	:	ابن قيم الجوزية
الأغـانى	:	الأصـفهانى
الأم	:	الإمام الشافعى
الأمـوال	:	أبو عبيد
الأوائـل	:	أبو هلال العسكرى
البداية والنهاية	:	ابن كثير
البيـان والتبـين	:	الجاحـظ
تاريخ الأمم والملوك	:	ابن جرير الطبرى
تاريخ التشريع الإسلامى	:	الشيخ محمد الخضرى
تاريخ الشعوب الإسلامية	:	بروكلمان ترجمة د . نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى
تاريخ الفقه الإسلامى	:	د . محمد يوسف موسى
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية	:	الشيخ مصطفى عبد الرازق (شيخ الأزهر الأسبق)
تهذيب الآثار ، وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار	:	الطبرى (قرأه وخرج أحاديثه محمود شاكر)
حركة الفتح الإسلامى	:	د . شكرى فيصل
حسن المحاضرة	:	السـيوطى
خالد بن الوليد	:	أبو زيد شلبى
خالد بن الوليد	:	صادق ابراهيم عرجون
الخـراج	:	أبو يوسف
خزانة الأدب	:	البغـدادى
خصائص العشرة الكرام البررة	:	الزمخشـرى
خلفاء الرسـول	:	خالد محمد خالد
الذيل على رفع الإصر	:	السـخاوى

الروض الأنف : السهيلى
السياسة الشرعية : ابن تيمية
السياسة المالية فى الإسلام : عبد الكريم الخطيب
سيرة عمر بن الخطاب : ابن الجوزى
السيرة النبوية : ابن هشام
صبح الأعشى : القلقشندى
الطبقات الكبرى : ابن سعد
الطرق الحكمية : ابن قيم الجوزية
العبقريات : عباس محمود العقاد
العقد الفريد : ابن عبد ربه
عمر بن الخطاب : أحمد التاجى
عيون الأخبار : ابن قتيبة
الفاروق عمر : د . محمد حسين هيكل
الفاضل : المبرد
فتاوى وأقضية عمر بن الخطاب : محمد عبد العزيز الهلاوى
الفتاوى الكبرى : ابن تيمية
الفتنة الكبرى : د . طه حسين
الفهرست : ابن النديم
القاموس المحيط : الفيروز أبادى
القضايا الكبرى فى الإسلام : عبد المتعال الصعيدى
الكامل فى التاريخ : ابن الأثير
الكامل فى اللغة والأدب : المبرد
لسان العرب : ابن منظور
المجددون فى الإسلام : عبد المتعال الصعيدى
مروج الذهب : المسعودى
المغنى فى أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار (القاضى أبو الحسن)
المقدمة : ابن خلدون
الملكية فى الشريعة الإسلامية : الشيخ على الخفيف
النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى

النظم الإسلامية	:	د . القطب محمد القطب طبلية
نهاية الأرب	:	النويـرى
يتيمة الدهر	:	الثعالبى

كتب للمؤلف

- قصيدة من أب مصرى إلى الرئيس ترومان : دار الفكر (١٩٥٢) .
- أرض المعركة (صور من كفاحنا الشعبى) : دار محفوظ (١٩٥٢) ـ طبعة ثانية (الأعمال الكاملة) هيئة الكتاب (١٩٧٨) .
- الأرض (رواية) : الكتاب الذهبى (١٩٥٤) ـ الطبعة العاشرة ، مكتبة غريب (١٩٨٤) .
- أحلام صغيرة (مجموعة قصص قصيرة) : كتب للجميع (١٩٥٥) ـ طبعة ثانية (الأعمال الكاملة ـ هيئة الكتاب سنة ١٩٧٨ ـ فى مجلد واحد مع أرض المعركة) .
- باندونج والسلام العالمى : دار الفكر (١٩٥٥) .
- قلوب خالية (رواية) : الكتاب الفضى (١٩٥٥) ـ الطبعة الثالثة ، هيئة الكتاب (١٩٨٦) .
- الشوارع الخلفية (رواية) : (١٩٥٨) المكتب التجارى ـ طبعة رابعة ١٩٧٩ (هيئة الكتاب الأعمال الكاملة) .
- محمد رسول الحرية : عالم الكتب (١٩٦٢) ـ طبعة سابعة ، هيئة الكتاب (١٩٧٩) ـ الطبعة الثامنة ، هيئة الكتاب (١٩٨٦) .
- مأساة جميلة أو مأساة جزائرية (مسرحية شعرية) : دار المعارف (١٩٦٢) .
- الفتى مهران (مسرحية شعرية) : المكتبة العربية (هيئة الكتاب ـ ١٩٦٥) .

- رسالة إلى جونسون (قصيدة طويلة) : دار التعاون (١٩٦٧) .
- تمثال الحرية (مسرحية شعرية فى فصل واحد) : دار التعاون (١٩٦٧) .
- خطاب من أب مصرى وقصائد أخرى (ديوان شعر) : الدار القومية (هيئة الكتاب) .
- وطنى عكا (مسرحية شعرية) : دار الشروق (١٩٦٨) .
- الفلاح (رواية) : عالم الكتب (١٩٦٨) - طبعة ثانية ، تونس (١٩٧١) .
- ثأر الله - الحسين ثائرا - مسرحية شعرية : الدار القومية (١٩٧٠) - الطبعة الثامنة فى مجلد واحد مع الحسين ثائرا ، دار العصر الحديث ، بيروت (١٩٨٥) .
- ثأر الله - الحسين شهيدا - مسرحية شعرية : الدار القومية (١٩٧٠) .
- قراءات فى الفكر الإسلامى : الدار القومية (هيئة الكتاب) بيروت (١٩٧٢) .
- النسر الأحمر (النسر والغربان والنسر وقلب الاسد مسرحيتان شعريتان فى مجلد واحد بعنوان (صلاح الدين) دار المعارف (١٩٧٥) .
- شخصيات إسلامية - أئمة الفقه التسعة) دار اقرأ ، بيروت (١٩٨٠) - الطبعة الثالثة (١٩٨٥) ، دار العصر الحديث ، بيروت .
- ابن تيميه الفقيه المعذب : الموقف العربى (١٩٨٣) - كتاب اليوم (١٩٨٦) .
- عرابى زعيم الفلاحين (مسرحية شعرية) : مركز الأهرام للترجمة والنشر (١٩٨٥) .
- على إمام المتقين : الجزء الأول (١٩٨٤) ، مكتبة غريب .
- على إمام المتقين : الجزء الثانى (١٩٨٥) ، مكتبة غريب .
- عمر بن عبد العزيز : ١٩٨٦ ، مكتبة غريب .

مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ **كتب للأطفال والنشء**

فى مجال العلوم

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال (ترجمة د . محمد أمين سليمان)
- طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر (ترجمة د . أيمن الدسوقى)
- ميكى يسأل ويجيب (ترجمة د . أحمد فؤاد باشا)

□ **سلسلة علماء العرب**

- ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) .
- ابن الهيثم (عالم البصريات)
- البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)
- جابر بن حيان (أبو الكيمياء)
- ابن البيطار (عالم النبات)
- ابن بطوطة (رحالة الاسلام) (سليمان فياض)

□ **فى مجال التربية البدنية والرياضية**

- موسوعة جوف الرياضية

- السباحة والغطس
- الالعاب الأوليمبية
- العاب الأطفال (ترجمة : نجيب المستكاوى) .

□ **فى مجال ترقية المهارات والخيال**

- ألوان ألوان (حسين أبو زيد)
- ألوان ألوان - حيوانات الغابة (حسين أبو زيد)
- ألوان ألوان - حول العالم (حسين أبو زيد)
- ألوان ألوان - حيوانات أليفة (حسين أبو زيد)

- تعال نصنع (حسين أبو زيد)
- رحلة صيد (شاكر المعداوى)
- حكايات أعجبتنى (يعقوب الشارونى)
- حكايات عربية واسلامية (جزئين) (علية توفيق ـ رسوم : كمال درويش)

في مجال التربية الفكرية

- حوار بين طفل ساذج وقط مثقف (أحمد بهجت)

كتب الابداع الأدبى

- طرائف دبلوماسية (السفير جمال بركات)
- عرابى زعيم الفلاحين (عبد الرحمن الشرقاوى)
- كانت صعبة ومغرورة (احسان عبد القدوس)
- المجانين لا يركبون القطار (لطفى الخولى)
- مسافر على الرصيف (محمود السعدنى)

كتب فى الابداع الفكرى

- سرقة ملك مصر (محسن محمد)
- معجم الأمثال العامية مع كشاف موضوعى (أحمد تيمور باشا)
- انطباعات مستفزة (د . يوسف ادريس)
- مذكرات صائم (احمد بهجت)
- ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية (د . لويس عوض)

كتب دينية

- قراءة فى وثائق البهائية (د . بنت الشاطىء)
- القرآن مأدبة الله للعالمين (الشيخ احمد حسن الباقورى)
- معانى القرآن بين الراوية والدراية (الشيخ احمد حسن الباقورى)
- الله فى العقيدة الاسلامية (أحمد بهجت)
- الفاروق عمر بن الخطاب (عبد الرحمن الشرقاوى)
- نحل العسل فى القرآن والطب (د . محمد البنبى)
- التدين المنقوص (فهمى هويدى)

كتب سياسية وفكرية

- ملفات السويس (محمد حسنين هيكل)
- محاربون ومفاوضون (كمال حسن على)
- نحن والعالم ونحن وانفسنا (ابراهيم نافع)
- المأزق العربى (لطفى الخولى)

● شهود العصر الأهرام ١١٠ مقالات
و ١١٠ اعوام

□ كتب علمية وطبية

● إيـــــــــــدز

" مرض نقص المناعة المكتسب " (د . محمد صادق صبور)

□ معاجم وموسوعات

● معجم مصطلحات الحاسبات الألكترونية (مركز الأهرام للترجمة والنشر)
● الموسوعة المصورة للشباب (ترجمة : د . محمد أمين سليمان
د . أحمد فؤاد باشا)

□ □

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٤٧ / ١٩٨٧

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

"لا تقولوا لي الرأي الذي تظنونه
يوافق رأيي، بل قولوا الرأي الذي
تحسبونه موافقا للحق"

عمر بن الخطاب

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر